أبو فهر
محمود محمد شاكر

أعصفي يا رياح

وقصائد أخرى

شرح وتقديم
الدكتور عادل سليمان جمال

جمع وتحقيق
الدكتور فهر محمود محمد شاكر

الناشر

مطبعة المدني
المؤسسة السعودية بمصر
٦٨ شارع العباسية - القاهرة - ت : ٤٨٢٧٨٥١

دار المدني بجدة
شارع الصحافة حي مشرفة
تليفون - فاكس : ٦٧١٣٤٢٤

الطبعة الأولى

١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م

رقم الإيداع: ٢٠٠١/٧٢٧٣م

مطبعة المدني المؤسسة السعودية بمصر
٦٨ شارع العباسية - القاهرة - ت: ٤٨٢٧٨٥١

بسم الله الرحمن الرحيم

رسالة عَرْض الديوان

الحمد لله وحـده لا شريك له، الذى أَعْطَى كل شىء خَلْقه ثم هَدَى، وآتى الحكمة وفَصْلَ الخطاب مِن عباده مَن اصطفى، والذى عَلَّمنا البيان بلسان عـربى مُبين. والصلاة والسلام على نبينا الكريم الذى أوتى جوامع الكلم، فـما ينطق عن الهوى، كرَّمه ربَّنا عزّ وجلّ فأرسله هاديًا ومبشرًا ونذيرا للناس أجمعين دون سائر أنبياء ربنا ورُسله.

شُغِلت أنا وأخى الأصغر الدكتور فِهْـر محمود شاكر بجمع مقالات أسـتاذنا أبى فهر رحـمه الله خلال العامـين الماضيين، وسوف أشير إلى ذلك فى حينه وموضعه من المقالات التى آمل أن أنتهى منها خـلال صيف عام ٢٠٠١، ولكن الكاتب المفكر السيـاسى الأديب الأستاذ عـبد الرحمن شـاكر رأى أن نؤجّل ذلك إلى حين. ونبـدأ بجمع شعـر أبى فِهْر، وبعضـه منشور وبعضه الآخر مخطوط لم يُنْشَر بعد(١). وكان موعد سفرى قد

(١) وبعضه - وهو شعر الصِّبا مزقه الأستاذ ولم يحتفظ به أو يحفظ منه شيئًا، كما ذكر فى مقابلة مع الأستاذ نجم عبد الكريم، فقد سأله متى بدأ يكتب الشعر،=

نال، فاستقلّ الدكتور فـهر بعبء جمع الشعر ومن ورائه عين لا تغفل ولا تنام تحـثه وتشجـعه، ورغم تعـبها وكـلالها فلم يبخل صاحبها أخونا الأكبر الأستاذ عبد الرحمن شاكر بمراجعة التـجارب الأولى. فله خـالص الشكر على مـا أعطى وبذل، وأيَّد وعضَّد، ولولا إصراره الذى لم يفتر وعَزْمه الذى لم يلن لما رأى الديوان النور هذا العام.

ولكنى حين قمت بمراجـعة الديوان وجدت قصـيدتين فاته جمعـهما فى هذا الديوان. أولاهما قصـيدة قافية من خـمسة وعشرين بيـتًا، نشرت فى جريدة السـياسة الأسبوعـية، العدد ٢١٥ بتاريخ ٩ أبريل، سنة ١٩٣٠، وثانيتهـما داليّة من أربعة وعشـرين بيتًا، نشرت فى السـياسة الأسـبوعية أيضًـا، العدد ٢٣٠، بتاريخ ٢ أغسطس، سنة ١٩٣٠. وكان الديوان قد تم

= فقال: فى الحادية عشرة أو الثانية عشرة، فسأله الدكتور نجم عبد الكريم: «هل تحفظ شيـئًا من هذا الشعر؟» فأجـاب «لا أحفظ شيئًا منه لأننى مـزقته كله». انظر مـجلة الأدب الإسلامى، العـدد السـادس عشـر من المجلد الرابع، سنة ١٤١٨هـ، ص : ٦٠.

أثناء زيارتى في شهر مارس سنة ٢٠٠١ أنبأتنى ابنتى زلفى مـحمود شاكر أنها عثـرت على أشعـار خطية كثـيرة بخط أبيـها، ولما اطلعت عليـها، رأيت أن الأستاذ أفرد قسـمًا منها سماه «الحجازيات» في دفتر خـاص، أما سائر الشعر وهو كثـير جدًا فنظمـه الأستاذ سنة ١٩٣٠، وهو مقـيم بالحلمية. فـعسى أن ينشط الدكتور فهر لبعث جزء من تراث أبيه.

جمـعه، كما تم جـمع المقدمة، وبذا أصـبح من الصعب ضم هاتين القصيدتين إلى هذا المجموع للأسف الشديد.

وبعـد أن قلَّبنا وجـوه الفكر والنظر رأينا أن نرتب قـصـائد الديوان ترتيبًـا تاريخيًّا، أى حسـب تاريخ كتابتهـا أو نشرها، وميزة هذا المنهج أن دارس الديوان يستطيع أن يتتبع تطور ملكة الشعر عند أبى فهر منذ نشر أول قصيدة سنة ١٩٢٦، أى وهو فى السابعـة عشرة من عمـره إلى أن استحكم فنه فى رجـولته وكهولته.

ولكن صادفتـنا عقبة جعلتنـا نحيد شيئًـا ما عن هذا المنهج اضطرارًا. فهناك ثلاث قـصائد لم تُنْشَر ولم نسـتطع أن نحدد لهـا تاريخًا، وهى لا شك من نظمـه فى مرحلة مـتأخـرة من حيـاته، فبـدأنا بالقصـيدة التى جـعلناها عنوانًا للديوان وهى «اعصـفى يا رياح». وهذه القصيـدة ألقاها الأستـاذ على طلبة كلية الآداب بجامعة الإسكندرية عام ١٩٨٠ بدعوة من المرحوم الدكتور مصطفى هدارة، ولم يُلْقِها كلَّها، نظرًا لطولها، ولكن الجزء الذى قـرأه منها سُـجِّل على شريط، وفـيه ذكر الأسـتاذ رحمه الله أنه كتبهـا «قبل القوس العذراء بزمن»، والمعروف أن القوس العذراء نشرت لأول مـرة سنة ١٩٥٢. ثم ثَنَّينا بقصيدة «وَعْد» نظمها الأسـتاذ فى الشاعر الفذ المرحوم مـحمود حسن إسماعـيل وكَلْبه «وَعْد» ولم نجد أية إشارة إلى تاريخ كتـابتها.

ثم ثلّثنا بقصيدة «لا تَعُودِى»[١]. وأنا أظن ظنًّا أشبه باليقين أنها نظمت بين سنة ١٩٣٦ و ١٩٤٥. فالملاحظ أن جميع القصائد التى تعبر عما أحس به الأستاذ من خيانة المرأة تقع بين هذه السنوات. وحين تُنْشَر المقالات سيرى القارئ ثلاث مقالات نُشِرت فى مجلة الرسالة سنة ١٩٤٠ بعنوان «إلى أين؟!»، وفيها وصف بالغ لمرارة هذه التجربة وما تركت فى نفسه من ألم وحيرة وشك وعذاب.

ولم أَرْمِ بهذه المقدمة التى قدّمت بها للديوان إلى دراسة شعر أبى فهر وإنما هى كما يدل اللفظ «مقدمة». ولعل دارسى الأدب الحديث يُقْبِلون على دراسة هذا الشعر دراسة جادّة، ولا يكون حظه الإهمال كما حدث فى «القوس العذراء»، فرغم أنها نشرت سنة ١٩٥٢، ظهرت أول دراسة لها - فيما أعلم - فى مجلة الكتاب العربى (العدد: ١٥، سنة ١٩٦٥، ص: ١١-١٥) كتبها أستاذنا المرحوم زكى نجيب محمود، أعقبتها دراسة أخرى ظهرت فى الكتاب الذى أهديناه إلى أستاذنا بمناسبة بلوغه سن السبعين، والذى نُشِر سنة ١٩٨٢. كتب هذه الدراسة الدكتور إحسان عباس، أى بعد ما يقرب

(١) نُشِرت هذه القصيدة فى مجلة الأدب الإسلامى، المجلد الرابع، العدد السادس عشر، سنة ١٤١٨هـ، ص: ٦٥-٦٧. وقد خصص رئيس تحرير المجلة الزميل القديم الدكتور عبد القدوس أبو صالح أكثر العدد لدراسات متنوعة تناولت أعمال فارس العربية والعروبة الأخير محمود محمد شاكر.

من نشرها بثلاثين سنة وحاول أن يعلل سبب إهمال الدارسين لها بما فيهم هو نفسه. فلعله - أطال الله بقاءه - لا ينتظر ثلاثين سنة أخرى لينظر فى هذا الديوان، خاصة أول قصيدة فيه «اعصِفِى يا رياح».

قال الدكتور محمد أبو موسى فى ختام مقاله القيم «محمود محمد شاكر والفَجْر الصادق» المنشور فى مجلة الأدب الإسلامى (١٧ -٢٤): «وأتوجه إلى الأخوين الكريمين الصديق العزيزعبد الرحمن شاكر والدكتور فهر محمود شاكر برجاء هو من حق الشيخ علينا، ومن حق الأجيال عليهم، وهو أولًا: المحافظة على ما لم ينشر مما كتبه الشيخ وأعدَّه لذلك، ثانيًا: جمع كل مقالاته فى كل فنون المعرفة ونشرها. . .».

وقد وفى الأخوان الكريمان بما راود الدكتور محمد أبا موسى من أمل، وأدليت معهما بدَلْوِى، فأنفقت عامين بمساعدتهما فى إعداد مقالات الأستاذ التى نشرت فى مجلة الرسالة والمقتطف والثقافة والكاتب والمسلمون والبلاغ والمقطم وغيرها، ثم فى إعداد هذا الديوان. ولعلنا بذلك نوفّى الأستاذ بعض حقه علينا، فقد لزمته أربعين عامًا أعطانى فيها بغير حساب، شأنى فى ذلك شأن غيرى من طلاب العلم الذين كانوا يختلفون إلى داره من شتى أنحاء العالم العربى.

رحـمك الله يا أبا فهـر، فلم يقدّرك الناس حق قـدرك إلا بأخـرة من حيـاتك. ولعلك راضٍ بعض الرضى بما تشمـرّ له تلامذتك ومحبّوك ومَن أدركوا أنهم فقدوا عالمًا لم يُر مثله منذ عبـد القادر البغدادى صـاحب خزانة الأدب، فانكبُّـوا على ما تركت من آثار بالبحث والتنقيـر حتى يردُّوا بعض فضلك على أجيال مضت وأخرى آتيـة حتى آخر الزمان. ورحم الله المتنبى الذى عشقتَه حين قال - وكأنه يقول ذلك فيك اعترافًا بفضلك عليه-:

فلَقَدْ عُرِفتَ وما عُرِفْتَ حقيقةً ولَقَدْ جُهِلْتَ وما جُهِلتَ خُمولا

﴿ربَّنا لاَ تُزِغْ قُلُوبَنَـا بَعْد إِذْ هَـدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْـمَـةً إِنَّكَ أَنْتَ الوَهَّابُ﴾

عادل سليمان جمال

مصر الجديدة { ١٠ من المحـرم ١٤٢٢هـ
٤ أبريل (نيسان) ٢٠٠١م }

مقدمة دراسية

لن أتحدث هنا عن سيرة الأستاذ الذاتية، فقد كتب عنها الكثيرون بدءاً بما جاء فى مقدمة «دراسات عربية وإسلامية» الذى أهديناه إليه فى عيد ميلاده السبعين. وكتب عن ذلك أيضًا تلميذه وأخى المرحوم محمود الطناحى فى كتابه «مدخل إلى نشر التراث العربى» (ص ١٠٤ - ١٠٦)، وفى أكثر من موضع آخر، والأستاذ محمود الرضوانى فى «أبو فهر محمود محمد شاكر بين الدرس الأدبى والتحقيق»، والأستاذ عمر حسن القيام فى «محمود محمد شاكر .. الرجل والمنهج». وكلا العملين الأخيرين رسالة ماجستير، أما ما كتبه عنه ابن أخيه الأستاذ عبد الرحمن شاكر فى أماكن مختلفة، فهو ليس مقصوراً على السيرة الذاتية فقط بل يكشف عن جوانب هامة فى حياة الأستاذ وعصره. وكتبت عنه تلميذته وصديقته المرحومة عايدة الشريف أكثر من مرة أوفاها «محمود محمد شاكر: قصة قلم». ثم خصص الهلال جزءاً من عدده الصادر فى فبراير ١٩٩٧ بعنوان «محمود شاكر فى يوم مولده» ساهم فيه بعض محبيه ومريديه، كما وَقَفَت مجلة «الأدب الإسلامى» عددها السادس عشر كما ذكرت ذلك فى رسالة «عرْض الديوان» على حياة أستاذنا وأدبه.

وما أريد أن أتناوله هو طبيعة نشأة الأستاذ والجوّ الذى تنفّس فيه. وكيف أثر ذلك عليه وجعله ذلك الرجل المتفرد نسيج وحده بين شعراء عصره وكُتاب زمنه، وخرج شعره على المخرج الذى عهدناه، ودرجت كتاباته على مدرجها الذى ألفناه.

ولا أعنى هنا أن «الفنان» وليد بيئته فقط كما دعا الأستاذ أمين الخولى رحمه الله. فالبيئة وطبيعتها المتميزة تجعل الشعب الذى يعيش فيها له خصائص مادية ومعنوية تختلف عمن يعيش فى أى بيئة أخرى. وطبّق هذا المفهوم على الأدب المصرى، داعيًا إلى إلغاء التقسيم الزمنى للأدب حسب اختلاف العصور لأن هناك أثرًا قويًا لكل بيئة فى الأدب العربى، وأن أساس تقسيم الأدب العربى يجب أن يكون هو اختلاف البيئة وتغايرها فى الأقطار العربية، ووحدة المؤثرات المادية والمعنوية فى هذه البيئة «بحيث تفرد كل بيئة متجانسة بدرس خاص، لا كل قطعة من الزمن ببحث»(١)، ثم تابع ذلك مَن تابع من

---

(١) فى الأدب المصرى، لأمين الخولى. مطبعة الاعتماد، القاهرة ١٩٤٣. وانظر عرضا لآرائه للدكتور حسين نصار فى مقاله «الدعوة إلى دراسة الأدب المصرى» ص ١٧ - ١٩ المنشور فى كتاب «الأصالة والتجديد»، وهو ملخص بحوث ندوة عن أمين الخولى. المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة ١٩٩٦.

الدارسين متابعة مؤمن مُسْتوثِق أو مُتحفِّظ هيّاب، كأستاذنا الدكتور حسين نصار فى دراسته لشعر ابن وكيع التنيسى[١]، وظافِر الحدّاد[٢] وأستاذنا المرحوم محمد كامل حسين[٣] وغيرهم كُثْر.

وما دعا إليه الأستاذ أمين الخولى - رحمه الله- فى عمومه ذكره الأستاذ شاكر فى معرض كلامه عن المدنيات المختلفة، قال: «حقّا إن مصر - وغير مصر من الأمم التى كانت منزلًا لمدنيات كثيرة متباينة - قد احتفظت بأشياء امتازت بها. ولكن هذه الأشياء المميزة لم يكن مَرَدُّ أكثرها إلى العقل بل كان مَرَدّها إلى الطبائع التى أنشأتها إرادة الإقليم المسيطرة على الطبائع الإنسانية، وإلى العادات المتوارثة التى لم تقاومها هذه المدنيات مقاومة الحرب والإبادة، فلذلك بقيت هذه المميزات قائمة سائرة متعارفة... ونحن نجد الجنس من الناس ينزل أرضًا غير أرض، فما يمضى الجيل أو الجيلان حتى تفنى المميزات الجنسية فى نسلهم من أبنائهم وأحفادهم، ويبدأ الوطن الجديد بطبيعته المستبدّة فى تحويل هذا النسل إلى طبائعه

(١) ابن وكيع التنيسى، مكتبة مصر، ١٩٥٣.

(٢) ظافر الحداد، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٥.

(٣) محمد كامل حسين. فى أدب مصر الفاطمية، دار الفكر العربى، القاهرة، بدون تاريخ..

التى تلائم تربته وسماءه وجوّه وحاجات سكانه»[١].

وهذه نظرة ضيقة وإن كان فيها بعض الصحة، فعنصر المكان لا يمكن تجاهله دائمًا فى دراسة الأدب، ولكنه ليس العنصر الوحيد فى تشكيل الفنان ومن ثم فى إنتاجه، لأن الفنان ليس بمعزل عن «المجتمع» الإنسانى الذى يعيش فيه، فالفن لا يُخْلَق من فراغ، فهو نِتاج إنسان يعيش فيه والذى هو جزء منه لا يتجزأً. هذا هو قِوام نظرية «النقد الاجتماعى للأدب» Sociological Criticism، وبها يمكن إلى حد كبير فهم المذاهب الأدبية التى تظهر وتمضى مَدْرجها على مَرّ السنين ثم تُخْلِى مكانها لغيرها. وسوف أحاول أن أتتبع تاريخ هذه النظرية منذ ظهورها باختصار شديد غير مخل لما لها من فائدة - فى تقديرى - فى النظر إلى شعر أبى فهر، وإلى المذاهب الأدبية التى شهدتها مصر فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين وأواسطه من البيئية كما سجلها المرحوم الأستاذ العقاد فى كتابه «شعراء مصر وبيئاتهم فى الجيل الماضى» إلى الرومانسية، كما عُرِفت عند مُطْران ثم جماعة أبوللو، إلى الاشتراكية الواقعية كما عُرِفت عند جيل ما بعد الحرب العالمية الثانية، وما صاحبها من الدعوة إلى هجر الشعر العمودى إلى الشعر الحُرّ.

---

(١) مجلة الرسالة، السنة الثامنة، ١٩٤٠، ص ٨١ - ٨٣.

نظرية النقد الاجتماعى للأدب

أثبتَ Edmund Wilsom أن أول من درس مـــــلاحم هوميروس مستعملاً هذه النظرية هو Vico فى الدراسة التى كتبها فى القرن الثامن عشر والتى أوضح فيها الظروف الاجتماعية التى عاشها الشاعر وتأثير ذلك على أدبه[١]. ويبدو أن هذه النظرية لم تلق قبولًا، فلا نجد لها إلا صدًى ضعيفًا فى كتابة Herder فى القرن التاسع عشر. ولكن أتيح لها كاتب فرنسى كبير وهو Taine الذى حددّها تحديدًا دقيقًا وعرّفها تعريفًا جامعًا فقال: إن الأدب هو نتاج لحظة معينة (أى الاستجابة لموقف أو حدث وقع فى لحظة بذاتها)، وجنس معين من الناس، والأحوال الاجتماعية السائدة آن الحدث

---

(١) وانظر فصلاً عنه فى كتاب ستانلى هايمن The Tripple Thinkers, 1938 بعنوان «النقد الأدبى ومدارسه الحديثة» ترجمة إحسان عباس ويوسف نجم. دار الثقافة، بيروت ١٩٥٨، الجزء الأول، ص: ٣٧ - ٨٩.

ولأهم مصادر هذه النظرية انظر:

Joseph Wood Krutch. "The Tragic Fallacy"; Christopher Caudewell. "George Bernard Shaw: A Study of the Bourgeois Superman"; George Orwell. "Rudyard Kipling" in Five Approaches of Literary Criticism, ed. Wilbur S.Scott (Collier Books: New york, 1992; V.F. Calverton. The Newer Spirit, (1925); Stephen Spender. The Destructive Element (1935); Philip Henderson. The Poet and Society (1939); George Thomson. Marxism and Poetry (1945).

والتى يتـقلب فيـها هذا الجنْس. ولكن قـبل أن ينتهى الـقرن التاسع عـشر أضاف Engels و Mark بُعدًا رابعًـا وهو طريقة الإنتاج، وبذلك مَهَّـدا لظهور فرع من فروع النقد الاجـتماعى للأدب، وهو النقد الماركسى.

ورَبْطُ الفن بالقيم الاجتـماعية أمْرٌ طبـيعى بل ضرورى فى واقع الحياة. ففى أمريكا مثلًا اهتم كُـتاب كثيرون بالعلاقة بين الأدب والمجتمع الذى نشأ فيه مِن أمثال Jack London, Ham-lin Garland, Frank Norris - ولما أحل النـقـاد «النـظرية الاجتمـاعية أو السيـاسية» محلّ «المجـتمع» Society وجدوا أمامـهم عددًا هائلًا من الأعمـال الأدبية، فكتب John Macy كتـابًا بعنوان The Spirit of American Literature سنـة ١٩٠٨، يقوم على تفسـير اقتصادى، أمـا كتاب Parrington بعنوان Main Currents in American Thougt, 1927 - 30 فقد أقامه على أساس لبرالية جفرسون Jeffersonian Liberalism.

أمدَّ جثوم الكساد الاقتصـادى على صدر أمريكا وأكثر مدن العالم فى أواخر العشرينات وأوائل الثلاثينات من القرن الماضى النُقّاد بمقيـاس قوى فى حكمهم على الأدب كمرآة للمـجتمع، وهو التفسير الماركـسى وتقييم القُوَى الاجتماعيـة. فرأينا كثيرًا من الكُتاب فى أمريكا وانجلترا يصبحون ذوى اتجاه يسارى، من

أمثال Auden, C.Day Lewis, Stephen Spender, Archibald Macleish، كما ظهـرت مجلات ذات طابع يســارى، فأصدر Michael Gold مـجلة The New Masses، وأصـدر مـجلة The Left Edgell Ricword Reveiew. وانصبّ اهتمام هاتين المجلتـين على نشـر النقد المـاركسى. كـمـا عقـدت الندوات ونشرت الأبحاث التى ألقيت فيها مثل Proleteration Literature in the United States الذى أشرف Hicks على إصداره سنة ١٩٣٥، The Mind in Chains الذى حرّره C.Day Lewis سنـة ١٩٣٧، Forces in American Criticism الذى أصدره Bernard Smith سنة ١٩٣٩. هذا بالإضـافة إلى مـا ظهر مِن كُتب مثل كتاب V.F. Calverton بعنوان The Liberation of American Literature سنة ١٩٣١، ومـثل كتـاب John Strachey بعنوان The Coming Struggle for Power سنة ١٩٣٣، وأخيـرًا كتاب Ralph Fox بعنوان The Novel and the People سنة ١٩٣٧.

فاجتمع من ذلك كله مقاييس حيوية فى غاية الأهمية ترمى كلها إلى الهدف التالى: إلى أى حدّ يُسْهِم الأدب فى الكشف عن حقائق المجتـمع؟ وبالتالى نُظِر إلى الأديب على أنه إما مع «الحقيقة» وإما ضدها.

ولكن أصحاب هذه النظرية بالغوا فى تطبيقها والدعوة إليها

والحكم على إنتاج الأدباء بمقاييسها، وهى بلا شك ضيقة تتجاهل نواحى أخرى فى الإبداع والخلق الفنى، فثار عليها بعض تلامذتها لما رأوها جاوزت وأسرفت ، وقاد الحملة Christopher Caudwell ، وكان أوسعهم علمًا بالماركسية وأكثرهم فهما للأدب. كذلك فعل James Farrell فى كتابه A Note on Literary Criticism الذى أصدره سنة ١٩٣٦، وآزره فى ذلك Edmund Wlison الذى ذكرته فى صدر هذا الحديث عن هذه النظرية. وبمجىء الحرب العالمية الثانية وما أحدثته من اضطراب وتشتيت بعض مفكريها الألمان والفرنسيين المعروفين بـ Russo - German Pact فقدت نظرية النقد الاجتماعى للأدب أهميتها، ولم يعد لها ما كان من تأثير.

ولعل أهم نقطة ضعف فى هذه النظرية - مثلها فى ذلك نظرية الحكم الأخلاقى على الأدب The Moral Approach - هو تشددُّها وضيقها فى الحكم على وظيفة الأدب: أى مدح أو إدانة عمل من الأعمال الفنية حسب العقيدة الاجتماعية أو المثل الأخلاقية التى يدين بها الناقد.

وفى تقديرى أن المهمة الحقيقية للنقد الاجتماعى للأدب أن يوضح الناقد العلاقة بين أى عمل فنى وبين الجو الاجتماعى الذى وُجِد فيه دون إصدار حكم ما. وقد شغِل النقاد دائمًا

بدراسة العلاقة بين الأدب والأديب والمحيط الاجتماعى ولكنهم لم ينجحوا تمامًا فى التخلص من إصدار حكمٍ ما يخفونه فى تضاعيف نقدهم. والذى يفوتهم هنا أن ماهية هذه العلاقة ليست بالبساطة التى قد تبدو لهم. يقول Harry Levin: «إن العلاقة بين الأدب والمجتمع علاقة متبادلة، فالأدب ليس مرآة للمجتمع فقط، بل هو عامل مؤثر فى هذا المجتمع»[1].

ولا يزال هناك نقاد مفتونون بهذه العلاقة المعقدة بين الأديب ومجتمعه، فكتب Van Wyck Brooks عدة كُتب أبان فيها عن الأحوال الاجتماعية التى ميزت بعض أعمال الكُتاب الأمريكيين مثل F.O. Matthiessen فى كتابه الممتاز The American Renaissance المنشور سنة ١٩٤١، ومثل L.C. Knight فى كتابه Drama and Society in the Age of Jonson الذى أصدره سنة ١٩٣٧.

ومن الواضح أن العلاقة بين الأدب والمجتمع علاقة حتمية ولن تتوقف ومن ثم سيظل «النقد الاجتماعى للأدب» قوة لا يُستهان بها فى النقد الأدبى.

*****

(1) "Literature as an Institution", in Accent (Spring, 1946).

فليس المقصود إذن بالبيئة معناها المحدود الذى دعا إليه الأستاذ أمين الخولى رحمه الله، وسبقه إلى بيانه أستاذنا غفر الله له وطيب ثراه، وإنما المقصود بها معنى أرحب ومفهومًا أشمل يربط بين الأديب ومجتمعه الذى نشأ فيه والعوامل المختلفة التى أثرت فيه دون سواه من أدباء عصره، فباين إنتاجه إنتاجهم رغم اجتماعهم فى الزمان والمكان. يقول الأستاذ العقاد رحمه الله فى كلمة تقديمه لكتاب «شعراء مصر وبيئاتهم فى الجيل الماضى»: «ومعرفة البيئة ضرورية فى نقد كل شعر، وفى كل أمة، وفي كل جيل. ولكنها ألزم فى مصر على التخصيص، وألزم من ذلك فى جيلها الماضى على الأخص. لأن مصر قد اشتملت منذ بداية الجيل إلى نهايته على بيئات مختلفات لا تجمع بينها صلة من صلات الثقافة غير اللغة العربية التى كانت لغة الكاتبين والناظمين جميعًا، وهى حتى فى هذه الجامعة لم تكن على نسق واحد ولا مرتبة واحدة لاختلاف درجة التعليم فى أنحائها وطوائفها. بل لاختلاف نوع التعليم بين من نشأوا على الدروس الدينية ومن نشأوا على الدروس العصرية، واختلافه بين هؤلاء جميعًا وبين من أخذوا بنصيب من هذا ومن ذاك». ثم يضرب لذلك مثلاً فيقول: «وقد اجتمع البارودى وعلى الليثى فى عصر واحد، والتقت أواخر أيام البارودى بأوائل أيام المعاصرين، ولكن الفروق بينهم

جميعًا فى مذاهب القول لا يحيط بها أدب أُمّة أخرى من أمم العالم فى ألوف السنين. وكل إدراك لخطوات التجديد فى الأدب المعاصر هو إدراك ناقص مبتور، ما لم يقترن به إدراك هذه الحالة التى لا نظير لها بين آداب اللغات الأخرى، وهى الحالة التى استلزمتها تعدُّد البيئات الأدبية عندنا فى الجيل الماضى».

فواضح جداً أن الأستاذ العقاد يقصد بالبيئات هنا العوامل الاجتماعية المختلفة التى أثرت بدرجات متفاوتة فى أناس يعيشون فى نفس البيئة الجغرافية وفى ذات الزمان، وبسبب ذلك اختلفت مذاهبهم فى القول وتباينت، كلٌّ حسب استجابته أو تأثره بهذا العامل أو ذاك.

ولا يخلطن القارئ بين هذه النظرة فى العلاقة بين الأديب ومجتمعه وبين الدعوة التى انتشرت فى أوائل القرن العشرين القائلة بأن «مصر للمصريِّين»(١). فقد تأثر بعض كتاب العَقْد الثانى من القرن العشرين بالنزعة القومية التى صاحبت ثورة سنة ١٩١٩. فاتجه هذا البعض إلى تأكيد «الشخصية المصرية»

(١) تبنَّى هذه الدعوة الأستاذ أحمد لطفى السيد سنة ١٩١٣. وهى دعوة رأى فيها الأستاذ شاكر استمراراً لجهود سبيتا، ووِلْكُوكْس، ووِلْمُور لهدم اللغة الفصحى وإثارة النعرة القومية وعزل مصر عن العالم العربى. انظر أباطيل وأسمار ص ٢٦١ وما بعدها.

حتى إن عيسى عبيد قدّم مجموعته القصصية الأولى «إحسان هانم» إلى سعد زغلول قائلاً: «هدية صغيرة من كاتب مبتدئ مجهول، آماله عظيمة بأن تستقلّ بلادُه، ويستقلّ معها الفرد المصرى». ويشرح أهداف كُتّاب جيله بقوله «فغايتنا الوحيدة من تأليف القصص أن نساعد على إيجاد أدب مصرى خاص بنا وموسوم بطابع شخصيتنا وأخلاقنا».

بون بعيد شاسع بين أن يكون الأدب متأثرًا بالبيئة التى خرج منها، وبين أن يكون هذا الأدب «محليًّا» لا يعبر إلا عن هذه البيئة وسترى بعد قليل هجوم الأستاذ العقاد - رحمه الله - على هذا الاتجاه. ويستدعى الإنصاف أن أذكر أن بعض القصّاص المعاصرين للأخوين عيسى وشحاتة عبيد لم يعتنقوا هذا الاتجاه «المحلّىّ»، كأكثر أعضاء «المدرسة الحديثة» التى أنشأها أحمد خيرى سعيد. يقول محمود طاهر لاشين - أبرز أعضاء هذه المدرسة - فى مقابلة مع المجلة الجديدة: «ليس شرطًا أن تستمدّ القصص موضوعاتها من المجتمع المصرى، فنحن جزء من هذا الكون، وشخصياتنا التى يجب رسمها بعمق يجب أن تكون «إنسانية المنزع، وإن كانت محلية المكان»[١]. وذكر أحمد خيرى دور هذه المدرسة بقوله «لم يكن هدفهم هو التركيز على المجتمع المصرى لا غير، بل كتبوا

(١) مجلة «المجلة الجديدة»، يونيو ١٩٣١، ص:٩٦٨.

للإنسانية عامة غير مقيدين بمكان أو جنس أو زمان». على أن كلام أحمد خيرى - رحمه الله - فيه نظر، فلست أظن ما قاله ينطبق على كل أعضاء «المدرسة الحديثة» بلا استثناء، ولكنه يصدق أكثر ما يصدق على محمود طاهر لاشين.

*****

وتاريخ الشعر المصرى فى القرن العشرين معروف، أُلِّفت فيه عشرات الكتب فما أغنانى عن سطره هنا، ولكنى على هذا مضطر إلى ذلك أشد اضطرار لأنه الشعر الذى فتح الأستاذ شاكر عينيه فرآه حوله، وقرأه يافعا ليتمثله، ثم عالجه رجلاً مكتمل الأداة ناقداً شاعراً، ولكنك واجدٌ فيما سأكتب بعض الاختلاف - ولا أقول الجِدَّة - عمّا كُتب عن الشعر المصرى من مطلع القرن العشرين حتى الحرب العالمية الثانية، لأنى سأتناوله فى ضوء النظرية التى شرحتها آنفًا وهى علاقة الأدب بالمجتمع.

بدأ التجديد فى الشعر المصرى على يد البارودى كما هو معروف وانتهت هذه المدرسة - التى يطلق عليها بعض النقاد اسم الكلاسيكية الجديدة Neoclassicism[1] بموت شوقى سنة ١٩٣٢ . ومشهور متعالم أيضًا التجديد الذى دعت إليه مدرسة

(1) M.M. Badawi. Modern Arabic Literature and the west (London: Ithaca press, 1985), p.27.

الديوان، لذا لن أخوض فيه، وهمّى هنا أن أُبين عن العنصر الاجتماعى الذى صاحب هذا التجديد وشعور أصحاب هذه المدرسة بالزمن الذى كانوا يعيشون فيه، ولكن قبل أن أفعل أريد أن أمهّد لذلك بوصف الأستاذ العقاد لاتجاه معيّن لهذه المدرسة. يقول:

«وقد استطاعت هذه المدرسة المصرية أن تقاوم فكرتين كلتاهما خاطئة ناقصة، وإن جاءت إحداهما من الماضى، وجاءت الأخرى من أحدث الأطوار فى الاجتماع».

«ونعنى بالفكرة الأولى تلك التى يفهم أصحابها أن «الأدب القومى» هو الأدب الذى تذكر فيه الظواهر والمعالم القومية بالأسماء والتواريخ والحوادث. وهكذا كان جيل شوقى وحافظ يفهم «القومية» التى تنبغى للشعراء المصريين. فليس من الأدب القومى عندهم أن يصف الشاعر عواطفه الإنسانية أو يصف المحيط الأطلسى أو نهر دجلة أو مناظر لندن وباريس، لأن هذه الأشياء لا تحمل اسم النيل ومصر والهرم . . . .».

«وأما الفكرة الثانية التى قاومتها مدرسة الشعراء المصريين فى الجيل الحديث فهى فكرة الاشتراكية العقيمة التى تحرم على الأديب أن يكتب حرفًا لا ينتهى إلى «لقمة خبز» أو تسجيل حرب الطبقات ونُظم الاجتماع».

---

(١) عباس العقاد. شعراء مصر وبيئاتهم في الجيل الماضى، ص: ١٩٤-١٩٥.

فـواضح من الفكرة الأولى أن «القـوميـة» لا تعنى البـيئـة الجغرافـية التى دعا إليها أمين الخـولى ومن والاه، وإنما شعور الإنسان حيال هذه البـيئة والظروف الاجتماعيـة التى تكتنفها. وبَيِّنٌ من الفكرة الثانية رفض فكرة «الواقعية الاشتراكية»، وقد بينتُ منذ قليل أن هذا الاتجـاه الماركـسى عندما ضـاقت نظرته إلى الأدب ثار عليـه من كانوا يدافـعون عنه. ومـا أشار إليـه الأستاذ العـقاد من «العواطف الإنسانية»، هو الذى سمـاه عبد الرحمن شكرى شعـر الوجدان واتخذ من هذه العبـارة شعاراً فى بيت شعر صدّر به الجزء الأول من ديوانه فقال:

ألا يا طـائِرَ الـفِـــــرْدَوْ　　　سِ إنَّ الشِّـــعـر وِجْـدانُ

وهكذا ظهرت الدعوة إلى شعر الوجدان، وإن لم تتحقق - كما يقول الدكتور مندور - على نطاق واسع إلا بفضل جماعة أبوللو[١].

كانـت مصر آنذاك تـرزح تحت أعبـاء الاحتلال الانجلـيزى الغاصب، يُسَـيِّر حكامها كـما يريد، ويستنزف مواردهـا كما يشـتهى، ويُذلّ أبناءَها كـما يهـوى، ويهدم ثقـافتـها العربـية الإسلاميـة بغية إنشاء جـيل مُفَرَّغ من ثقـافته ودينه وقومـيته. وخاب أمل الشباب فى سـاستهم. يقول الأستاذ شـاكر رحمه

(١) محمد مندور. الشعـر المصرى بعد شوقى، الحلقة الثالثة نَشْـر معهد الدراسات العربية، القاهرة ١٩٥٨، ص:٣.

الله كشاهد عيان لهذه الفترة: «قام الشعب فأسمع من كانت له أذنان، فإذا فئة من محترفى السياسة، ومن كل محتال عليم اللسان، ومن كل وجيه زيَّنه ماله وغناه، ومن كل ذى صيت رفعته الأقدار بالحق أو بالباطل قد هبوا جميعًا مع الشعب يقولون مثل الذي يقول. فظن الشعب أنهم قد صدقوا بعد ماضٍ كَذَب على التاريخ وعليهم، فَرَضِى عنهم وأعانهم، ولكن لم يلبث إلا قليلاً حتى رأى الوادى يموج عليه بالحيَّات والأفاعى والعقارب، وكلّ لدَّاغ ونفَّاث وغدَّار، فانتبه فزعًا يطلب النجاة مما تورط فيه من ثقة بأقوام لم ينالوا يومًا ثقته، ولا حمَّلهم أمانته، ولا رضى عن أعمالهم ولا سلم إليهم مقاليده إلا مرغمًا أو مُغَرَّرا أو مخدوعًا».

«إن علينا نحن الشباب أن نوقِّر شيوخنا ونجلَّهم ونستفيد من تجاربهم، وعلينا أن ننازلهم ونصارعهم، ونأخذ من أيديهم المرتعشة ما يستقر فى راحتنا الثابتة التى لا تخاف ولا تتهيَّب. علينا أن نأخذ حقَّنا أَخْذَ الكريم المقتدر من أقران نصارعهم ليموتوا موت الكريم البَذَّال. وعلى هذا الصراع بين جيلينا يتوقف أمر الخير الذى نبتغيه، والاستقلال الذى نجاهد فى سبيله، والعزة التى نسعى إلى اقتحام أهوالها. وعلى شيوخنا أن يعلموا أنه لابد لهم من شباب شديد الأَسْر يشدّ أَزْرَهم إذا

ضعفوا، ويخلفهم إذا هلكوا. ولكنهم غفلوا زمانًا فتركوا النشء ينشأ بين أحضانهم، فلم يسدِّدُوه ولم يعاونوه ولم يُعدُّوه لغَدهم، وقَلَبُوا آية الحياة وبدلوا معناها، فكانوا هم الصِّبيان حين تَخَلَّقوا بأخلاق الصِّبيان وأصرُّوا على حب التملك والتسلّط والأَثَرة والعناد واللجاج في كبير الأمر وصغيره»(١).

ولكن كل ذلك كان صرخة في واد، وتلدَّد الشباب وتحيّر، وعمّ الناس بلاء مُسْتَعِر، وبقى الشيوخ الذين أكل الدهر جِدَّتهم وأبلى همَمهم وأفنى حوافزَهم، وقطع دابر الحماسة من نفوسهم يتولّون تصريف الأمور تصريف عاجز حَسِير، ويدبرون سياسة المستقبل تدبير ذاهِل مُسْتَحِير.

هذه إحدى النواحي الاجتماعية التي غشيت مصر: احتلال بغيض، وساسة ضعفاء، بعضهم من صنائع المحتل، ويأس ماحق في إخراج أولئك، أو استبدال هؤلاء.

وثَمّ بلاء آخر ونازلة أشد من قِبَل مَن نصبوا أنفسهم حكامًا يدبرون شئون الحياة لأناس عانوا من احتلال أرضهم وثاروا وقاتلوا وقتلوا. يقول الدكتور مندور في سياق كلامه عن الطوابع الفنية لمدرسة أبوللو:

---

(١) الرسالة، العدد ٦٩٢، أكتوبر ١٩٤٦، ص: ١٠٩٩ - ١١٠١.

ونحن لا نريد، ولا ينبغى لنا أن نعزل الشعر والأدب عامة عن حياة المجتمع السياسية والاقتصادية والاجتماعية، ولا أن نقصر البحث فى عوامل تطورّه ونموّه وتنوّع اتجاهاته على النظرات الفلسفية أو النقدية للأدباء والنُّقّاد، وذلك برجوعنا إلى تاريخ بلادنا فى الفترة التى ظهرت فيها حركة أبوللو لن نلبث أن نتبيَّن أنه كان من الطبيعى أن يطغى فى تلك الفترة التيار الرومانسى العاطفى الذاتى. فبلادنا إذ ذاك كان يحكمها رجل يؤمن بنفسه أكثر مما يؤمن بشعبه. وكان الشعب يحسّ منه ذلك ويأبى أن يستجيب له، مما أدّى إلى صدام عنيف بينه وبين الشعب دفعه إلى أن يستعين بالملك فؤاد ثم بالإنجليز ضد هذا الشعب لكى يسومه الخسف وسوء العذاب. وكان هذا الرجل هو إسماعيل صدقى الذى مسخ الحياة البرلمانية مسخًا لم تستقم بعده على عود وكمم الأفواه، واستذل العباد»[١].

وقد انتقد أستاذنا إسماعيل صدقى - انتقادًا شديدًا بسبب المفاوضات المعروفة باسم صدقى - بيفن يقول «وفى خلال ذلك يقف صدقى باشا الذى اتخذته اليوم بريطانيا حجة على مصر، ليقول إن خير الوسائل لنيل حقوق مصر والسودان من بريطانيا هى المفاوضة، كأن هذا الرجل لم يعلم بعد أنه ظل

(١) محمد مندور. الشعر المصرى بعد شوقى، الحلقة الثانية: جماعة أبوللو. نشر معهد الدراسات العربية العالية، القاهرة ١٩٥٧، ص:٤.

يروح ويغدو ويتلاعب هو وتتلاعب بريطانيا، وكانت العاقبة أن أفضى به الأمر إلى الاستقالة، بعد التكذيب الخبيث الذى كذبت به بريطانيا كل شىء قاله فى تفسير بروتوكول السودان، لقد كان العذر متسعًا لامرئ سواه إن قال بمثل الذى يقول به. ومتى يقول الرجل هذا الكلام؟ يقوله فى ساعة الحرب التى شنتها مصر والسودان على بريطانيا! إننا لا نبالى كثيراً ولا قليلاً بما يقوله هذا الرجل وأمثاله»[١].

وثم بلاء ثالث غال عقول المفكرين والكتاب والشعراء بوجه عام وذهب على الأخص بأستاذنا كل مذهب، وهو إنشاء المدارس الأجنبية فِي مصر تحت إشراف دنلوب الذى وجه للتعليم فى مصر ضربات قاضية. فقد كانت هذه المدارس تأخذ أبناءنا من بيوتهم وتضعهم بين جدران هذه المدارس وتنفث فيهم سمّها، وتُحَقِّر لهم بلادهم وأهلها، وتستخفّ بلغتهم العربية - وهى لغة قرآنهم ودينهم - حتى كانت تحرّم على هؤلاء الصغار أن يتكلموا هذه اللغة خلال وجودهم بالمدرسة. وظلت بريطانيا الممثلة فى دنلوب تنمى هذا البلاء حتى استشرى واستفحل وتمكن. وخرج جيل من أبناء مصر نفسها ينظر إلى بلاده كأنها غريبة عنه وإلى لغته كأنها لغة الأعاجم، يحتقر كليهما ويحط من شأنهما كما عوّده الأجنبى، ثم تمادى دنلوب فى نظامه المفسد فرعى هذا الجيل

(١) مجلة الرسالة، العدد ٧٤٠، سنة ١٩٤٠، ص ٩٧٢ - ٩٧٤.

الذى ينظر إلى بلاده وأهله كما ينظر الأجنبى بتعالٍ واحتقار فآواهم ومكّن لهم، فصاروا لبريطانيا أشياعًا يثنون عليها ويدافعون عنها ويبررون ما ترتكبه فى مصر - بل وفى غيرها مثل الهند - من أعمال.

هذه هى ظروف المجتمع المصرى التى أحاطت بأستاذنا من كل جانب: احتلال عسكرى غاصب، وشعب مهضوم غاضب، ساسة أشبه بالدُّمَى يحركها المحتلّ كيف شاء، وحُكام ظَلَمة طغوا وتجبّروا، وكساد اقتصادى وصل إلى ذروته فى عهد الطاغية إسماعيل صدقى حتى باتت الحكومة غير قادرة على أن تدفع رواتب موظفيها، ثم احتلال فكرىّ يهدف إلى تحطيم الثقافة الإسلامية ولغتها لخلق أجيال من الشباب منبتّة عن أصولها، وهو ما وضّحه أستاذنا كل التوضيح فى كتابه النفيس «رسالة فى الطريق إلى ثقافتنا»، ومن قبل فى كتابه الغالى «أباطيل وأسمار» ابتداء من المقالة السادسة. ورغم ثورة الشعب المستمرة والتى وصلت إلى ذروتها فى ثورة سنة ١٩١٩، وبلغ من عنف الغضب أن خرجت نساء مصر يشاركن فى الثورة على المحتل الغاصب، والنقد العنيف الذى وجهّه الكُتاب إلى الاحتلال والقصر والوزارة، أقول رغم كل ذلك لم يتغير شىء، بل سارت الأمور من سىء إلى أسْوأ. فخيم اليأس على الناس، وضربت الكآبة أطنابها فى كل مكان، وظهر ذلك أوضح ما يكون فى شعر الشعراء.

نقلت منذ قليل كلام الدكتور مندور عن الحالة التى صارت إليها مصر فى عهد صدقى خاصة وذلك فى معرض كلامه عن جماعة أبوللو، ثم أعقب ذلك بقوله «وفى مثل هذا الجو كان من المستحيل أن يظهر أى أدب غير أدب الشكوى والأنين الذاتى، فالشاعر لا يستطيع أن يتحدث إلا عن نفسه، وأحلامه، وغرامه، وأشواق روحه، أو أن يهرب من الجحيم الذى يحيط به إلى الطبيعة ومناظرها وملاهيها، يتعزى بها عن آلامه وآلام قومه، دون أن يستطيع الإفصاح عن مصدر هذه الآلام، أو يدعو إلى التخلص منها بطريق أو بآخر. ولربما كان فى هذه الحقائق ما يفسر تلك العاطفية التى تطغى على عدد كبير من الشعراء الذين ظهروا أو نضجوا فى هذه الفترة، من أمثال إبراهيم ناجى الذى يقول الشعر من «وراء الغمام» وحسن كامل الصيرفى الذى ينشد «الألحان الضائعة»، ومصطفى عبد اللطيف السحرتى الذى يستنشق «أزهار الذكرى»، ومختار الوكيل الذى يسبح فى «الزورق الحالم»، وعبد العزيز عتيق الذى يستغرق فى «أحلام النخيل»، بل وسيد قطب الذى يرسو إلى «الشاطئ المجهول»، ومحمود أبو الوفا الذى يرسل «أنفاسًا محترقة». وكل هذه عناوين دواوينهم الواضحة الدلالة على صدق ما نقول»[1]. وأضيف إلى ذلك تقاطر دموع محمد طاهر الجبلاوى فى «مُلْتَقَى العَبَرات»، وحيرة على محمود طه

(١) محمد مندور. الشعر المصرى بعد شوقى، الحلقة الثالثة، ص:٥.

فى «الملاح التائه»، و«ليالى الملاح التـائه» ورنوّ أحمد زكى أبو شـادى إلى «الشفق البـاكى»، ولا يغـرنك عنوان ديوانه الأول «أنداء الفجر»، فأكثره لوعة وأسى، وإبراهيم ناجى يأسى على «الطائر الجـريح»، وحسن كامل الصـيرفى يبكى بـكاء مُرًّا فى «دموع وأزهار». وبالرغم من أن محمد عـبد المعطى الهَمْشَرِى الذى مـات فى شـرخ الشبـاب (١٩٠٨ - ١٩٣٨) لم يتـرك ديوانًا، فإن الأستاذ محمد فهمى جمع طائفة من شعره المنشور فى الصحف والمجـلات باسم «الروائع لشعراء الجيل» وشـعره ملىء بالألم والحسرة، فهرب من جحيم الواقع إلى جنة الماضى ومَراتع الطفـولة. كذلك لم يترك صـالح على الشرنوبى الذى مـات تحت عـجلات القطار فـى عنفوان الـشبـاب (١٩٢٤ - ١٩٥١) ديوانًا، وقام الأسـتاذ صالح جـودت بنشر شعـره بعد وفاة الشرنوبى بعام واحد (١٩٥٢) بعنوان «نشيد الصفاء»، ولا تدع هذا العنوان يغـرك، فهو يبـحث فى شعره عن صـفاء لم ينله، وامتـلأت حياته بالهمـوم والشك والحيرة والخيـبة والألم حـتى ليظن بعض النقاد أنـه مات منتـحراً بإلقـاء نفسـه تحت عجلات القطار. وإذا كانت بعض عـناوين جماعة أبوللو ومَنْ سبقهم من أتباع مدرسة الديـوان مفصحة عن ألم ويأس وحيرة وضياع فـإنهم كانوا يدركون أنهم إنما يعـبرون عما يعـتمل فى نفوس الكثيرين من أبناء الشعب المصرى الذين لم يؤتوا موهبة التعبيـر التى منحها الله لهؤلاء الشعراء، لذا نجـد على محمود

طه يهدى ديوانه «الملاح التائه» إلى «أولئك الذين يستهويهم الحنين إلى المجهول، إلي التائهين فى بحر الحياة. إلى رواد الشاطئ المهجور أهدى هذا الديوان». كذلك أهدى ديوانه «ليالى الملاح التائه» إلى الذين «أطالوا التأمل فى أسرار الكون، وأرهقهم التِّيه فى مَجاهل الحياة، إلى العائدين بأُنْس أحلامهم إلى وَحْشة مضاجعهم بين اللهفة والحنين، إلى المنطلقين عبر الشاطئ المهجور فى ارتقاب عودة الملاح التائه، إليهم جميعًا أقدِّم وَحْى لياليه وأُهْدى بعضًا من أشعاره وطرفا من حديث أسفاره». ولا أدلّ على نزف الجروح وكآبة النفس وحزن القلب مما قاله أستاذنا المرحوم حسن كامل الصيرفى فى مقدمة ديوانه «ألحان ضائعة»:

«آمال وآلام هما العنصران اللذان سيطرا على حياتى فإذا بى وأنا بين الرَّنين المتدفِّق أُحِسّ أن وَتَرا كاد أن ينقطع، وهل يصلُح وَترٌ لم يبق بينه وبين التقطيع إلا عَزْفه، ثم ينبت بين نغمة صادرة وصدى يتلاشى؟ والقيثارة كالحياة ينقطع وتر منها بعد وتر، كالناس يفنَوْن فَرْدا بعد فرد، فإن لم تصلحها اليد العازفةُ تحطّمت. فما أَحْسَسْتُ قيثارتى تفقد أوتارهَا حتى ازدادت فى قوة العنصر الثانى، ثم زاد تلوين الحياة أمام عينى بلون أشدّ قَتاما من ذى قبل فإذا ألحانى الضائعة التى أقدِّمها اليوم».

وهذا الإحساس بالخيبة والقنوط والقتامة تراه أيضًا شائعًا فى شعر شعراء مصر قبل ظهور مدرسة أبوللو بما يقرب من عشرين عاما، ويكفى أن تقرأ تقديم العقاد لديوان إبراهيم عبد القادر المازنى الذى صدر سنة ١٩١٣ لتدرك تغلغل هذا الألم المُمِضّ فى نفوس أبناء مصر. يقول الأستاذ العقاد: «نرى من تمام الكلام أن نقول كلمة عن تأثيره (أى تأثير عصره) فى روح الشعر ونفوس الشعراء»:

«إن كان هذا العصر قد هزَّ رَواكد النَّفْس وفتح أَغْلاقَها كما قلنا، فلقد فتحها على ساحة من الألم تَلْفَح المُطِلّ عليها بشُواظها فلا يملك نفسه من التراجع حينًا، والتوجّع أحيانًا. وهو العصر، طبيعته القلق والتردّد بين ماض عتيق ومستقبل مُرِيب، وقد بَعُدَت المسافات فيه بين اعتقاد الناس فيما يجب أن يكون وبين ما هو كائن. فغشِيَتهم الغاشية، ووَجَد كلُّ ذى نظر فيما حوله عالَما غير الذى صوّرته لنفسه حداثة العصر وتقدُّمه. والشاعر بجِبِلَّته أوسع من سائر الناس خيالاً. فالمثل الأعلى أرفع فى ذهنه منه فى أذهان عامة الناس، وهو ألطفهم حسّا، فألَمُه أشدّ من ألمهم. وإنما يكون الألم على قَدْر بُعْد البَوْن بين المُنتَظر وبين ما هو كائن. فلا جَرَم أن كان الشاعر أفطنَ الناس إلى النقص، وأكثرهم سخطا عليه، ولا جَرَم أن

كان ديوان شاعرنا (يعنى المازنى) على حد قوله:

كلُّ بيتٍ فى قَرارته جثّةٌ خرساءُ مِرْنانُ
خارجًا مِن قَلبِ قائلِه مِثْلَما يَزفِرُ بُرْكَانُ

أيقال إننا بالغنا إذا قلنا إننا فى عهد لا نشاهد فيه إلا مَسْخا فى الطبائع، وارْتكاسا فى الأخلاق، ونفاقًا فى الأعمال والأقوال؟ لا والله. بل إننا تغاضينا إذا لم نقل ذلك . . . وأنَّى لرجل العصر أن يكون غير ذلك، وهو يُبصر غير ما يسمع، ويسمع غير ما يعتقد، ويعتقد غير ما يَجْرُأ على الجَهْر به، وذلك دَيْدَن الناس فى كل زمان تُحسّ فيه النفوسُ بالحاجة إلى الانتقال، فتَرسُم مثال الكمال، ثم تكُرّ إلى عالم الحقيقة فلا تقابل إلا النقْص والقصور، وإنها لتظل تتذبذب بين الباطن والظاهر، وهذا عين التصنُّع والرياء، وإن اشتدّ، فقل الخُبْث والصفاقةُ والكبرياء. فإذا رأيت شاعراً مطبوعًا فى أمثال هذه الفترات المشئومة يبتهج ويضحك، فاعلم أن بين جنبيْه قلبًا صَدِئَ من نار الألم أو حَمْأة الشهوات، وإلا فهو رجل مُقلِّد ينظِم بلسانه ولا ينظم بوجدانه . . . نحن فى عصر التردد والاستياء، ولا بد لهذا الاستياء أن يأخذ مَداه، ويطلّع على كل نَقْص فى أحوالنا، حتى إذا تمكّن من النفوس فحركها إلى العمل، وعاد عليها العمل بالرضى، فلا ينسى الناس يومئذ

فَضْلَ شعر الضجر والاستياء. فلئن توسَّم القارئون فى شعر هذا الديوان (أى ديوان المازنى) هذه السِّمَة فليذكروا أنهم يقرأون ديوان شاعر يترجم عن زمنه، والمرءُ فى نفسه يَرَى زَمَنَهْ، كما يقول[1]».

هذه هى طبيعة المجتمع الذى عاش فيه أستاذنا وليدًا ويافعًا وشابًا وكهلاً وتقلب فى أوضاعه السياسية والاجتماعية والاقتصادية والأخلاقية والأدبية. وكان لكل ذلك أثر عميق فى نفسه كما سيأتى بيانه إن شاء الله.

ولتمام الفائدة فى بيان الناحية الأدبية لا أريد أن أتوقف عند مدرسة أبوللو التى نمّت «الشعر الوِجْدانى» فيما يقول أكثر نقاد الأدب الحديث. فالشعر الوِجْدانى فى نظرى سابق فى الظهور عند مدرسة المهجر ومدرسة الديوان، وكان عبد الرحمن شكرى هو الذى «صَكّ» هذه العبارة كما مر بنا فى قوله «إن الشعر وِجْدان».

وصل «شعر الوجدان» إلى قمته فى منتصف الثلاثينيات من القرن الماضى، وهو شعر - كما رأينا - يتسم بالألم والحزن والشكوى والمرارة، يدور حول النفس وما تقاسيه. وليس معنى

---

(١) أى كما يقول المازنى نفسه، فهذا عجز بيت له، وتمامه:

الدهرُ لولا الآمالُ مُشْتَبِهٌ   والمرءُ فى نفسه يَرَى زَمَنَهْ

هذا أنه كان بمعزل تمامًا عن المجتمع أو عن الأُمَّة العربية، فكل مبتدئ شادٍ يعرف أن الشعراء والمفكرين والكتاب شاركوا فى أحداث مجتمعهم وأمتهم ودافعوا عنها وهاجموا أعداءها، ونادوا بالحرية والاستقلال والعدل وكرامة الإنسان، ونالهم مما قالوا أو كتبوا أذى كثير مِنْ فَقْد وظائفهم، إلى نَفْيهم، إلى سَجْنهم، وكان الشعراء أشدهم وقعًا فى ساحة الكلام ومعمعة النضال حتى ليقول جبرا إبراهيم جبرا بحق: «كان (أى الشعر) بمثابة الدناميت، جسّد غضب الأمة بأكملها ومعاناتها. حفظ الناس الأشعار الحماسية وردّدوها فَسَرتْ فى الناس روح البأس والإصرار على النضال»[1]. ولكن كانت هذه الأشعار تأتى من حين إلى حين، ولم تكن السمة المميزة لشعراء الوجدان الذين اعْتُبِرَ شعرهم وهم فى أوج شهرتهم - شعرا انعزاليًّا مستسلمًا، تشيع فيه الهزيمة والانكسار يهرُب من مواجهة مشاكل مجتمعه على اختلافها، ولا يدعو إلى تغيير هذا الواقع المُرّ. ولكن هذه الأصوات الغاضبة الناقمة على شعراء الوجدان لم تصادف آذانا صاغية فى أواسط الثلاثينات، كما ترى فى

(1) Jabra Ibrahim Jabra. "The Rebels, the Committed, and the Others: Transitions in Arabic Poetry Today, " in Critical Perspective on Modern Arabic Literature 1945 - 1980. ed. Issa Boullata (Washington, D.C.: The Three Continent Press, 1980), p.142.

كتـابات سلامـة موسى الذى أسس المجلـة الجديدة (١٩٢٩ - ١٩٣٠، ١٩٣٤ - ١٩٤٢) ودعا إلى «الأدب للشـعب» متأثراً بمذهب الاشتراكية الواقـعية وبالذات ما يسمى بـ Fabian Socialism، وبـالأخص بـ Bernard Shaw أثناء دراسـتـه فى إنجلتـرا. ولكن مـا أَنْ أَهَلَّ العـقد الـرابع حتى قـويت دعـوة «الاشتراكية الواقعـية» وكثر أنصارها[1]، فشنّوا هجومـًا عنيفًا على «شـعـر الوجـدان» الذى تهـاوى تدريـجـيًّا تحت عنف الضـربات. ففى خـلال الحرب العـالميـة الثانيـة ازداد اهتمـام المفكرين والشـعراء العـرب بالفلسفـة الماركسـية والاشـتراكـية الواقعية، وتضافرت دوافع عدّة دفعتهم إلى ذلك الاتجاه، منها فساد الأنظمة السياسية، وانتشار الفقر المدقع. ثم كانت الطامة الكبرى فى هزيمـة سنة ١٩٤٨ وتقسيـم فلسطين، الأمر الذى أكَّد للمـفكرين والشعـراء إفلاسَ النُّظم السيـاسية وعـجزها. وأحسوا أنهم لا يستـطيعون البقاء فى أبراجهم العـاجية يتغنون بآلامهم ويحلمون بالجمال والطبيعـة. واستبشرت البلاد العربية التى حصلت على استـقلالها بعد الحرب العالمية الثـانية خيراً، وبدأت تبلور كـيانها وسط أيدلوجـيات مـختلفة مـتصـارعة. ولاحت فى الجو رياح يحمل هبوبها تغييراً إلى واقع أفضل فى

(١) حدث ذلك أيضـًا فى نفس الوقت فى سوريا بإنشاء جـريدة الطليعة اليـسارية ١٩٣٥ - ١٩٤٨، وجريدة الطريق فى لبنان سنة ١٩٤١.

السياسة والأدب، أما فيما يخص مصر فقد قامت الثورة المصرية سنة ١٩٥٢ وأطاحت بالنظام الفاسد ثم حققت لمصر استقلالها التام الذى صارعت من أجله منذ سنة ١٨٨٢ . أما فى مجال الشعر فبدأ الشعراء يعبرون عن واقعهم الجديد بأسلوب جديد. واكتسب الشعر الحر الذى بدأ فى مصر - خلافًا لما يقول بعض النقاد - على يد أحمد باكثير، وأحمد زكى أبو شادى، ومحمود حسن إسماعيل شهرة وقبولاً عند الشعراء الجدد، وأصبح فى نظرهم جزءاً لا يتجزأ من مضمون الشعر. فإذا كان المجتمع لابد أن يتغير فى كل نواحيه فكذلك لابد لأسلوب الشعر أن يتغير أيضًا. فاستعمال الشعر الحر أصبح دلالة على اتخاذ موقف فى الصراع من أجل إنشاء مجتمع جديد أفضل، واستعمال الشعر الحر سمة تدل على اتخاذ موقف من التاريخ والتقاليد وقيم الماضى، واستعمال الشعر الحر هو تسخير موهبة الشعراء لخدمة الأمة العربية فى كفاحها لتغير الأوضاع الماضية، من الاحتلال إلى الاستقلال، ومن المهانة إلى العزة والكرامة، ومن الجهل إلى العلم، ومن الفقر إلى الرفاهية[١].

---

(١) رأيت أن أذكر بعض المصادر المكتوبة بالإنجليزية، وكتابها كلهم عرب، أما ما كتب بالعربية فهو معروف للقارئ ولا حاجة لى أن أذكره:

M.M. Badawi. An Anthology of Modern Arabic Verses (Oxford University Press, 1970); A Critical Introduction to =

(٢)

رَأَيْنا منذ قليل طبيعة العصر المُفْجِع الذى أخذ بأكظام الشعراء فسرت شواظه فى دمائهم وغَوَّر عظامهم، وتفاوتوا فى التعبير عن آلامهم المُمضّة، كُلٌّ حسب استعداده وأمياله، وما فطره الله عليه من الأَنَفة والحمية والعزة والكبرياء. وأنا أزعم أنك لن تجد مفكّرًا - خلال العقود الأربعة الأولى من القرن الماضى - قد عانى من أوار ذلك العصر ما عانى الأستاذ شاكر. لم يقتصر على تسجيلها كما فعل العقاد والمازنى، ولم يصطنع له عالمًا من الوهم يهرب إليه يبثه شكاته ولوعته كما فعل أكثر شُعَراء جماعة أبوللو، بل تصدّى لجاحم هذه الحياة الفاسدة من كل ناحية، يقول فى مدخل «رسالة فى الطريق إلى ثقافتنا»:

= Modern Arabic Poetry (Combridge University Press, 1975). Issa Boullata.Critical Perspective on Modern Arabic Literature (Washington, D.C. The Three Continent Press, 1980), Monah Khouri. An Anthology of Modern Arabic Poetry (University of California Press, 1974. Salma al - Jayyusi. Trends and Movement in Modern Arabic Poetry (Leiden; Brill, 1977).

وهناك كتب أخرى كثيرة لغير الكتاب العرب، منها كتاب الإسرائيلى Moreh بعنوان: Modern Arabic Poetry 1900 - 1970 منشور فى مطبعة (Leiden: Brill, 1976)، وقد ترجم هذا الكتاب إلى العربية، وليس عندى ولم أره.

«اعلم أنى قضيت عشر سنوات من شبابى فى حيرة، زائغة، وضلالة مُضْنية، وشكوك ممزِّقة، حتى خِفت على نفسى الهلاك، وأن أخسر دنياى وآخرتى، مُحتَقِبا إثما يقذف بى فى عذاب الله بما جنيْتُ. فكان كُلُّ همى يومئذ أن ألتمس بصيصًا أهتدى به إلى مخرج يُنْجِينى من قبر هذه الظلمات المطبقة علىّ من كل جانب. فمنذ كنت فى السابعة عشرة من عمرى سنة ١٩٢٦، إلى أن بلغت السابعة والعشرين سنة ١٩٣٦، كنت منغمسًا فى غمار حياة أدبية بدأت أحسّ إحساسًا غامضًا أنها حياة فاسدة من كل وجه. فلم أجد لنفسى خلاصًا إلا أن أرفض متخوِّفا حذرًا، شيئًا فشيئًا، أكثر المناهج الأدبية والسياسية والاجتماعية والدينية التى كانت يومئذ تطغى كالسيل الجارف، يهدم السدود، ويقوِّض كل قائم فى نفسى وفى فطرتى. يومئذ طويت كل نفسى على عزيمة حذَّاء ماضية: أن أبدأ وحيدًا منفردًا، رحلة طويلة جدًا وبعيدة جدًا، وشاقة جدًا...».

لم تكن هذه الرحلة الطويلة البعيدة الشاقة إلى منابع الشعر الجاهلى فقط، بل إلى كل ما ذكره من مناهج أدبية وسياسية واجتماعية ودينية، فقد نصب نفسه للدفاع عن أمته فى شتى

هذه المناحى، واتخذ النثر مركبًا يصول به ويجول، وتنكب الشعر إلا لماما، أما أكثر شعره فقد استغرقته تجربة حب مريرة، زاده فشلها وحشة وتفردا، وبلغ من عنف قساوتها - فيما استظهرته - أنه حاول الانتحار، وأرجح أن ذلك كان فى أوائل سنة ١٩٣٦ قبل أن يكتب كتابه النفيس «المتنبى»[١].

اصطلحت عِلَل المجتمع وفساده فى شتى المناحى، وخيانة المرأة التى أحبها وما خلَّفته هذه الخيانة من شك وألم وحيرة وضياع على هذه النفس النفور الجامحة التى أدماها الصراع فجاء شعر هذه النفس القوية العنيدة مرآة لها ولمجتمعها. واستعرض شعر الأستاذ شاكر كله فلا تجد بيتًا واحدًا إلا وهو يدل على الأستاذ شاكر كما عرفناه فى حياته العامة والخاصة. وهذه الخاصية هى آية الشاعرية وجوهرها، لأن الشعر - كما

---

(١) انظر ما كتبه سعيد العريان فى كتابه «حياة الرافعى»، المكتبة التجارية الكبرى - القاهرة الطبعة الثالثة، ١٩٥٥. وانظر مقالات الرافعى «الانتحار» فى كتابه (وَحْى القلم) ٢: ٨٧ - ١٤٠، حققه وطبعه محمد سعيد العريان - دار الكتاب العربى - بيروت. وانظر أيضًا مقالاً بعنوان «قراءة فى ظاهرة الانتحار فى الأدب العربى الحديث» لخليل الشيخ. مجلة دراسات الجامعة الأردنية، المجلد: ٢١، العدد: ٥١، سنة ١٩٩٤.

هو معروف - تعــبير كسائر صنوف البيــان، والشاعر الحق هو الذى يعبر عن النفــوس الإنسانية من خلال تعبيــره عن نفسه، وهو الذى ينقل إليك إحــســاسه بالشىء المــوجود الذى يألفــه الناس جميعًا على شتّى ضــروبهم، فإذا بك تحسه كأنك تحسُّه أول مرة لما أضفــاه عليه من شعــور وما أودعه فيه من صُــبابة نفسه، وإذا بك تنظر إليه كأنك تراه أول مــرة. قرأ كثيرون منا قصــيدة الشمــاخ الزائية وأعجــبوا بهــا، ولكن الأستاذ شــاكر جلاّها فى صورة جديدة فى قصــيدته «القوس العذراء» التى لا تقل نفاســة عن زائية الشمــاخ، وقال الأستاذ شــاكر عن ذلك مُحــقّا، «تذوقتــها غائصًــا فى أغوار دلالة ألفاظهــا وتراكيبــها ونظمها، بل غُــصْت تحت تيار معانيهــا الظاهرة، وفى أعماق أحرفها، وفى أنغام جرسها، وفى خــفقات نبضها، وفى دفَقْها السارب المتــغلغل تحت أطباقــها، فــأثرت بهذا التــذوق دقائق نظمها ولفظها، واســتخرجت خباياها المتحــجبّة من مكامنها، وأمطت اللثــام عن أغنى أسرارها المكتَّــمة، وأغمــض سرائرها المُغَيَّبة». وليس فى مقــدور أحد أن يزعم أن «القوس العذراء» لم تجعله يرى هذا القديم المألوف - أى زائيــة الشماخ - بعين غير التى كان يراها بها.

والأستاذ شاكر شاعر ناقد ذواقة للشعر وسائر أصناف البيان، ولا مراء فى ذلك. ولولا ضيق الوقت والمساحة لجمعت هنا كل أقواله عن ماهية الشعر وهى مبثوثة مفرقة فى كتاباته. وأحاديثه عن الشعر تنم عن فهم عميق لملكة الشعر وماهيته ودوره فى الكشف عن أغوار النفس الإنسانية وأسرار الكون المحجبة المكتمة. يقول فى تمهيده لعرض ديوان «ليالى الملاح التائة»[1].

«وليس يشك أحد أن الشعر فى أصله هو معان يريدها الشاعر، وأن هذه المعانى ليست إلا أفكارا عامة يشترك فى معرفتها كثير من الناس، وأنها دائرة فى الحياة على صورتها التى تأخذ بها كل عين، ويتداولها من جهته كل فكر، وأنها - إذ كانت كذلك - ليست شيئا جديدا فى الحياة ولا فى معانيها وأوصافها وحقائقها، وإنما تصير هذه المعانى شعرا حين يعرضها الشاعر فى معرض من فنه وخياله وأدائه ولفظه، فيجدد لك هذا المعنى تجديدا ينقلها من المعرفة إلى الشعور بالمعرفة، ومن إدراك المعنى إلى التأثر بالمعنى، ومن فهم الحقيقة إلى الاهتزاز للحقيقة. فتجد المعنى القريب وقد نقلك الشاعر إلى أغواره الأبدية وأسراره العظيمة، وكأنه قد خرج عن

---

(١) مجلة الرسالة، السنة الثامنة، العدد: ٣٥٢، أبريل ١٩٤٠، ص ٥٨٣ - ٥٨٦.

صورته التى ضُربت عليــه فى الحياة إلى السِّر الأول الذى أبدع هذه الصـــورة، وإلى الصلــة التى تصل مـــا بين المعـلوم إلى المجهـول البعـيد الذى لا يُرىَ ولا يُلْمَس. فـالشعـور والتأثر والاهتزاز هى أصل الشـعر، ولا يكون شعـر يخلو منها ومن آثارها وتأثيرها إلا كلاما كسائر الكلام ليس له فَضْل إلا فضل الوزن والقافية. وهذه الثلاثة لا يكتسبها الكلام من المعانى من حيث هى معان معقولة مـدركة، وإنما هى فيه من روح الشاعر وأعصابه، ونبضات الشـوق الأبدى التى تتنزى فى دمه، فأيُّما معنى عرفـه الشاعر، وأيما صورة رآها، وأيمـا إحساس أحس به، فـهـو لا يكون من شـعـره إلا حين يـتحـول فى روحـه وأعصابه ودمه إلى أخيلة ظامئة عارية تبحث عن زيها ولباسها من أسلوب الشاعر وألفاظه، ثم تـريد بعد ذلك زينتها من فن الشاعر لتفصل عنه فى مفاتنها الجميلة كأنها حسناء قد وجدت أحلام شبابها فى زينتها وأثوابها. وبقدر نقصان خزائن الشاعر مما تتطلبـه أخيلته الظامـئة العـارية، يكون النقص الذى يلحق العذارى الجميلة التى تسبح فى دمه من معانيه».

«والشعر على ذلك هــو فن تجميل الحياة، أى فن أفـراحها الراقصة فى نسمات من الألحان المعربدة بالحقيقة المفرحة، وفن أحزانها النائحة فى هدأة التأملات الخاشعة تحت لذعات الحقيقة

المؤلمة، وفن ثوراتها المزمجـرة فى أمواج من الأفراح والأحزان والأشواق، قـد كُفت وراء أسوار الحقـيقة المفـرحة والمؤلمة فى وقت معا».

«وهو على ذلك فلسفة الحياة، أى فلسـفة السموّ بالحياة إلى السرِّ الأبدى الذى بثّ فى الحيـاة أسراره المُسْتَغلَقة المبـهمة التى تُرَى ولا تُرَى، وتظهر ولا تظهر، وتترك العقل إذا أرادها حائرا ضائعا مشردا فى سبحات من الجمـال تضىء فيه بأفراحها كما تضىء بأحزانها، وتـفرح بكليهما وتحـزن فرحا ساميـا أحيانا، وحزنا ساميا أبدا».

بهذه النظرة النافذة إلى مـاهية الشعر ورسالتـه نظم الأستاذ شـاكر أشـعاره فـعبـر بصدق عن كل مـا أحس به، وهو ألم صُراح تعـاوره به مجتـمعه وزمنـه وخيانة من أحب، فـمضى يجاهد منفردا وحيدا ينصح قوما لا يحبون الناصحين، ويدافع عن أمة طال نعاسهـا وركودها فما تستفيـق، ويعانى من خيانة أمَرَّ من الصبر فى أنفة وعِزّة وكبرياء لا تستكين. وهذا سِرّ أسر شعر الأستـاذ شاكر، وهذا الذى يميزه عن أكثر شـعراء عصره الذين هربوا من واقعهم لثقله وهمومه المطبـقة والتمسوا العزاء فى شعر الطبيعة كجماعة المهجر أو فى قصائد الحب والشكوى والموت كـأكثـر شعـراء جمـاعة أبوللو. وإذا بلغ التـوافق بين

خلائق الإنسان وبين شعره، فتلـك آية التعبير الصادق، وتلك آية الشـاعـرية والملكة الفنـية الـتى ليس وراءها مطلب. وقـد وصف الأستـاذ شاكر نوازع نفسـه فقال :«والحيـاة من حولى تفترّنـى حتى ما أحس من فَوْرتهـا إلا القليل، والنفس منبوذة على حدود النشـاط فى كل مُجْدِب بالقحط والظمـأ لا يهتدى إليه رِىّ ولا شِبَع. وإذا كانت النفس كذلك لم يأت خيرها إلا من طول الإحساس بالحـرمان والألم، فهى تريد أن تتكلم من نوازعها بألفاظ ثائرة ضائعة حائـرة كأنها تبحث عن نفسها فى معـانيها. . ثم لا تتكلم، وهى على ذلـك لا تطيق التأمل فى المادة التى تعـرض لها إلا بمقـدار من الرغـبة فى البـحث عن نفسهـا فى سر نفس غيرها لتـجد عند ذلك أسبابا تهـتاج بها وتضطرب، وإذا لم تجد النفس لذّتها المؤلمة إلا فى انتزاع الآلام المحرقة مما ترى وتسمع وتتخيل، فكيف تعيش أفكارها إلا فى دخان من الأحزان الصـامتة صَمْتَ الفكرة المُخْنِـقَة التى لا تجد أنفاسها ولا جوّ أنفاسها. هكذا أجدنى . . هذه النفس المنبوذة بما جنت وبالذى لم تَجْنِ مـن شىء، هى النفس التى أريد أن أتولى بها النظر فيما يعرض لى. . فنفسى الآن هى نفسى التى لا أكاد أجـمعها وألم شـتاتها إلا قليـلا، وما هو إلا أن أراها مـبعـثرة تفـر منى أوابدها فى كل وجـه، وأقف وأنا اتلفت، أنظرها وهى تغيب فى ظلام الأحزان، وتترك عندى أطيافا من

الذكرى تطوف فى تأملاتـى مُرْسِلَة من مزاميرها ونايهـا أنغاما حزينة مهـجورة مُتفـجِّعة كأنها تقـول: هذا مكان كان أهله ثم بادوا، هكذا أيضا أجدنى»[١].

وهذا الكلام وإن أبان عـن هذه النفس الآبدة المنبـوذة التى تحتـرق ألما وتفنى ضياعـا، يبين أيضـا عن نظرة متفلسـفة إلى الحـياة والموت وعن رسـالة الإنسان الـنبيلة فى مـوات الحيـاة واسـتحـياء الفناء. ولا تعـارض هنا بين الشـعر الذى يبـعثـه الإحسـاس وبين الفلسفة التى يمليـها الفكر، فالفكر والخـيال والعاطفة ضرورية كلها للفلسفة والشعر مع اختلاف فى النِّسَب وتغاير فى المقادير، فلابد للفيلسوف الحق من نصيب من الخيال والعاطفـة ولكنه أقل من نصيب الشاعر، ولابد للشـاعر الحق من نصـيب من الفكر ولكنه أقل من نصيـب الفيلسـوف. فلا نعلم شـاعـرا واحـدا يُوصف بالعـظمـة كان خِـلْوا من الفكر الفلسفى. وكيف يتأتّى أن تعطـل وظيفة الفكر فى نفس إنسان كـبيـر القلب، مـتيـقظ الخـاطر، مكتظ الجـوانح بالإحسـاس كالشاعر العظيم[٢]. وهذه الصلة بين الشـعر والفلسفـة أفاض العقاد والمازنى فى بيانها[٣].

---

(١) الرسالة، السنة الثامنة، سنة ١٩٤٠، ص ٢٤ - ٢٥.

(٢) فصول من النقد عند العقاد، محمد خليفة التونسى، ص ١٨١.

(٣) خاصة المازنى فى كتابه: الشعر غاياته ووسائطه.

ذكرت آنفا أن الذى زلزل كيان الأستاذ شاكر حادثان جليلان، أولهما فساد حياة أُمته من كل وجه، وثانيهما ابتلاؤه بخيانة من أحبّ وامتزج هذان الحادثان فى نفسه وسريا فى دمه وفى أنفاسه، واستقرا فى غور عظامه.

أما أولهما فقد أفرد له قصيدة طويلة أعطت هذا الديوان عنوانه، وهى «اعصفى يا رياح»، وهو عنوان دالّ على ما فى نفسه من الغضب والهياج، والثورة والغليان. ولست أشكّ أن الأستاذ شاكر بثقافته الدينية الواسعة قد نظر إلى هذه الريح كما جاءت فى كتاب الله عز وجل مدمّرة لأُمم قد عَتَت عن أمر ربنا ورسله فأصبحت وديارها كأن لم تكن ولم تَغْنَ بالأمس، كقوله تعالى ﴿**بل هو ما استعجلتم به ريحٌ فيها عذابٌ أليم**﴾، وقوله تعالى ﴿**وفى عاد إذْ أَرسَلْنا عليهم الريحَ العَقيم**﴾، وقوله جَلّ شأنه ﴿**وأماّ عادٌ فأُهْلِكُوا بريح صَرْصَر عاتية**﴾، وقوله عزَّ مِن قائل ﴿**فأرسَلْنا عليهم رِيحًا صَرْصرًا فى أيامٍ نَحِسات**﴾.
يفتتح القسم الأول من القصيدة بهذا المطلع:

اعصفى يا رياحُ من حيثما شئت، وعَفِّى الطُّلولَ والآثارا

وواضح منذ البدء أن الأستاذ شاكر لا يرى أمامه بنيانا عامرا وحياة تموج، بل ديارا قد خربت، وصروحا قُوِّضت، ولم يبق منها إلا حجارة شاخصة، فيسأل الريح أن تزيل هذه الآثار

الباقية، فلا يكون هناك إلا اليباب والعدم المطلق، ولكن ما لهذه الطير تغدو وتروح، مُعلِنة بغُدوّها ورواحها عن حياة لا تزال. فَحَرِيّ بهذه الرياح أن تنسف هذا الطير نسفا وتدكّ أوكاره دكًّا، فلا تبقى آية للحياة:

اعْصِفِى كالفناء يَنْتَسِف الأوكارَ نسفا ويَصْرَع الأطيارَا

وهذان هما البيتان الوحيدان فى هذا القسم اللذان يشيران إلى تدمير شىء قائم ملموس دال على حياة أو بقية حياة. ولكن الأستاذ شاكر فى غضبه وثورته لا يرتضى إلا فناء سرمديا فيطلب من الريح أن تنسف آية الليل:

وانْسِفى يا رياحُ آيةَ هذا الليل حتى يَحُورَ ليلا سِرارا

وآية الليل هو الظلام وظهور القمر فيه، فإذا غاب تلفع كل شىء بظلام بهيم وضربت حنادسه أرواقها، فلا اهتداء فيه ولا اطمئنان، بل خوف ورعب ووحشة، وقد استمد الأستاذ شاكر هذه العبارة من القرآن الكريم، يقول الله تبارك وتعالى فى سورة الإسراء **﴿وجَعَلْنا الليلَ والنهارَ آيتيْن فمحونا آية الليل وجعلنا آيةَ النهارِ مُبْصرَةَ لتَبْتَغُوا فَضْلاً من ربكم ولتَعْلَمُوا عددَ السِّنينَ والحسابِ وكلَّ شىء فصَّلناه تَفْصيلا﴾**. فالله عزّ وجلّ مَنّ على خَلْقه بآياته العظامِ، منها مخالفته بين الليل والنهار، فتسكن الناس فى الليل، وتنتشر فى النهار للمعايش

والأعمال. ولو كـان الزمان كله نسقا واحدا وأسلوبا مـتساويا لما عُرِف شيء مما عدده الله ههنا، ألا ترى إلى قوله تعالى فى سورة القصص ﴿قُلْ أَرَأَيْتم إنْ جَعَل اللهُ عليكم الليـلَ سَرْمَدًا إلى يوم القيـامةِ مَن إلهٌ غيرُ الله يَأتيكُمْ بِضـياء أفَلا تَسْمَعُون﴾. فالله سـبحـانه جعل الليل آيـةً أى علامـة يُعرَف بهـا وهى الظلام وظهور القمـر فيه، وللنهار علامـة وهو النُّور وطلوعُ الشمس فيه. فالأستاذ شاكر يسأل الرياح أن تنسف آية الليلِ حتى يعود الظلامُ سَرْمديا يَغْـشَى الخراب واليباب والعدم، فـلا حياة ولا ضياء ولا دِفْء، وإنما تبار وظلام ووحشة وخوف وزمهرير.

أما بقيـة أبيات هذا القسم خلا الـبيتين الأخيـرين فهى فى هيئـة الرياح، فيجعلهـا تهب فى جنون مستعـر كأنها نفـسها نُسجت من الجنون، كـأنها امرأة غـيرى لا يساورها إلا الحـقد تتَّقد شـرارا ونارا، كأنها عقل مُـحِب جُنّ جنونه وتملأه الغيظ فأودى بوقـاره فمـا يطيق قرارا، كـأنها الشك تخـاطف قلب أعمى، فـلا بصيرة تهديه ولا بصـر يعينه على اليقين، كـأنها الوفاء المبذول من غير شرط صـدمه الغدر فزلزله زلزالا، كأنها الضلال يَسْخَر من حيرة مَن ظن أنه قد علم المسالك والمسارب ولكنه يقف متلدِّدا حيران، كأنها الحزن الدفين نفض عنه صبرا طويلا، فثار وفار.

لم يجعل الرياح فى هذه الأبيات إعصارا أو نارا وما إلى ذلك من الأشياء المادية المحسوسة، ولكنه أضفى على الرياح «شعورا» يدفعها إلى إحداث ذلك الهلاك وهو شعور من نفسه هو، شعور «البغضاء» الذى سرى فى كيانه لخيانة من أحبّ، شعور الشك الذى أكل يقينه، وشعور الحيرة التى سدّت عليه منافذه، وشعور الضلال الذى أشكل عليه مهاربه، شعور الحزن الدفين الذى استنفد صبره، فجعلنا نرى الرياح، لما أضفى عليها من شعوره، بغير العين التى كنا نراها بها، ولفرط ما مزج بين الرياح وبين شعوره ومزاجه جعل ما تنشئه من خراب نعمة، فقضاؤها على هذا العالَم وساكنيه من الأشباح نعمة لا تساويها نعمة، ويفتتح القسم الثانى من القصيدة بهذا البيت.

اعْصِفى يا رياحُ غَضْبى بإعصار مِن المَقْت، جاحما هَدَّارا

فعزف عن «كأنك» التى للتشبيه، وجعلها كلها إعصارا من الكراهية يتّقد نارا ويهدر هديرا يزلزل الأسماعا ولِمَ لا! أَلَمْ تشهد هذه الرياح ما يحدثُ فى هذا العالم عَبْر الزمان؟ فما الذى رأته فى وَضَح النهار ،وسدفة الليل؟ لم تر إلا لؤما وخزيا وعارا، ودسائس وخبائث وحقودا فى خفية تتوارى، وأباطيل خلقتها أكاذيب فأضحت حقائق وهُدًى للناس وأمْسَت منارا، وظُلما وجَورا وقَسْرا لا تكفّ ابتدارا، وأذلّاء يرسفون

فى قيــود المهانة، ولكنــهم بالباطل يتــعالوْن استكــبارا، ودُمًى يحركــها اللاعبــون بأقدار أُمتــهم وهم يحسبــون أنهم أحرار، وأشلاءً مُمزَّعة ألقاءَ ما كادت تنهض حتى أحدَّت الأظفار. أىّ حيــاة مخبــولة رأتها هذه الريح! حــياة فاســدة من كل وجه، طاغية من كل جانب، فحقّ عليها هبوب الرياح الغرائب.

هذه هى الحــيــاة التى تراها الريــح الآن، ولكن أين هى مما رأته الرياح من قــبل، فهى قــديمــة قدم الزمــان، قديمــة منذ طمعت آمال الإنسان إلى كل خــير يُرجَى، منذ نشأت السحب فأرسلت مطرها الجَوْدَ، فــأحيى موات الأرض وازدهرت زرعا، وأهدت لمن سار فى الهجيــر ظِلًّا وبردا، قديمة منذ جَمَّ النبات وفغمت زهوره الكونَ شَذا وعبيــرا، قديمة منذ دبت الحياة فى أوصال هذا الكون سماء وأرضــا، منذ خرج أبونا آدم من جنَّته يعض على الأنامل كَمَدًا وغيظا، منذ سرى فى كيان أُمِّنا حوّاء نفحة الأنثى، فانظرى أيتــها الرياح كيف أتى الإنسان إلى هذا الكون الذى ســخَّره الله له فطغى وبغى، ثم فنــى، وجاء مَن بعده فصنع صُنْعه وما ارعوى لم يزجره ما حَلّ بمن قبله، حتى نزل بساحته الفناء، وهكذا دواليك.

ويستــهلّ الأستــاذ شاكــر القسم الرابع من القــصيــدة بهذا البيت:

أَنصتي يا رياحُ، صرخةُ ملهوف طَعِين أفنى الليالى انتظارا

صرخة أطلقها وسط زمجرة الرياح، صرخة رجل طال به الانتظار وأدماه الطعان، فما ضعف ولا استكان ولم يُبل أن يقف وحيدا منفردا، كما ذكر فى كلمته التى نقلتها صدر هذا الحديث، وهو شعور أحس به الأستاذ شاكر إحساسا شديدا حتى أنه كتب كلمه بعنوان «أنا وحدى» فى مجلة العصور، قال :

«تحت الشمس المُحرِقة التى ترسل أشعّتها، وكأنها لُعاب من النار الجاحمة المُتَسعِّرة».

«وعلى الرمال الملتهبة التى تزخر وكأنها بحر من السعير تتلاطم فيه أمواج اللهب».

«وبينهما.. بينهما يتهاوى سَموم من الرياح العاصفة، وكأنها أنفاس الشياطين المخلوقة مِن مارج مِن نار».

«أنا وحدى.. أحُدّ الطرف إلى الآفاق المترامية، ذاهلا عن آلام الظمأ لأرى السراب المتخايل كأنها ذَوْب الدُّر واللؤلؤ»..

«أنا وحدى ... أرى الجبال البعيدة الشامخة، على هاماتها عمائم الشَّيْب تفيِّئها الريح، وكأنها ذوائب من دخان».

«أنا وحدى.. حيث تلبسنى النار، حيث أطأ النار، حيث

أتنفّس من نار، حيث أسمع حَسِيَسها وأرى آثارها.. أنا وحدى..»

«أيتها الشمس المُحْرِقة، أيتها الرمال الملتهبة، أيتها الرياح المندلعة، أيها السراب، أيتها الجبال..!! أنا وحدى معكنّ أحيى لأحترق، وأحترق لتحيى النفس التى تنشُد الخلود!!».

«الصديق..! الصاحب...! الأخ...! كلُّهم.. ودعنى لأنه لا يطيق، وأنتِ أيضا أيتها الحبيبة!!».

إذن فأين أجد الراحة من وقود النار؟»[١].

وقف وحيدا يترقّب لعلّ وعَسَى، كلمّا ظن فى دواء شِفاء، زاده سقْما وشَقاء. يئس من كل شىء كما يئس مَن عاشوا فى هياكل العلم وتعبّدوا فى محاريبه إيمانا، فما حصّلوا نقيرا، فكفروا بما صنعوا وولَّوْه ظهورهم، وارتدوا عن الصِّراط سكْرَى حيارى.

وتستمر زمجرة الرياح وكأن صرخته ضاعت فى أطوائها فيخاطبها فى القسم الخامس بقوله:

اسمعى يا رياحُ، مَن ذا يناديك وقد أرخت الدياجى السِّتارا

(١) مجلة العصور، العدد الثانى، ٩ ديسمبر ١٩٣٨، ص: ٦٤. والنقط التى يراها القارئ من وضع الأستاذ شاكر، وليست دليلا من الكاتب على حذف بعض الكلام.

يجعل نداءه فى وحـشة الظلام، وقد هـجع الناس، ونبا به مضـجعه فـتجافى، وأطبق على مـهجته فـسادُ الأنام كشِـفار الجازر، واكتنفـها موج الفزع بطغيـان زاخِر، لا تكاد تفيق من ضربة حتى تتبعها ثانية إثر أولى تلزها إلى ضنك المسارب، فلا مهرب ولا نجاة. سُدت عليها المسالك. وهَبْ أنها وجدت ثغرة فكيف تطيق النجاة وحيدة منفردة فيسخر منها ومن اغترارها ألا تدرك أنها تـعيش فى ذُل الرِّق، فَلْتَلْبَس لكل حـالة لبوسـها: لِتغدِرْ وتنافق، وتُضِل وتسـتبد، ولتحمل نصيـبها من الأوزار. هكذا هو حـال الزمان شـاءت أم أَبَت لا تنفـعـها شكاتهـا أو اشمئزازها.

ويستمر عويل الرياح وزئيرها وكأنها لم تنصت إلى ما قال، فيخاطبها فى القسم السادس بقوله:

أنصتى يا رياح، ما أبشعَ الصوتَ لقد سار فى القرون مَسارا

يُعجّ هذا القسم بالأصوات التى تناهت إلى سمع الرياح عَبْرَ القـرون، ويعلن الأستـاذ شاكـر منذ فاتحـة القسم أنهـا أبشع الأصـوات، تتعـالى وتتداخل فـما يـكاد يبين منهـا ليس إلا جؤارا، أَمِن صراخ هى أم أنين وعويل، أم تهاليل كافرين على أوثانهم عاكفين، أم أصوات فرحَى فى دماء أعدائهم متوالغين؟

ولا يقنع الأستاذ بتسجيل هذه الأصوات البشعة التى تصدر

عمن له جسد وروح، فيلجأ -لزيادة البشاعة - إلى تحسّس عواطف البشر ويتسمّع لها، فهى وأصحابها على مِثال، وهى أيضا تتعالى فى ضوضاء يكاد يضيع معالمها، أهى عُواء العواطف تسخر ممن رثاها، أم هى فحيح البغضاء ينزو سُمّها وأذاها، أم هى صَلْصَلَة الأحقاد خرجت من مكامنها تشتفى من عِداها، أم هى جَلْجَلَة اللذات نَشْوى لا يُحَدُّ مداها، أم هى جئير السخريات أسعرتها الآلامُ تثير مَن بكاها، أم هى عويل خائبات الأمانى على جدث ما تمنّت سِفاها؟ هل هى كل ذلك أم هناك نبأة خفية تسرى فى تضاعيفها تحمل شعاعا من نور ووميضا من أمل؟ أهى تسابيح خافتة أسرّها تقاة خاشعين؟ لا، لا، بل هى تكاذيب، هى تكاذيب.

وكأن الرياح مضت على أذلالها لا تنصت ولا تسمع وسط زمجرتها، فيعدل الأستاذ شاكر عن «أنصتى، واسمعى»، فيقول لها فى القسم السابع من هذه القصيدة الفاخرة:

انُظرى يا رياح. . يا وَحْشَةَ الطَّرْف إذا دار يَمْنَةً ويسارا

كفانا إنصاتا لما حكته أفعال الفاعلين منذ أبينا آدم، وانظرى لترىْ عيانا مصداق ما أقول، ماذا ترين؟ ترينى أناسا ما هم بأناس وإنما شخوص لا تكاد تتميز معارفها فهى أشباح، يا له من غرور، تظن لنفسها الخلود، ولكنها تفنى، وتُعْقِب أشباحا

يظنون كما ظن من قبلهم، ولكنها أيضا تفنى فلا اتعاظ ولا ارعواء، بل مضوا على أرسالهم يطلبون الخلود، ما دروا أنه خلود مُعار، بنوا الأرض وعمروها، ثم بادوا وأصبح ما عمروه خرابا بلقعا، فجاء مَن بَعْدهم فشادوا فوق القبور الديارا، وهكذا دواليك:

ضلَّ هذا الإنسان يكدحُ للخُلد.. وأقْصَى الخلود كان.. فصارا

يقول ربنا فى كتابه الكريم الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه في سورة الانشقاق ﴿يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلاقِيهِ﴾ وروى أبو داود الطيالسى عن الحسن بن أبى جعفر عن أبى الزبيْر عن جابر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: قال جبريل: يا محمد عِش ما شئت فإنك ميت، وأَحْبِب مَن شئتَ فإنك مفارقه، واعمل ما شئتَ فإنك ملاقيه»، فدَلّ الحديث على أن الهاء فى «ملاقيه» تعود على الكدح، أى العمل والسعى، ولا يكون العمل والسعى إلا ابتغاء مرضاة الله، ولكن الشيطان دلى الإنسان بغرور فأقبل على الدنيا كأنه يعيش أبدا، وتفنَّن فى حياطة معيشته فبنى وشاد وعمَّر، وأبدع واستطال وتبارى للخلود، ثم نُودِىَ للرحيل، فلم يكن مُكثه على الأرض إلا لحظة خاطفة نسميها نحن الناس : العُمر. وما بين خوض الإنسان مَعْمَعة الحياة إلى اندثاره فى حومة الفناء طغى وتكبر وظلم وتجبّر.

وفى طوايا الضجيج والـعجيج والتكبر والخيـلاء، والتبارى للخلود المعار، ضاعت حكمة الحكماء. يلح الأستاذ شاكر فى القسم الثامن والأخير على الرياح أن «تنظر»:

انظُرِى يا رياح ذا القَبَس الوهَّاجَ. . قد راوغ الفَناءَ اقتدار

عقل متوهِجّ، استطاع بذكائه أن ينجو مما أحاق بالناس، ناء تحت ثقل هذه المراوغـة حتى اسـتطاع بعزم لا يُفَلّ أن يـصدع صفاتها ويستقل بها يخرج من غَلَس الظلام إلى نور الفجر، أو هكذا ظن، أعـمى رأى الظلام نهـارا، أراد أن ينفـذ إلى سـر الكون، وإلى غـياهب المجـهول، كـيف غرته نفـسه وقـدرته الفانية! وهكذا تنتهى هذه القصيدة الشامخة، وهى تشرح نظرة الأستاذ شاكر إلى هذا العالم الذى نعـيش فيه والذى عاش فيه مَن سبقونا، نسـير جميعا على نهج لاحِبً مُـسْتَتَبّ ولا نَمْرُق عن الهَدْى الذى استنَّاه لأنفسنا، عالم يمتلئ بالصراع الدامى، والتـغطرس والخـيلاء،والتكبـر والجـبروت، والـنفاق والخـتل والغـش والخـــداع، تـوارثه الأبنـاء عن الآباء، والآبـاء عن الأجداد، ارتضعوه أفاويق حـتى ما يَدِرُّ لها ثُعْلُ، وكل ما قاله يمتاز بنفاذ نظرته وسعة تجربته، وعميق إحساسه بالكون والحياة والأحياء، وسوء الظن بالناس شعور يعترى أصحاب التجارب الذين مارسـتهم الحـياة ومارسـوها، وخبروا تقلـبات القلوب وكنائن الضمائر فنفذوا إلى خبايا السرائر، ولكن الأستاذ شاكر وحده هو الذى يقول (: ص٣٠)

تَبّا لَهـا ولِخْلق كلَّما انتـعشـوا
تَفـارسَوُا بـنيُوب البَـغْى أو صـالُوا
كم ظالم عب كـأس الظُّلْم طافِحـةً
ثم انتـشَى وهو تَيَّاهٌ ومُـخـتـالُ
وكَمْ صـديـقٍ تَفـانَوْا فى مـودَّتهم
حـتـى إذا نَبَـتَتْ أنـيـابهم جـالُوا
فأنشـبوا حيث لا قَـواْ، لا تروِّعهم
عـمَّـآ أراغـوه أُمَّـات وأطفـالُ
تَوالَغُـوا فى الدم المَسْـفـوح عـربدةً
كـأنّ مـا شـربوا صَـهْـباءُ جِـرْيالُ
ثم انثـنَوْا وبهم مِن شِـرَّة سَـفَـهٌ
وكلُّهـم مَـرِحُ العـطْفـيْن مـيَّـالُ
يرتاح للدمْع والأنّـات، يسمـعُـهـا
طَلْق المُحَـيَّـا إلى أنْ يَنْعَمَ البـالُ
فـإنما العَـقْل إزْراء وتَـعْنِيـة
وحَـيْـرَةٌ، وضـلالاتٌ ، وأثـقـالُ

والغَـيْبُ غَيْب، فـما سِـرٌّ بمُنكشِفٍ
والعُـمْـرُ والعـيشُ أَغْلال وأَكـبـالُ

وهذا كلام حق لازيف فيه، لأنه كلام تجريب لا ريب فيه، ولكنه تجريب الأستـاذ شاكر خاصـة دون سائر المجرِّبين، لأنه الرجل العاقـل الكريم النفس، الأبيّ الشديد الاعـتداد، الذى عاش فى زمن الاحتلال، وعانى مِن تخاذل مَن وُكِّل إليهم أمر البلاد، ومِن حَطْب المتسلّقين فى حبال الجلادين، ولَقِى الناس فى ميدان المداهنة والرياء، والبطش والظلم والفساد، والخديعة والمخاتلة وكاذب الكبرياء.

وترى فى ختام هذه اللامية ما تراه فى ختام الرائية «اعصفى يا رياح» من نظرة فلسفية إلى الوجود، وطبيعة البشر، وقصور العقل مـهما أوتى من الذكاء عن فـهم هذا الكون والنفاذ إلى خباياه فما يجنى صاحب العقل إلا العناء والحيرة، والضلالات التى يرسف فى أغلالها وأكبالها.

(٣)

كتب الأستاذ شاكر ثلاث مقالات متتابعة بعنوان «إلى أين..؟» فى مجلة الرسالة سنة ١٩٤٠ أدار فى هذه المقالات حوارا بينه وبين صاحب له عن صديق، ولا تكاد تمضى فى قراءة المقالات حتى تدرك أن «الصديق» الذى يتحدث عنه الأستاذ شاكر هو الأستاذ شاكرنفسه ولا أحد سواه، يقول الأستاذ شاكر لصاحبه وهو يحاوره عن هذا الصديق: «أقول لك إنى لأحسّ بكل ما يعتلج فى قلبه من آلامه، **وكأنها عندى هى كل آلامى**، إنه رجل قد امتلأ حكمة مِن طول ما جرَّب، ومن عُنْف ما لقى من الأحداث التى نقضت بناء حياته مرة بعد مرة. نعم إنه لملء رجولته تجربة». أليس هذا هو الأستاذ شاكر كما نعرفه فى حياته العامة والخاصة؟

ثم يقول بعد سطور قليلة عن هذا الصديق «كان يومئذ رجلا ضَرْبا متوقّدا ثائراعنيفا، لا يزال يتمزّع من جميع نواحيه كأنّ فى تجاليد شخصه روح وَحْش شارد لا يألف الحياة ولا هى تألفه، كان فكرة شامخة عاتية عَضِلَة تأبى أن تتهضّم لأحد أو تستذلّ.. أصيب بأحداث كثيرة جعلته ظَنونا حزينا، فهو لذلك يضنّ بما فى قلبه أن يطلع على حقيقته الكاملة أحد من

الناس.. لقد كان هَشًّا أحيانا بين يدىْ من يتناوله.. فإذا أُخذ بالاعتناف والقَسْر،انقلب الذى فيه ضاريا لا يطيق ولا يُطاق». أليس هذا هو الأستاذ شاكر كما نعرفه فى حياته العامة والخاصة؟

ولم ينخدع الصاحب عن ماهيَّة هذا الصديق، كان يقول فى نفسه وهو يستمع إليه فما «**صديقه إلا هو**، وكنتُ ألمح هذا الجبل وهو يتخلّع من أعضاده التى ينهض عليها ثابتا قارّاً متساميا يهزأ بالتلال القصيرة التى تطمح إليه بأبصارها».

وقد زلّ قلم الأستاذ شاكر فأبان عن خبيئة أراد أن يخفيها ببراعة الفنان الماكر حين جعل كل آلام صديقه آلامه هو، ولكنه فارق الحذر فى موضع آخر من المقالة الثالثة وهويتحدث عن وَقْع لقاء صديقه بحبيبته «بدأ يحيى بها وبسحرها حياة رائعة فاتنة من أحلام الحب، وجعلت هى.. وجعلت.. هى.. آه يا صديقى! هذا كثير، **إن ذكرى ذلك كله تؤلمنى.. إنها تعذبنى.. إنها تخز قلبى بمثل السنان الحديد يقع وَخْزا متتابعا يتفجر فى نزعه بالدم كيف أستطيع أن أقول لك الآن ما الذى كانت هى تفعل! وماذا أقول لك؟ آه.. إن أنوثتها، بل رقتها...**»

وأرجح أن علاقة الحب هذه نشأت سنة ١٩٣٤ أو أوائل ١٩٣٥، فأول مقطوعة نشرها للدلالة عن هذه العلاقة كانت

فى مجلة المقتطف عدد يناير ١٩٣٦ ، وعنوانها يدل على أنها قد مضت وانتهت، فهو سماها «نفثة قديمة» ورغم هذا «القِدَم» فلا يزال يذكرها ولا يزال يألم، وسوف نرى من خلال شعره كله أنه بقدر ما ثار وتمرّد على هذه الحبيبة القاسية، فما برح يرسف فى قيود هذا الحب أسيرا عانيا يقول فى «نفثة قديمة» ص: ٦٨.

ذكرتُكِ بين ثنايا السُّطورِ
وأضمرتُ قَلْبىَ بين الكَلِمْ
ولست أبوحُ بما قد كتمتُ
ولو حَزَّ فى النَّفسِ حَدُّ الألمْ
تمزُّقنى - ما حييتُ - المُنَى
فأرقَعُ ما مَزَّقتْ بالظُلَمْ
فكَمْ كتَمَ الليلُ مِن سِرِّنا
وفى الليل أسرارُ مَن قد كتَمْ
تشابه فى كَتْم ما نَسْتَسِرُّ
سوادُ الدُجَى وسوادُ القَلَمْ

ولكن الأستاذ شاكر إما حقيقة وإما بخيال الكاتب المُبْدِعِ،

يعود بـهذه العلاقـة إلى أيام الطفـولة «كانا صـغيريـن وكانت أيامهما الصغيـرة لا تدرك معنى النظرات التي تلتقى وتتعانق، فتنعقد عقدة لا تُحّل،وهكذا نسـيهما الزمن فى معبده الآمن، ثم انتبه يوما فـزفر بينهما زفرة واحدة فتفـرقا. لم يدرك يومئذ شـيئـا من مـعـانى الفراق المهلـكة التى تمحق النفس بالتـأمل واللهفة والحنـين، بل نظرا ثم توادعا، ثم افترقـا ثم نسيا، أو هكذا كان، ولكنه فى الحقـيقة لم يكن نسيانا، بل كـان عملا من أعمال القدر الغـامضة، كان تعبئة للأحـداث العظيمة التى تتهـيّأ فتـصنع النفس الإنسانيـة صنعة جـديدة». ومشى الزمن بينهما يقيم سدودا وأسوارا من السنين وأحداثها. . ثم فجأهما القدر فتلاقيا بعد دهر طويل كما يتلاقى نجمان فى ظلمة الليل يتناظران لمحة وشعاعـا من بعيد لبعيد، فـإذا هما يتناسمان فى جوّ عَطِر تنفح أردانه أنفـاس الطفولة التى تنمو فيـها عواطف القلب، «واجتمعا. . فإذا هى غـادة مضيئة تزهر ولكأن الزمن اختطفها كل هذا الدهر وتسلل بها فى بعض مصانعه العجيبة، وجعل يجهد جهده بأنامله النابغة الدقيقة فهو يجلوها ويصقلها حتى إذا فرغ من فنّه الذى احتفى لـها به، ردّها إليه ينبوعا من النور الضـاحك المرح يترقرق لعـينيه ممثـلا فى صورتهـا. لقد شبّت الصـغيـرة ولكن شبـابها كـان رقّة وحنانا فى أنوثتـها، واستوت فكان استـواؤها دِقَّة فى فن من جمـالها» خلعت كل

قديمهــا، ولكن شيئا واحدا بقى كــما هو «لا بل بقى أقوى مما كان وأصفى تلك هى روحهــا، الروح القوية الآسرة المتسلطة. تغيّــر كل شىء إلا عيونهــا التى تشفّ عن هذه الروح التى لا تتغير. فالنظرة الباسمة الخاطفة التى كانت تُخضِع بها تمرُّدَ ذلك الصبى العــارم الصغير، هى هى الــنظرة الباسمة الخــاطفة التى هجمت منه على الرجل فأضــاء وميضها له الطريق، وحــبسته بأمرها وسلطانها على هذا الطريق نفسه، وفى وقت معا».

لمحهــا ولمحته فى يوم اللقــاء الأول، فوقفــا طويلا ينظران، وشخص البصر. كفّت العيــن لا تطرف، أما هو فقد أخذه ما يأخذ الغريق المُشْفِى على هاوية من الهلاك، ثم فتح عينيه فإذا هو ملقى على الشاطئ سليــما معافى موفور الجــمام، أما هى فلم تُثْبِــته بادئ النظر، ثم سقط عن عــينيها الحجــاب الكثيف الذى أرخته سنين الفــراق الطوال، فعرفته واندفــعت إليه بقوة الردّ المتفلّت من شَدٍّ عــشرين عاما كــانت تجاذبها دونه: أنتَ، أنتَ!! أين كنتَ؟!.

آه لقــد نسى المسكين عندئــذ أين كان. إنه هــنا فى اللحظة الحاضرة، أما الحياة الماضــية التى عملت فى بنيانه أعواما طوالا كلها جــهد وإرهاق ذهبت وامّحت، ومرت لحظة اللقــاء بيدها الحانية على حياته الماضية فــغسلتها وطهرتها من سوادها وردت

إليه صحيفة أيامه نقية بيضاء. أعادت إليه الحبيبة زخرف الصبا ووشيه من نسج حديثها، أما هو فبقى صامتا ينصت لها خاشعا ضارعا.

دبّت الحياة فى موات نفسه واستيقظت روحه النائمة فى كهف مظلم أطبقت على منافذه صخور صلاب من جبال الزمن، وهَمَى على روحه التى أحرقها الظمأ حَيًا باردا عذبا زلالا (أَلَسْتِ التى، من: ٨٣ - ٨٤).

بَلَى كنتِ فى قلبى سِراجا يُضيئه
فيفترُّ عن أنواره كل جانبِ
وكنتِ حياةً للحياة تُمِدُّها
بأفراحها فى عابسات المصائبِ
وكنتِ لى البَرَّ الوديعَ إذا غَلَتْ
بأمواجها وادّافَعَتْ بالمناكبِ
وكنتِ نسيما، واللَّظَى يَنشِف اللَّظَى
ويترك ظِلَّ الدوح ظِلَّ اللواهِبِ
وكنتِ مَلاذِى والشؤون كأنها
من الدمع ينبوعٌ يجيش بغاربِ

وكنت إذا مـا العَينُ مـدت هُيـامهـا

إليكِ تـلقَّـتْـهـا أَحَنُّ التـرائبِ

وكنتِ كـأنفـاس الرياض، عبيـرُها

على الفـاقِـدِ المحزونِ فـرحـةُ آيِبِ

«واستجـاشت هذه الساحرة الجميلة الـتى خرجت عليه من لفائف الغيب المحُجَّب تلك النفسَ المُصمِّمة العنيدة، فما زالت حتى انقشعت الغـمامةُ الغَبِيَّة التى كانت تحيط بنفـسه عمرا من قـبل إنه الآن يسـمع ويرى ويحسّ. اشـتـعل القلب وفـارت الروح، فـانطلق بعد الحـيرة والضـلال فى طريق سوىّ مـؤيَّدا بهـذه الـروح القـوية التى سـيطرت على كل روحـه بالحب والحنان . . تنحدر رنّات صوتها إلى قلبه فتجرى فى أنهار الحياة المتدفقة فى جثـمانه بدمه. فيرجعّ الدم ألحانا ترجيعا مـوسيقيا هفافا آتيا من أغوار القدر العميقة. نعم، إنه لا يزال يسمع فى مخارم نفسه ومـهاويها صدى يتردد: أنتَ، أنتَ!! أين كُنتَ؟ فتجيبها الروح من أعـماقها: أنا هنا، أنا هنا!! أيتها العزيزة!»

هذا ما أحس به الأستاذ شاكر فسطره فى المقالة الثانية، ونظمه فى قصيدة بعنوان «رماد» ص: ٩٦.

مـــــــلأتِ دنيـــــاى نــورا
يُـضِــئ دنــيــــــــــا الأنـامِ
فـكلٌّ مــــــرأى عـليــــــه
حــــــــلاوة مِن وَســــــامِ
يـغــــــذوه نــورُكِ حُــــــسنا
حَــيــاً كــصــوب الغَــمــامِ
فـــمــــا تــرى العــــينُ إلّا
زهــرا علــى أكـــــــمــــــامِ
أنــفـــــاسُــــــــه عَطِـراتٌ
نَشْـــوَى بـغـــيْـــر مُــدامِ
مُـــمــــثَّـــلات لرُوحــى
مُــعَـــرْبداتُ الـقَـــوامِ
أُصْــغِى.. إخـــال.. كــأنى
أصــــغــى إلى أنــغــــامِ

«إن كل هذه العواطف التى يرسلها إليه صوتُها وهى تتكلم كانت تعبُّ فيه عُبابها، حتى يجـد الأمواج النفسية تتقاذفه فى

فرح بعد فرح، ومن سعادة إلى سعادة، ومن حُلْم إلى حلم كأنه ماض إلى جنّة الخلد فى زورق من اللذات الطاهرة الجميلة»، هكذا قال الأستاذ شاكر عن صديقه - أى عن نفسه - فى المقالة الثالثة، ثم قال عن نفسه فى«انتظرى بُغْضى» ص٧٢.

لقد كُنتِ أحْلامى إذا الليل ضَمَّنى

وكُنتِ-إذا ما الفَجرُ أيقظنى- رَوْضِى

يُناجيكِ طيرٌ فى الضلوع بلَحْنِه

لقد عاش فى سحرٍ وقد عشتِ فى خفضِ

وكنتِ على وَرْد الخمائل زينةً

وكان بشير الفجْر فى الفنَن الغَضِّ

والملاحظ أن الأستاذ شاكر لم يحدثنا عن هذا الحب فى إبانه، ووقت توقُّده وعُرامه، بل كان حديثه عنه بعد إن انقضى وفات أوانه، فجاء كلامه عنه ممتزجا بالأسى والحسرة والضياع، وأنه حتى كتابة آخر قصيدة، وهى «لا تعودى» كان ممزَّقا بين ما يحس به من ألم الفراق الذى ابتعثته الخيانة، وبين السمو على هذا الحب والتخلص من أسره، وعنوان المقالات الثلاثة

«إلى أين؟» مُفصِح مبين، فهو يحمل فى طواياه حنينا إلى ذلك النبع الثرى الذى سرى فى عروقه والذى لا يستطيع أن يفارقه خشية الجفاف ثم الموات، وبين رغبته فى الاستقلال عنه والبعد دونه حتى ولو قاسى حَرّ الظمأ. وشبيه بهذا الصراع كان يعتمل فى نفسه خلال جَنْيِه ثمار الحب الناضجة المغرية «يقتطف منها حيث أراد، وهى تغذوه كل يوم غذاء جديدا هنيئا يملأ روحه قوة وشبابا وعزما»، ولكن كان يؤرقه هذا الاستسلام لحبها الطاغى وأنوثتها الزاخرة «لقد كان يرَى وهو يذلّ لهذه الساحرة أيامه ولياليه خاشعا مستكينا كأنه يهودى منبوذ فقير فى غربة موحشة»، كانت كبرياؤه «المأسورة فى سجن امرأة محبوبة» تؤرقه ولا يستطيع شيئا حيالها «ولا يملك إلا أن يخضع لذلك السلطان المرح الظافر». يقول الأستاذ شاكر شعرا بعدما قضى الأمر ما صاغه نثرا فى قصيدة «انتظرى بُغضى» ص٧٠:

فكيف به قد ذَلّ وهو مكرَّمٌ
وأَغْضَى ولو قد ناصب الدهرْ لم يُغْضِ
كفى بكَ ذلًّا أن تبيتَ على جَوى
وتُصبِحَ فى ذكرىَ، وتُمسِى على رَمضِ

ويقول في قصيدة «أَلَسْتِ التى» ص٨٨:

تخشَّعتُ تحت الحُبّ والوجْد والهوَى
وطول اضطرابى فى الهموم الغوالبِ
أذَلَّ شـــبابى الحــبُّ حــتى رأيــتُنى
أمـــرُّ بأترابى مُـــرورَ المُجـــانِبِ
وأحــــســـدهم مما لقــيــتُ، وإننى
لأخـشى عليـهم مِـحْنتى وتجـاربى

ويقول مخاطبا النخلة فى «ناسكة الصحراء» ص١٢٤:

وكــــبـــريـاء أُلبِـــسَــتْ ذلَّة
وعُــودِّتْ إطـراقــة الصـــاغـــرِ

ويتضح عنف هذا الصـراع وديمومته فى آن فى قـصيدة «لا تعودى»، وهى آخر قـصيدة حب كتـبها فيمـا أرجح بعد سنة ١٩٤٠، وهى قصـيدة من فـاخر الشعـر تستـحق الدرس بعد الدرس، فانظر إلى هذه الأبيات منها:

أنا.. لا كُنتِ ولا كـان قـصـيـدى أو نشـيـدى
لَوْعَـــةٌ تُمْـلِى على الأكــوان آلامَ العــبـيــدِ
أنا فـى الرِّقِّ أعـــانى ثـورة الحـــر العَـنيــدِ
أتحـــدَّاك.. ولكنـى ذليلٌ فـى قــيـــودى

انظر إلى هذا الحب الجارف الأسير الذى لا يستطيع منه فكاكا، تنزّت جراحه حتى صارت لوعة وأسى تجسِّم العبودية بكل ما فيها من معنى، انظر إلى هذا الحر الذليل، ما أقدر هذا البيان = حُرٌّ ثائر عنيد متحدٍّ عنيف ولكنه ذليل فى قيود الحب يرسف فى أغلالها مريدا غير مريد.

يفاجأ القارئ فى آخر فقرة من المقال الأخير بنهاية قصة هذا الحب، نهاية حادة مقتضبة تأخذك بسرعانها وتهوى عليك كحجر لا تدرى مَن رماه ولا من أى اتجاه جاء. يأخذك على حين غِرَّة لأنك تقرأ فى الفقرة السابقة مباشرة «لقد انتهى فى بعض ساعاته معها أن يراها أستاذه، فهو يجلس بين يديها ليأخذ عنها روائع الحكمة، ويسألها عن سِرّ الأبدية المُحَجَّب بالغَيْب، ويُلقى عندها كل أفكاره المعقّدة فى الحياة، يلتمس عند حكمتها الخالدة حَلَّ ما تعقَّد،وأن تمنح أفكاره ذلك الهدوء الفلسفى الذى تسبغه الحكمة العالية على سَدَنتها وحُفَّاظِها». ولا تكاد تنتهى من هذا الكلام الذى لا يصدر إلا من عاشق وامق، ذاب وجوده فى روح مَن يحب، حتى تنقضّ عليك هذه الأسطر انقضاض البازى: «هذا هو فى مَدّ عواطفه وهى تفور وتثور بأمواجها فى الحب العنيف المتلاطم، ثم إذا هى تطير عن أحلامه وتنْفِر من مجثمها السحرى، وإذا هو منفرد لا يدرى كيف كان هذا؟ ولم؟ ومن أين؟ وإلى أين. . . ؟ . ».

«إنها ذهبت وتركت الدنيا التى أنشأتها له مشرقة زاهية ناضرة، فإذا هى تطفأ وتخبو وتذبل. إن قوة رجولته قد ذهبت تطلبها عند قبور الذكرى، فكيف لا يضمحِلّ الرجل؟ كيف لا يضمحلّ؟».

هذه النهاية الحادة كالسيف المَصَمِّم يمضى فى العظم، وهذه الحيرة التى عنون بها المقالات الثلاث واختتم بها المقال الأخير، «إلى أين؟» واستخدامه للشخص الثالث لحكاية هذا الحب المفجع، يريد أن يجعل بينه وبين رواية الأحداث فاصلاً وحجابًا، كما فعل طه حسين فى الأيام. كل ذلك يدل على عنف الألم الذى عاناه الأستاذ شاكر من جراء هذه القطيعة، وزاد من عنفها وقعها على نفس أبيّة شموس تأبى الاستكانة والخضوع والذِّلَّة، فَنَفْسُه الجامحة تريد الانطلاق من أسر هذه المذلة والخيانة، ولكن حُبّه الذى أخذ بمجامع قلبه يحول دون ذلك، فيجاهر بالتحدى والعناد بينما هو أسير فى القيود، محطمًا مهدَّمًا مضمحِلاً. وإذا كان الأستاذ شاكر فى هذه المقالات الثلاث قد ذكر النهاية المؤلمة ذكرًا خاطفا، ولم يُشر إلى أسبابها، ومسّ وقعها عليه مَسًّا رفيقًا، وإنْ كان مُفصِحًا مُبينًا، فقد بثّ شعْرَه همومَه وأحزانه وما قاسى من حُرقة اللظى، وغُلل الصَّدَى، ومرارة الحرمان، وبلغ مِن مَوْجدته أنه

سمَّى بعض القصـائد - ابتداء من القصيدة الثانيـة التى نظمها للتعبير عن شعوره حيال هذه الخيانة - «ديوان البغضاء»، هى: انتظرى بُغْضى (يونيو ١٩٣٦، ص:٦٩-٧٣)، عقوق (نوفمبر ١٩٣٦، ص: ٨٠-٨٢)، ألَسْتِ التى؟ (يناير١٩٣٧ ص ٨٣ - ٩٢). أما بقيـة القصائد التى لم يدرجها فى «ديوان البـغضاء» فلا تحـمل من المرارة والإلحاح عـلي خيانـة المرأة مثل قـصائد «ديوان البـغضـاء». نعم، إنها تفـيض بالألم واللذع والحـيرة والضيـاع، ولكن كل ذلك تصوير لما آل إليه، وكـيف أصبح، دون ذكـر للمرأة إلا لمامـا، وهى آلام وأوجـاع هذه التجـربة القاسـية من ناحية، وهى أيضًـا أحزانه ووحشتـه وانفراده فى مجتمع فاسد من جميع نواحيه.

وهذه القصائد حسب الترتيب الزمنى هى:

نفثة قديمة، يناير ١٩٣٦.

حيرة، أغسطس ١٩٣٦.

رماد، ديسمبر ١٩٣٩.

اذكرى قلبى، ١٩٤٠.

تحت الليل، ١٩٤٠.

الربيع، إبريل ١٩٤٠.

من تحت الأنقاض، مايو ١٩٤٣.

الشجرة، ناسكة الصحراء، ١٩٤٣.

أما قصيدة «لا تعودِى»، فلم أستطع أن أُأَرّخ لها، ولكنى أظن ظنًّا أشبه باليقين أنها آخر ما نظم عن تجربة حبه، فى أواخر الأربعينيات فيما أرجح.

هذا بالإضافة إلى قصائد أخرى تقع خارج هذا الإطار وهى اعصفى يا رياح (كتبت قبل القوس العذراء، أى قبل عام ١٩٥٢)، وَعْد (نظمها فى الشاعر محمود حسن إسماعيل رحمه الله)، وغيرها.

******

(٤)
قصائد ديوان البغضاء

قلت قبلُ إن الأستاذ شاكر فى آخر المقالات الثلاث فجأنا بنهاية قصة حبه فأوقعها علينا كما تقع الصاعقة، لا يستغرق انصبابها إلا ثوانى معدودة، ولكنها تخلّف وراءها دماراً واضطراباً وفوضى، فتركنا الأستاذ شاكر مثله فى حيرة، لا ندرى «كيف كان هذا؟ ولِمَ؟، ومن أين؟ وإلى أين؟» وما اختطفه ذكْرا هناك اختطافاً، فَصَّله فى شعره تفصيلا. فأضاء لنا جانباً من جوانب هذه النفس الفريدة.

وأول ما يطالعك فى هذه القصائد هو رَجْعة الأستاذ إلى الماضى حيث كان حُراً طليقاً، ينتحى حيث شاء، يَرْضَى مُقدِما، ويأبى غير هيّاب، لا يتقاعس إذا عنَّ عسير أمر، بل يلقاه ووجهه وضّاح وثغره باسم، يقول فى «ألستِ التى؟»:

لقد كنتُ خِلْوًا أنتحِى حيث أشتَهِى
وأَرْضَى وآبَى مُقدِما غير هائبِ
تُسَهِّلُ لى الصعبَ الأبىَّ عزيمتى
ويكفُلُ لى صِدْقى قضاءَ مآربى

وأرْمِي بنفْسى فى المهالكِ باسِما
لأنفُذَ منها باسِما غيرَ خائبِ

ولكن رصده القدَرُ المتاح، فأوقعه فى حُبّ مَن أوهمته أنها تبادله إياه، فاستنام عقله، وعَشِيت بصيرته، فقد وجد - أو هكذا ظنّ - ملاذا يأوى إليه من غِلظة الزمان، وجفاء الإخوان، وطول الحِرْمان. أليس من حقه أن يأخذ من هذه الحياة نصيباً؟ ويستريح بعد نَصَب مُضْنٍ وعناء طويل. هكذا قادته هذه الأمانى إلى هُوَّة سحيقة لم يكن لعظامه من رَضّها جابر، يالها من غَفْلة «ألست التى؟» :

بَلَى. كُنْتِ.. إذ عَيْنى عليها غِشاوةٌ
وإذ أتردَّى مِن سَواد الغياهبِ
وأُخْرَى على عينِ البصيرة خيَّلت
لنفْسِي هُداها بالأمانى الكواذبِ
أرى مِن تكاذيب الخيال كأننى
إلى جَنَّة الفردوس أحْدُو ركائبى

نعم، يالها من غفلة (عقوق) :

آهِ من غَفْلة إذا خَطَرت لى
ملأتنى غَيْظا وحِقْدا وخَرْبا

قــد رمــتنى فى جــاحِمٍ يَتَـلَظَّى

فــإذا مــات أرَّثْتـــهُ فــشَــبَّــا

هذا الجاحم المتلظى هو ثانى مـا يطالعك فى هذه القصائد. هذا الألم المُمِضّ الذى ألمّ به فجأة مِن حيث لا يحتسب أرَّثْته الخيـانة والغدر. والمُخاتلة إذا نالـت من رجلِ صادق يأمن لِمن أحبه كـالأستاذ شاكـر، بالغت فى نيلها وتضرّمت نيـرانها فى دمه. فالأستاذ شاكر على عنفـه وصلابته وفحولته لم يجد بُدا من أن يسلم لهـذه المرأة «العزيـزة» قيـاد عواطفـه التى تصبـو صـبواتهـا إلى كل شىء فـيهـا. ولكنه كـان يشـعر بعـد هذا الاستـسلام بقـوة ماردَة قـادرة على أن تقهـر كل ما يعـترض طريقهـا. كان معنى خضـوعه لها أنه مسـتطيع أن يُخْضِع كل الأشيـاء لسلطانه. إن إحسـاسه بحبـه لها كـان ضروبا من فنّ الروح العاشـقة. لم يكن يراها امـرأة مجردّة يحـبهـا بحرارة القلب الملتهب بالرغبة أو بالحب. كلا، كلا، لقد يجدها أحيانا فى أوهام عواطفه ومَدّها أُمًّا، فهو يريد من أمومتها المحبوبة أن تمهّد له فى قلبها تلك العاطفة الوثيرة اللينة من الحنوّ والعطف، وهو يراها مَـرَّة أخْتـا يلتـمس فى مَسّ يديْهـا، وفى نبـرات صوتهـا، تلك العاطفة السـاكنة ذات الأفياء والظلال، عـاطفة الأخت التى تضـحى فى سـبـيل أخـيـهـا المنكوب، ثم يرقى

إحساسه فينظرها أخا مـخلصاً يشدّ أزْرَه إذا انطبقت عليه قُحَم العـيش ومتـالف الحـياة، ثم هى تارة أخـرى روح من الأبوّة المسدِّدة، الحـازمة المُصَمِّـمة البليغـة، لا تزال تجد الرجلَ مهـما أناف به العـمر وشمخ ذلك الطفـلَ العابسَ الغريـر الطيَّاش، وهى مع ذلك كله الصـديق الذى يُحامِى عنه إذا تعـادت عليه الدنيا بأسرها، الصديق الذى تبقى صـداقته تطوف عليه تحرسه وترعاه. هكذا وصـفها الأسـتاذ شاكـر فى المقالة الثـالثة «إلى أين؟» وهكذا كـان ينظر إليـهـا، وهكذا كـانت بالنسـبـة له: الحبـيبـة، والأُمّ، والأخت، والأخ، والأب، والصديـق. فلا عجب أن يتحطم هذا الرجل المخـلص الوفى الأمين، ويتزايل ويتدهدى على صخور هذه الخيانة العاتية «ألستِ التى؟» :

فيـا سُوءَ ما أبقـيتِ فى الدَّم مِن لَظًى
وفى الفِكْر من كَلْـمٍ وفى القلب مِن عَضٍّ
أخافُكِ فى سِرِّى، وجَهْرِى، ومَشْهَدِى
لديْك، وغـيْـبِى خَـوف أَرْقَـطَ مُنْقَضٍّ

لم يكن يدرى أن هذه الحبـيبة والأم والأخت والأخ والوالد والصديق هى سور باطنه فيه الـرحمة وظاهره من قِبَله العذاب والشَّر والخديعة، والمخاتلة والمداهنة ملفَّفة فى حُجُب من الرقة والوداعة، واللين والبراءة «ألستِ التى؟» :

بلَى! كُنْتِ. . كنتِ السِّحْر تبدو صُدوره
مِن الخـيْر تُخْـفِي منه شَرَّ العـواقبِ
أرى الحـيَّـة الرَّقطاءَ أجـمـلَ منظرا
وألْيَنَ مَـسًّـا مِن ثُدِيّ الـكواعبِ
إذا مـا تراءتهـا العـيـونُ بريئـةً
من الخـوف خـالتهـا دُعـابةَ لاعِبِ
تدانَى إلـى اللاهِي دُنُوَّ مُـقـاربٍ
فـيـدنُو ويُدْنِي كـفَّـه كـالمُداعبِ
ألا ارْفَعْ يدًا. . واذهب بنفْسك رهبةً
فـمِنْ حُسْنِهـا نابٌ شديدُ المعـاطِبِ

زُلْزِل قلبُه زلزالاً جعله يتطامن ويتـزعزع، ويضطرب بعضه فى بعض حتـى أساء الظن بالمرأة، ورأى الخيـانة فيـها سجـية وطبعا، يقول فى نفس القصيدة :

ولكن. . رَمتْ بـينى وبينك بَعْـدَه
ضَـريبـةُ أُنْثى وهى شَـرُّ الضـرائبِ
فأطلـقتِ فى إثرى الضَّوارِى مُـجِدَّةً
تُعـانُ على أنيـابهـا بالمَخـالِبِ

تمزِّقُنى ألحاظها وعيونُها
كأنىَ أُرْمَى بالسِّهامِ الصَّوائبِ
يفزِّعُنى ظِلِّى إذا ما لَمَحْتُه
وقد غالنى رُعْبِى وسُدَّت مَهارِبى

ويعجب أن يجتمع هذا الفتك والقتل ورقة الأنوثة ولينها فى كيان واحد (انتظرى بغُضْى) :

أأُنثَى ووَحْشٌ؟! جَلَّ خالِقُ خَلْقِه
وسُبحان كاسِي الوْحش َمن رَونَقٍ غَضٍّ

هذا التناقض العجيب رمى بالأستاذ شاكر فى تنازع النفْس= غيظ ورضى، وشك ويقين، وثورة وخضوع، وحب وكراهية، لا يستقر له قرار، يقول فى. انتظرى بغُضْىِ» :

حَبَبْتُكِ والأوهام فِكرِى، وحُجَّتى
تُؤلِّب بَعْضِى فى هَواكِ على بَعْضِ
إذا ما نقضْتُ الرأى، بالرأى، ردَّنى
إلى خطراتِ الوَهْم مَضٌّ على مَضٍّ
أصارعُ أهوالاً من الغَيْظ والرِّضَى
وما يتولَّى الغيظَ فوق الذى يُرْضِى

فانظر إلى الكلمة الأولى «حببتك»، قُضِى الأمر ولا حيلة له فيه، ثم انظر إلى هذا التصارع بين الفكر وقد تسلّطت عليه الأوهام، ثم تعترضه الحُجّة بعد الحجّة بالمقارعة، فإذا قام الرأى واستوى ونصع انبرى العقل فضادّه ونقضه، وعادت الأوهام تسرح فى مساربه وتأخذ عليه منافذه، فيتأرجح صاحبه بين الغيظ المُمِضّ والغضب، ومُسْتراح الرضى.

ومظهر آخر من مظاهر الصراع هو الحب المكين الذى تغلغل فى سويداء القلب رغم كل الذل والقهر، ورغم هذا الصراع بين الوهم الضارب فى الخيال، والرأى المعضّد بنور اليقين، يقول فى «ألست التى؟»:

ألا وَيْحَها! كم بِتُّ أرقُبُ طيفها
وكم سَهِرت عينى نَجِىّ الكواكبِ
وكم طُفْتُ بالبيداء أطلبُ خَلْوَة
وأُرْسِل طَرْفى فى ضلال المذاهب
أُمَثِّلها حتى أكاد أَمَسُّها
وأُلقى إليها ما تَضُمّ جوانبى
وأشتاقها والبحر بينى وبينها
وبِيدٌ تعاوَتْ بالرياحِ الغواضِبِ

ولا تحسبنّ البحر والبيد على حقيقة الكلام والمعنى الحسّى، بل هما مجاز لهذا الموج المتلاطم فى نفسه والذى يكاد يشفى به على الغرق، ومجاز لهذا الفراق الذى باعد بينه وبينها بُعْد المفازة تتخرّق فيها الرياح من سعتها وامتدادها فيُسمع لها عواء صاخب غاضب. وهو على كل حال راضٍ، وعلى شكّه غاضّ، يَنُمّ مظهره وغَيْرته ونظراته عن حب متأصّل، ولكن يكتم ذلك الذى يأكل قلبه غير بائح به (انتظرى بُغْضِى):

لقد كنتُ أَمْضِى طائعًا غيرَ جامِحٍ
وأرضَى بإطْراقى على الرَّيْب أو غَضِّى
ويفضحُنى فيكِ اقْتحامِى وغَيْرتى
وطَرْفى، وما جَسَّ الأطباء مِن نَبْضِى
ويأكل قَلْبى ما أُكَتِّمُ راضيًا
فما بكَتْ العينُ الشبابَ الذى يَمْضى

وهى فى خلال ذلك كله تتلذّذ بما هو فيه، كما ترى فى البيت التالى للأبيات السابقة:

وأنتِ لَعَمْرِى فى سُرور وغِبْطَةٍ
يَسُرُّكِ بَسْطِى فى الحوادثِ أو قَبْضِى

والوجه الآخر لهذا الصراع هو الكراهية المُرَّة لهذه الغادرة

التى وفى لها، والثورة عليها، والتخلص من ربْقـة حبّها، فتبّاً له من حُب وتبّاً لها من غادرة (عقوق):

أَوَفاءً لغادرٍ يَتَسلَّى بِعذابى؟ تبّاً لذا الحبّ تبّا

هذه الغادرة لا تستحق غير البغضاء، يقول فى ختام قصيدته «انتظرى بُغْضِى»:

تصامَمْتِ عن قلبى، ورُمْتِ مَساءتى

وتنتـظرين الحبَّ! انتـظرى بُغْـضِى

عادت إليه تتوسل بنعومة الأنثى لإحياء ما مضى، وما دَرَتْ أنها بهـجرانها وقطيـعتها وخـتْلها قد اقـتدحت نار الإباء التى تكمن فى صَـفـاة هذه النفس الشـمـوس التى تأبى أن تَذلّ أو تتهـضّم. لم يُصْغِ لهـا ولم يقبل منهـا عذراً، فـقد تجَـسَّدتْ خيانتُها فى كيـان كل أنثى، وقد عبرّ عن هذا الوجه الآخر من الصراع الذى حـدَّثتك عنه تعبـيراً بالغًا سَلـسلا، رائق النغم، متدفقًا تدفُّق الدم الفوّار فى عـروق صاحبه، مُراوِحا بين أزمان الأفعال ليربط بين الماضى الأليم، والحاضـر الحزين، والمستقبل الكليم، وليُفْـصِح عن عزيمة حَـذَّاء طوى عليها نفسـه، أقول عبرّ عن ذلك كله فى القسم الأخير من «ألست التى؟»:

ألا لا تقـولى كـيف كُنْتِ!! فـإننى

أرى كل أنثى شَـرُّهـا غـيـرُ غـائبِ

ترومـين منّى الودَّ بُقْيـا على الذى
مضى؟!... خاب فَأْلى أن أُرَى غير ثائبِ
ترومين منّى الودَّ؟!.. تلك عجيبة!
وأَسْعَى لذَبْحِى؟! تلك أمّ العـجائبِ
تشهـيَّتِ لَحْمًـا، فأتِ مـا تَشْتهـينه
فلم يَبْقَ من لَحْـمِى طعامٌ لسـاغِبِ
تَمليَّـتُ هذا البُـغْضَ حـتـى رأيتُنى
أُربِّبُ حَـيَّـاتى وأَغْـذُو عَـقـارِبى
فـإنْ يكُ بُغْـضِى كلَّ ذَنْبٍ جنيتُـه
إليك، فـإنـى لستُ منـه بتـائبِ
وكيف... وقـد أنهكتِنى وَعَرقْـتِنى
وقُـدْتِ على قلبى جيـوشَ النوائبِ
ذَرِينى ولـكنّ الحـيـاةَ مليـئـة
بكُنَّ!... فما فى الأرض مَنْجًى لهاربِ

أرأيْتَ إلى هذا الصـراع الذى تتمـزَّع منه نفسه؟ خـرج منه مثقل الكواهل، مثخنا بالجـراح، وهى جراح ستبقى أبدا تَدْمَى

- كما سأوضح فى الصفحات التالية، ولكنه خرج أيضًا مرفوع الرأس فى تحدٍّ وإبـاء. وإذا كان فى «ألست التى؟» قـد صدَّها ورفض رجوعـها وأبى أن يواصلها شـأن المؤمن الذى لا يُلْدَغُ من جُحْر مرتين، فإنه فى محاولة المستميت الذى يريد أن يثبت لنفســه أنه قد طرحها وألقى حـبها وراء ظهره، قـد تحداها فى «عقوق»، فهو لا يخشى لقاءها، ولا سطوتها، وهو يمد إليها يد الصديق، يد رجل شامخ لم يعجـزه أن يقهر الموت من قبل (فى محاولة الانتحار) فهو على قَهْر سلطان هذا الحب أقدر:

مِلْ بنا يا فـؤادُ! نَنْسَى المَوَدَّاتِ، ونُلقى إلى العداوة حـبَّا
وتعالىْ يا ربَّةَ الأَرْقَش الخدَّاع، وارعىْ ما بين جنبى خِصبْا
وامنعِى نَفْثَة الوفا واحْجُبِيها، رُبَّ ذكرَى أضحَتْ مَواتا أَجبَّا
وانظرى نظرةَ العُـقاب إذا أبصر صـيْداً، فـرامَه فـاشرَأَبَّا
وانْفُضِى الناسَ نَفْضَةَ الأَسَدِ المجروحِ أَشْلاَءَ صَيْده والإرْبا
وتعالَىْ. . . أنا الصديقُ، ويا أعجبَ مَن يجعلُ العَداوةَ صَحْبا!
واعلمِى أننى قد تركتُ وفاَءَ الحُبِّ زُهْدا، ورُمْتُ فيك الحُبَّا
هذه كَفٌّ خائض غَـمَرات الحُبِّ أَبْلَى فيـها بلاء صَعْـبا
مُسْتَمِيتا. . . قد غالب المَوْتَ والحُبَّ، ونالَ الحياةَ كَسْبا وغَصْبا

نعم لقد غالب الموتَ وانتصر عليه، وغالب الحياة وقهرها وجعلها ظِهْرِيًّا، ولكنى لا إخال أنه فى مغالبته للحب قد علاه وأخضعه وطرحه، ولكنه مكابرة هذه النفس الأبية التى ترفض أن تذلّ وتتهضَّم، والتى حسبت أن الصراع ضد الحياة ومَتَالفها، والحب ومهاويه على سَوَاء. ولا شك أن الأستاذ شاكر قد صارع الحياة فصرعها، صحيح أنه خرج - كما قلتُ قبلُ - من هذا الصراع مُكَلَّمًا، وحيدًا ممزّق النفس، نفورا، يحيط به الشك من كل ناحية، إلا أنه خرج منه أيضًا مرفوع الرأس، موفور الكرامة، فهو يعلم كما قال فى قصيدة «أغنية المَلاَّح التائه»:

إنمّا الدُّنيا لَمن نازعها الكأسَ اغتصابا

ويؤكّد ذلك فى قصيدة «حَيْرَة»:

فصارعتُ الشجونَ وصارعتْنِى

إلى أنْ فُزْتُ بالدنيا غِلابا

هذه هى خلاصة الأفكار الرئيسية فى القصائد التى سَمَّاها «من ديوان البغضاء»، وهى لا تختلف كثيراً عن سائر قصائد الحب، والاختلاف البارز بينهما - كما أوضحت من قبل - هو أن هذه الأخيرة لا تعبر بنفس القوة عن المرارة الشديدة التى خلّفتها خيانة هذه «العزيزة».

وتتضح مرارة هذه التجربة من جَعْل كل أنثى رمزًا للخيانة وتجسيدًا للقسوة، كما رأينا فى الشعر الذى استشهدت به. ولم يملّ الأستاذ شاكر ذِكْر ذلك فى كل ما كتب إذا عَنَّ ذِكْر المرأة. يقول فى معرض حديثه عن أبى العباس السفّاح:

«وإنّ الرِّقَّة والدَّعة والجمال ولين الخُلُق تُخْفِى وراءها أحيانًا قَسْوة لا تدانيها قَسْوَة، كالذى يكون فى النساء، فإنهن قد عُرِفْنَ بين الناس بالرقة، وهنّ أغلظ أكبادًا من الإبل. وإن المرأة إذا ثارت لم يبلغ مبلغها من القسوة أَقْعَد الوحوش فى باب الوحشية، ومع ذلك ... فهى الزهرة غِبَّ النَّدَى، وهى النَّسيم فى السَّحر، وهى...»(١).

وفى مقالة «أسواق النخاسة» تناول عدة مواضيع آخرها بعنوان «المرأة والرجل» قال:

«لشدّ ما اجترأت المرأةُ فى هذا العصر! وإذا أخذت المرأة أسلحتها من الزينة والتَّطْرِية، والجمال والفتنة، وجيَّشتْ غرائزها من الحذر والحيلة، والضعف والإغراء، لم يَبْقَ للرجل إلا أنْ يستقِلَّ أو يفِرّ ... وقد أقامت وزارة الشئون الاجتماعية مناظرة بين الأستاذ محمد فريد أبو حديد والسيدة زاهية مرزوق، وكان غرضها هو «كيف ننهض بالأسرة؟» والظاهر أن

---

(١) مجلة الرسالة، السنة الثامنة، سنة ١٩٤٠، ص ٦٤.

السيدة الكريمة قد اعتقدت فى قلبها معنى «حرية المرأة» بالإصرار والتعصب، فأخذت تنتزع رجولة الرجل شيئًا فشيئًا، حتى ليخيَّل لسامعها أنه مخلوق وحشىّ منطلق من كل قيود النُّبل فهو عندها أنانىّ لا يُؤْثِر على نفْسه، وهو مَعْنًى متجسّم للفوضَى فى بيت الأبّوة والأمومة، وهو جاهل متحامل على ضعف المرأة لا يرحمها ولا يحسّ بآلامها، وهو فاجر متوقّح يستجر الأخطاء ويجنيها ثم يرمى المرأة بها ويَنْسَلّ منها.

وأنا لا أريد أن أدافع عن الرجل، ولكنى أريد أن أسأل السيدة الكريمة، ومَن يذهب مذهبها فى النساء: إذا كانت هذه صفة الرجل فى أنفسكنّ، وإذا تحدّثتنّ بمثله فبلغ الأسماع فى بيوت العقائل، فوقع فى آذان الأم والزوجة، والفتاة الجاهلة الطياشة، فاعتقدنه ومالت إليه أهواؤهن، فبأى عيْن تنظر المرأة إلى زوجها، والفتاة إلى خاطبها؟ وأىْ معاملة يلقاها الرجل بعدُ على أيديهنّ وبألسنتهنّ.

كلا يا سيدتى، إن المرأة هى تجنى أكثر الذنب، ثم تتنصَّل وهى كل الأنانية»[١].

ولم يكتف الأستاذ بوصفها بالقسوة والوحشية والأنانية، بل رماها أيضًا بالسطحية، فهذه المرأة التى تحدثت عنها السيدة

---

(١) الرسالة، السنة الثامنة، سنة ١٩٤٠، ص ١٠٣.

زاهية مـرزوق، والتى نهضت لتطالب بحـقوقهـا، ما هى إلا مُقَلِّدة تنساق وراء حضارة الغرب العفنة:

«هذه المرأة وهى فنّ الحيـاة الذى يَشْتَهِى أبدا أن يُبْـدِع حتى فى الأَذَى - ما تكاد تراها عندنا إلا دُمْية ملفَّـقة من الحضارات وبدعها، ثيـابها، زينتها، حَلْيـها، تَطْرِيتها، شعـرها، بنانها، مشْـيتها، منطقـها، كل ذلك أجنبى عنها، مُـتَكَلَّف منتزع مِن مَظاهر غانيات باريس وعابثات هوليود»(١).

ولم تنج المرأة من نقده اللاذع حتى فى تعليقه على الأبيات التى كان شيخه سيد المرصـفى ينشدها حين دخل عليه الأستاذ شاكر، وهى أبـيات نونية بالغة لأعـرابى محب لفتاته أمـيمة: دارت به الأيام فى فيافى الصـحراء ملتمسًا مـا يحقق به أمانى محبوبتـه، فلعبت به المفاوز وتقاذفته الشهـور فعاد وقد أذابت الفيافى منـه ما أذابت بقيظها وزمهـريرها، وجوعها وظمـئها، وهولها ومـخاوفهـا. فلما رأته رثًّا أشْعَث، شـاحبًا مـهزولا، أسـوأ حالاً مما عَـهِدَتْه قـبل أن يَضْرِب فى الأرض من أجلهـا وابتغاء مرضاتها، أنكرته وقد أثبتـته معرفة. فجُنَّ جنونُها لأنها محبة قد أخطأت فى رجُلها ما كانت تؤمّله وترجوه:

---

(١) الرسالة، السنة الثامنة، سنة ١٩٤٠، ص: ١٤٣.

رأتْ نِضْوَ أسفارٍ، أميمةُ، شاحبًا
على نِضو أسفارٍ فجُنَّ جنُونُها
فقالت: من ايٍّ الناس أنت؟ومَنْ تكن
فإنك راعى صِرْمَة لا تزِينها

وهنا يعلق الأستاذ شاكر على هذا الموقف بقوله «**وما أسرع ما تتنكّر المرأةُ إذا خاب ظنها وتبدّدت أحلامها، وفاجأتها الحقيقة العارية بالشيء الذى يخالف ما كانت تتوهم**». ثم يقول فى سياق تعليقه على الشطر الأول من البيت الثانى «**وكانت المفاجأة صارخة فى نفس أميمة، فلم تلبث أن غلبتها الطبيعة المتقلبة الغدّارة التى طال عهد المرأة بها...**»[1].

وفى مقال بعنوان «الأغنياء» عرض فيه كتاب المقريزى «إغاثة الأُمَّة»، وقف مشدوها أمام هذه الأسطر: ودخل فصل الربيع فهبّ هواء أعقبه وباء وفناء . . وعُدِم القوتُ حتى أكل الناس صغار بنى آدم من الجوع، فكان الأب يأكل ولده مشويّا ومطبوخا، والمرأة تأكل ولدها . . فكان يوجد بين ثياب الرجل والمرأة كتفُ صغيرٍ أو فَخِذُه أو شىء من لَحْمه. ويدخل بعضهم إلى جاره فيجد القدر على النار فينتظرها حتى تتهيّأ، فإذا هى لحم طفل، وأكثر ما يوجد ذلك فى أكابر البيوت».

---

(١) الرسالة، السنة الرابعة عشرة، (العدد ٦٩٦)، ص ١٥١٤.

فيعلق الأستاذ شاكر على هذه الأسطر بقوله «لماذا لا تكون هذه القسوة المتوحشة إلا من أعمال القلوب المُتَحجِّرة فى بيوت الأغنياء والأكابر؟ ولماذا يكون أقسى القسوة فى قلب المرأة الغنيّة، فتكون هى أعظم استهانة بجريمة أكل ولدِها الذى وَلَدَتْه؟»(١).

وواضح من هذه الأسطر أن المقريزى سَوّى بين الأب والأم فى هذه الغلظة المتوحشة، وقد راجعت كتاب المقريزى، وقرأت كل ما فيه عن المجاعات التى فرّى سُعارها أبناء مصر، فلم أجد فيه شيئًا يدل على تفرّد النساء بهذه القسوة القاسية، ولكن الأستاذ شاكر أبى إلا أن يجعلها سمة للأم، أكثر منها للأب.

(١) الرسالة، السنة الثامنة (العدد ٣٥٧)، ص: ٧٧٨.

(٥)

قصائد حُبٍّ خارج قصائد «من ديوان البغضاء»

ذكرت قبلُ أن الأستاذ شاكر أودع تجربته قصائد، سمى بعضها «من ديوان البغضاء»، وقد تحدثت عنها فى الفصل السابق وقلت إن القصائد الأخرى لا تفترق كثيراً عن الأولى، فالذى يميّزها أنها تخلو من المرارة الشديدة حيال المرأة، ولكنها ليست خِلْوا من الإحساس بالألم الناجم عن هذه التجربة، ويميزها أيضًا أن الأستاذ شاكر بثَّها آلاما أخرى من عنف ما مَرّ به فى الحياة، فهى بذلك صورة صادقة لجماع نفسه.

وأوّل ما كتب عن تجربة حبه هى مقطوعة بعنوان «نفثة قديمة» وقد سبق الكلام عليها، وأزيد هنا أن الأستاذ شاكر فى أول تعبير له (يناير ١٩٣٦) عن مأساته، يظهر بمظهر المتجلّد الذى يكتم ما يختلج فى صدره، ولو حزَّ هذا الكتمانُ النفس والقلب حزَّ السكين. ولا نرى ذكرا للمرأة التى يحبها ولا طبيعة العلاقة بينهما، ولا إذا ما كانت تكِنُّ له مثل ما يُسِرّ. ولكنه بعد أشهر قليلة انطلق لسانه من عقاله فنظم قصيدة انتظرى بغضى (وهى من ديوان البغضاء)، يونيو ١٩٣٦، وقد مضى الحديث عنها، وبعد ذلك بشهر أو نحوه نظم قصيدة

«حَيْرة»، ١٧ أغسطس ١٩٣٦، وعنوانها دالّ على ما يتخطَّفه من الحزن والأسى والاضطراب والبَلْبَلَة: أشاب قلبه وهو فى غُلْوان الفتاء، أم عافى الشباب وهو فى أوج الصِّبا؟ استنزف الزمان قُواه فآفض شيخًا هِمًّا، ينوء تحت أثقال المُلِمَّات، أسيرًا فى يد الدنيا الغشوم لا يستطيع منها فِكاكا. وأظن ظنًّا أشبه باليقين أن الآلام التى عاناها من تباريح الحب ألقتْ ظلالها على بعض أبيات هذه القصيدة يقول:

وأصبح فى يد الدنيا أسيرا
إذا رام الفِكاكَ وَهَى وخابا
كما علق الحِبالَة ذو جَناح
ولم ينفعْه أن صَحِب السحابا
فصفَّق ثم رنَّق ثم أعْيا
يَحِنّ لداره جَوّاً وغابا
أَمِنْ عَدْل الحوادث أنْ أُضَرَّى
لأطْعَمَ إثْرَ لذتهنّ صابا

رأينا فى تحليل قصائد «من ديوان البغضاء» مثيلاً لهذه الصورة التى تتضمنها هذه الأبيات: وقوعه فى أَسْر الحب، ومحاولته عبثًا أن يمزق شباكه ليعود حُرّاً طَليقًا كما كان، وما

أشبهه بهذا الطائر الذى وقع فى حبالة الصائد، فجهد ليخلص من شباكه أى جهد. ولكنه وهَى وخاب، فسقط مستسلمًا، ولم يُجْدِه ما كان من تحليقه فى أجواء السماء الفسيحة، يعلو قُنَن الجبال. والبيت الأخير من هذه الأبيات يضىء جنبات هذه الصورة فتبرز واضحة رأىَ العين فما هذه «اللَّذَّة» الذى طعمها الأستاذ شاكر إلا لَذَّة الحب، أعقبها صابُ الفراق.

امتزج أسى الحرمان من لذة الحب، بآلام هذه الدنيا الختول فزلزلت أعضاده التى يقوم عليها وغذت قلبه الارتياب والشكوك. وأنا أزعم أن القسم الأول والثانى من هذه القصيدة، وإن تقنَّعا بالشكاة من الدهر المخاتل، هما فى الحقيقة تعبير عن هذا الصاب الذى ذاقه بعد جَنَى النحل، كما وضحّت فى سردى للأبيات الأربعة السابقة. يقوّى هذا الفرض أن القسمين الأخيرين من هذه القصيدة تتحدثان عن فراق الأحبة وكيف بانوا، وإن ألقى اللوم فى ذلك على الزمان الذى سلبه «الأَحِبَّة» بعد أن تمتَّع بهم مُلاوة من الدهر:

هى الدُّنيا .. تُفَرِّقُ ساكنِيها
وفى الذكرَى ... تَزيدهمُ اقترابا
ألا لا تعجبى لى مِن نَحِيبى
فإنَّ أمامنا العَجَبَ العُجابا

ثم نظم الأستاذ شاكر قصيدة «عقوق» بعد ذلك بشهرين ونشرت فى ٩ نوفمبر ١٩٣٦ وهى أيضًا «من ديوان البغضاء»، وقد مضى الحديث عنها، وبعد ذلك بشهرين نشر «ألست التى؟» فى ١١ يناير ١٩٣٧، وهى أيضًا «من ديوان البغضاء» وقد سلف الكلام عنها.

ثم مر عامان لم ينشر الأستاذ شاكر فيهما شيئًا من شعره، ولا أقول: لم يكتب، فذلك شيء لا أدريه ولا أحققه. ولكن الواضح البين أنه بعد انقطاع عامين نشر قصدة بعنوان «رماد» فى ٢٥ ديسمبر ١٩٣٩. وعلى الرغم من المعنى الذى أراد بهذه الكلمة فى البيت الثانى من القسم الأخير فى هذه القصيدة، فالعنوان يدل والقصيدة تثبت أن تحت «الرماد» وميض جمر لم يخمد، وأن نار الحب ما زالت تتأجج وترسل شواظها فى قلبه ودمه، وأن أُوارها لم يخمد قط وأن ما ذكره فى ديوان البغضاء من قهر هذا الحب وطرحه ليس إلا مكابرة نفس أبيَّة. فى القسم الثانى من هذه القصيدة يصور جنة الخلد الذى صيرته إليها هذه الحبيبة بقُربها، ونور حُسْنها، وعطر أنفاسها، وحلاوة أنغامها، وقد استشهدتُ بأبيات منها من قبل، فارجع إليها. أما القسم الأول فكله شكاة ولوعة، يقول:

لا تَعْبَثى بفؤادى

وأكْرِمى آلامِى

شَــبَّــبْتِ فى القلب نارا
مِن لَوْعَــةٍ وهُيــامِ
أَضْلَلتِنى عن حيــاتى
بِلَذْعَــةٍ واحــتدامِ

وتمكن منه هذا الإضلال حتى صار فى مَهْمَهٍ من شكوك، تضل فيه خطى الأقدام وخاطرات القلوب، فاستوى الليل والنهار ظلمة ووحشة، وأَدَعُ الأستاذ شاكر يتم ما أحسّ به:

وعَدتُ فــردا وحــيدا
يَجُــوب غَــوْلَ المَوامِى
حــيرانُ أَعْــمَى عَــجُــول
مَــصَــوَّرٌ مِن ســقــامِ
يكاد يعــثــر وَهْنًا
بنفــســه فى القــيامِ
تخطَّفــتــه شكوك
جَــيَّــاشــة كــالضِّرامِ
لم تُبْقِ إلا حُطامــا
يَنقَضُّ فــوق حُطامِ

أرأيت إلى ما ذكرتُ فى كلامى عن «من ديوان البغضاء» أن الأستاذ شاكر لم يستطع قطّ - رغم ما ادَّعى - أن يُفلت من إسار هذا الحب وكُبُوله، وأرأيتَ أيضًا إلى ما قلت هناك أن قصائد غير «من ديوان البغضاء»، لا تحمل هذا الهجوم العاتى على خيانة الأنثى، وإنما هى اجترار لآلام هذه التجربة القاسية يضاعف من حِدَّتها أحيانًا امتزاجها بقسوة الزمان وتجهمّه.

بعد ذلك بعام تقريبًا، سنة ١٩٤٠ نشر الأستاذ شاكر قصيدة من عيون شعره بعنوان «اذكرى قلبى» مطلعها:

اذكرى قلبى . . فقد يَنْضَرُ مِن ذِكْراكِ عُودِى

وهى سبعة أقسام على رَوِىّ واحد، يتكون كل قسم من خمسة أبيات ثم يختمها جميعًا بنفس بيت المطلع، ومن ثم يتكرر بيت المطلع مرتين فى القسم الأول، وجميع الأقسام السبعة تحكى آلامه يحدوها أمل ورجاء يتمثلان فى هذا البيت الذى افتتح به القصيدة، ثم جعله ختامًا لكل قسم. وواضح من بيت المفتتح أن «عُودَه» قد ذَبُل وجفّ، وكل ما يرجوه أن تذكر حبَّه لها، فلعل هذه الذكرى تبعث الحياة فى موات تجاليده. وقد أدار جميع الأقسام السبعة على هذه الصورة، فافتتح كلًّا منها بعد القسم الأول بقوله «أنا غُصْن»، بل ذكر ذلك أى «أنا غصن» فى القسم الأول بعد المَطْلع، وهو غُصْن

فى رياض مُؤْنقة، ولكنه دون كل الأغصان حُرِم ماء الحياة فصوّحه العطش، واشتدت غُلَّته، وصارت نارًا تلتهم ما على هذا العود الذاوى من زهر صار على الأرض لَقًى. وهو غصن يَنْحنى فى وَقْدَة الهجير، سَلَّت عليه الشمسُ أشعةَ قَيْظها، فلوَّحتْه وَصوَّحتْه فَجَزَر ما استمسك به من الماء، فَغاضَ، فصار ناحِلا قَضِيفا، بين هذه الأغصان الرَّيانة، فبلغ به الخوف كل مبلغ حتى كأنه طريد سُدَّت عليه منافذه يخال كل شىء منتصبًا خيال سيف يكُرّ على أثره. وهو غصن يأمل أن يصيب ريًّا ولكن آه! ما أبعد هذا الرِّى لاح له من بعيد، أَسَرابٌ هو؟ أم ماء بَرودٌ؟ لما لا يسعى إليه، ولكن كيف يَسْعى وقد جهد وضعف. وهو غصن حائر، كرجل غريب، ناءٍ شريد، قذفت به الغُرْبة إلى أرض الجحود، ضل فى جنباتها فصار فيها سجينًا فى قُيود، يغدو فيها ويروح تمزّقه أنياب الخمود، وهو غصن إذا لفَّه الليل الركود، استحث الفجر ليُلقى سُدْفَة الليل البهيم، فطلعت الشمس ولكن الأحزان لا تبرح ولا تريم. وهو غصن فارقته الطير، تنأى بنفسها عن هذا الموات، وتسكب ألحانها فى نَوْر الزهور، ألحانًا كوقع الغيث على سَرارة الرياض، فترجّعها ضحكات الحياة والشباب فتضيع فى صَخبها المَرِح أنّاتُ ذلك الغصن الحسير.

هكذا وصف الأستاذ شاكر نفسه فى الأقسام الستة الأولى، وما يعانيه من هذ الحب الذى توهّم أنه انفك طليقًا من قيوده، ولكن خاب فأله، كما ذكر فى شعره، فإنه عاش يعانى مرارة الحرمان، والوحشة والانفراد، عَبْدا فى أَسْر هذه «العزيزة»، أو كما قال:

قَذَقَتْنِى هِمَّةُ الأحرارِ فى ذُلِّ العبيد

أما فى القسم السابع والأخير فهو يقارن بين حاله وما آل إليه وبين حال هذه «العزيزة» وما أصبحت فيه، فهو غصن عار، ليس عليه أو فيه شىء، أما هى فأغصانها «فى بُرْد جديد» ألقتْ ما كان عليها وتخلَّت، وقطعت ما بينها وبين الماضى، فهى تعبّ من سكَر الحياة ومن نشوة الشباب، فتأوّد عودُها، وضحك ماء الشباب فى نُور خُدودها. ويختتم الأستاذ هذا القسم بقوله:

فإذا النَّشْوَةَ هَزَّتْكِ بأنفاسى ... فَمِيدى
وإذا غَنَّاكِ ساقِى الطيرِ لَحْنِى أو قصيدى
فاذكرِى قلبى.. فقد يَنْضَرُ مِن ذِكْراكِ عُودِى

وهى أبيات تفيض ألمًا وحسرة، وشكاة من هذه القسوة التى لا تبالى بما خلَّفت من دمار، بل والتى تستمتع بما فعلت به

أفعالها، يُسْكِرها ما تراه من عذابه فى حبها فتميد نشوة وطربا وخيلاء وسرورا.

وفى نفس السنة أيضًا ١٩٤٠ نشر الأستاذ شاكر قصيدة بعنوان «تحت الليل» مطلعها:

أَهِيمُ وقلبى هائمٌ وحُشاشتى
تَهِيمُ فهل يَبْقَى الشَّقِىُّ المُبَعْثَرُ

فانظر إلى هذا الهيام: هيام نفسه وهيام قلبه وهيامه داخله أجمع، فأين المَفَرُّ، كَلاَّ لا وَزَر، وليس ثمَّت مستقَرّ، فهو ضالّ فى فيافى هذه الدنيا الختول، فلا هى تُقْلِع عن صروفها، ولا هو يستكين لِما تأتى به، تزيد النارَ فى دمه استعارا، اجتمع عليه ظلم «العزيزة» وجَوْر الحياة، وزادا من عذابه بهذه الأضاليل من سِحرهما وفتنتهما آنًا، فهَوَى إليهما مُستهاما مُسَحرًا. وإذا كانت نَفْسُه النَّفور قد ردَّته عن هذه الدنيا بخيرها وشرها، فإن قلبه مثَّل له الحبيبة بكل مكان، فرضاها عنه بَرْد وسلام، وطيف خيالها يستلّ من ليله الهموم، ويضىء جَنَبات ليله المُدْلَهِمّ. وما منعتْه يَقْظى ضنَّت به فى النوم إلا قليلاً، فلم يكن بقاءُ زَوْرها إلا «بقاء ربيع الزهرْ أو هو أَقْصَرُ» سَرَت فى دمٍ يَغْلِى، تسمع له فى الليل صليلاً من اندفاقه:

فهل تَرْحَمُ الأيام، أو تَهْدأ المُنَى؟
أَبَى حُبُّها إلا شقاءً يُدَمِّرُ

فختم القصيدة كما بدأ، بقسوة الأيام، وشقْوة الروح بسراب الأمانى فلا شىء إلا الشقاء والدَّمار لهذا «الشَّقِىِّ المُبَعْثَر».

وفى نفس العام ١٩٤٠ نشر قصيدة بعنوان «الربيع»، لم يدرج فيها مَدارج الشعراء فى صفة هذا الفصل من فصول السنة كما تجد فى ميمية البحترى وهمزية صفىّ الدين الحِلّى وغيرهما من مئات الشعراء على مر العصور. لم يَرَ فيه إلا مباهج الحب الذى حُرِم منه، فافتتح القسم الأول بقوله:

أَيَّامُه كالغِيد، نَضَّرَها
تَرَفُ الصِّبا وغَضارةُ الحُبِّ
زُهْرٌ نواعِمُ، فى نَضارتها
سِحْرُ الحياة وفِتْنَة القَلْبِ

فلم يذكر من الربيع إلا أيامه، ثم جعلها فى لمحة خاطفة كالغيد الحسان الزُّهر النَّواعم، تبعث بنَضْرتها سِحْر الحياة، وينساب عبيرُها بريّا الحُبِّ، وتسبى بدلالها أصحاب الصَّبْوَة، فتُذْكى غرام الهائم، وتُدْنى منه خيال الحبيب، فتُرِيح أشواقا، وتروى أظماء. هذا هو الربيع الذى يراه، ولكنه:

هـذا ربيـعُ النـاس واحَـــــزَنِـى!

وربيـــعـىَ الأشـــواكُ فى قَلْـبِى

هكذا بدأ القسم الثانى من القصيدة، مُصـورًا ربيعه المملوء بالأشـواك لا بالـزهر والورود، وهى ليـست أشـواكًا على غـصونهـا، ولكنها مـغروزة فى قلبـه، افتـقد مـرح الشبـاب وغضارة الصِّـبا، وناء بأحماله من ركام الخطوب، فهـو كشيخ هِمٍّ فى ربيع مُقْـفِر جَدْب. هذا الربيع الذى ابتـعث الحب دمًا فَوارًا من ينبـوع قلوب أقرانه، فسـعدوا ونعمـوا به وقَرُّوا، لم يُفِضْ عليه من نوره وجـماله إلا الشك والحيرة والفـزع فأماته وإن ظل يَسْعَى على قدمـيْه بين الأحياء. ثم يصـمت الأستاذ شاكـر ثلاث سنوات بتمامـها، ينشر بعـدها فى ٣١ مايو سنة ١٩٤٣ قصيدة بعنوان «تحت الأنقاض»، وفى السنة نفسها نشر قصيدة فريدة بعنوان «الشجرة: نـاسكة الصحراء» وسأفرد لهما حديثًـا، بعد أن ننتهى من النظر فى آخـر قصيدة حُبّ نظمـها وهى «لا تعـودى». وكمـا قلتُ قـبلُ لم أستطع تحـديد زمن كتابتها، فلم تنشر إلا بعد وفاته رحمه الله، كما مرَّ فى المقدمة ولكنى رجحت - ولا أزال إلى هذا الرأى أميل - إنها آخر ما نظمه عن هذه «العزيزة» فى أواخر الأربعينات.

تتكون قصـيدة «لا تعودى» من خـمسة وعـشرين قسـمًا،

ويتألف كل قسم من أربعة أبيات، ويختلف رَوِيّها من قسم إلى آخر، ولكنها جميعًا تُخْتَم بنفس البيت مع اختلاف يسير فى الكلمة الأولى منه. وإليك أول قسم فى القصيدة:

لا تَعُودِى .. أَحْرَق الشكُّ وُجَودى .. لا تَعُودِى
اذهبى ما شئتِ .. أنَّى شئتِ فى دنيا الخلود
واتْرُكى النارَ التى أَوْقَدْتِها تَقْضِمُ عُودِى
هى بَرْدٌ وسلامٌ يَتَلظَّى فى بَرودِى
فاسعدى فى شِقْوَة الرُّوح .. ولكنْ .. لا تَعُودِى

ذكرتُ أن أول شعر عبّر فيه الأستاذ شاكر من تجربته تعبيرًا مكتمًّا هو «نفثة قديمة» فى يناير سنة ١٩٣٦، ثم باح به فى غير تكتُّم فى أول قصيدة من ديوان البغضاء، وهى انتظرى بُغْضِى فى يونيو ١٩٣٦ ورأينا فى كل قصائده التى عرضنا لها هذا الصراع بين وقوعه فى أَسْر حُبّ هذه المرأة، ومحاولته اليائسة فى التخلُّص من شِباك هذه الحِبالة، ولكن لا مَناص، قذفت به هِمَّة الأحرار فى ذُل العبيد. وبعد قرابة أربعة عشر عامًا ما زال قلبه يتمزَّع، يحرقه الشكّ، وتتلظى النار فى عروقه. ويقابل الأستاذ شاكر فى هذه القصيدة أكثر من غيرها بين المتضادين، ليُبرِز حيرته وعذابه. أأريت إلى هذا البَرْد

والسلام اللذيْن يتلظيان فى جسده، أأريت إلى سعادة هذه الحبيبة فى شِقْوَة الروح، أأريت إلى هذه الأقدار التى تأتى بيقين خائن فى أثْر شك، وإلى هذه الحبيبة التى هى شك مجسّم فى إثْر يقين من هذا المخدوع، وحيرته بين ذاك وذاك:

وأنا سائِلكُ الحيرانُ عنهنّ وعنكِ

هذا اللظى هو زاده، فهل ينفعه «زاد مُميت»؟ إذا مَرَّ بهذا اللظى رَوْح من وَجْدِه أيحييه أم يُميته؟ هذا المحب المستهام كالنار تغشّاها رماد، لا يدرى ما الذى يحييه، أحديث منها؟ أم صمتها المُعاد؟ أهجرها مع قربها أم بعادها وقطيعتها؟ أهو حىٌّ حقًّا أم ما حوله من جَماد؟ دبّ الشوق إليها فى رُفاته ففجّر أغمض ما أخفى فى جوف صَفاته، فناجاها يحن إلي جمالها وسحرها، ويشكو إليها ألمه وحرمانه، فإذا نجواه وَرْد، أما شكاته فأشواك. كل ما يُخيِّله إليه قلبُه عنها من الأوهام، فإنما هى حَقٌّ فى يقينه، وما خاله من الوَجْد والصَّبْوة والآمال، فإنما ذلك نَبْع من ظنونه. وتبلغ به الحيرة مَداها، فيقول:

أنتِ إيمانىَ .. بل كُفْرِىَ .. بل أنتِ جُنُونى
أنتِ .. لا أنتِ ..

وإذا بلغ الأمر بالإنسان أن لا يفرِّق بين الكفر والإيمان،

فذلك غاية التمزُّق والاضطراب، والحيرة والضياع ثم انظر إلى قوله «أنت لا أنتِ . .»، فقال «أنتِ» ثم سكت، وجعل النقط علامة الوقف والسكوت، وهَمّ أن يصفها بشىء، ثم أَقْلَع وقال «لا أنتِ. .» وكأنه همّ أن يصفها بغير ما أراد قبل، ثم سكت مرة أخرى إنه لا يدرى كيف يقول:

أَيْنَ؟ . . لا أَيْنَ! . . ضَلالٌ . . بل خِداعٌ . . بل هُلُوعُ

فحيرته فى أمرها عَجَبٌ، ،حيرته فى اصطباره وطول انتظاره عجب عُجاب، هى حيرة الذَّرّ بمجهول القفار، نملة من صغار النِّمال فى متاهات الصحارِى، حرّقتها وَقْدَةُ الهجير، تبُثّ همومها لليل البهيم، فلا الماء يرويها من حَمَّارة القيظ، ولا الموت يواريها مما تقاسيه. وهذه الحيرة ولَّدها الشك والارتياب، رَمَتا به فى عزلة ليس له فيها صحاب، سوى صُمّ الأفاعى والضوارى، تنهش الأولى فى روحه وتمزق الأخرى منه الإهاب، فتفيض أشواقه دماء . . آه من ذلك الشك الذى حببَّه إليه إيمان بغيض، إيمان بخداعها ومخاتلتها.

وكما «أنس» بالعزلة، «أنس» بالليل، والليل اكتئاب وارتياع، وظلمات صَمْت لا ينفذ فيها شعاع، و:

حَسْرَةٌ تُطْوَى على أخرى . . وهَمٌّ وضَياعُ

وهذا النجم هل له أن يسطع فـيبدد هذه الظلمـات ويَهْدِى هذا الحيران فى مَوامِى حياة ضاعت فيها مناه:

اهْدِنى .. أو لا .. لقد ضِعْتُ .. فغِبْ يا نَجْمُ إنِّى
لا أبالى ..

ولكنه هو والنجم سواء، فـساعاته الحلوة التى يقضـيها فى الذكرى يهجم عليها الواقع المرير فتعقبها ساعات وساعات من الألم والحسرة، والضياع والحيـرة، كالنجم يسطع ينير السماء، ويبدّد الظلام، ويؤنس وحشة السـارى، ثم يغشاه بياض النهار فيخبو، ما أشد هذا البيان اقتدارا، فهذا «الواقع المرير» لا شك فيه، ساطع سطوع النهار إذا ارتفع:

هكذا السَّعْدُ .. إذا ما لامَه نَحْسٌ مُتاحُ

وهذه الذكرى لم لا تهلك كما هلك الماضى الذى ابـتعثته؟ إذا انقضت ساعاتـها انقضت كأنها لم تكن، كانسـياب الحيَّات فى كهوف الزمن، فـأرته نشوة القلب قد مازجـها سُمّ الفتَن، سُمّ هذا الماضى الذى لم تُجْدِ فيه الرُّقَى.

آن أن تذهب هذه «العزيزة» وذكراها إلى غير رجعة:

واذكُـرا أنـى على حَـربكمـا لستُ بـباقِ
ذكِّريها، واذهبى إن شئت .. لكن .. لا تَعُودِى

ويعقب هذين البيتين القسمُ الثانى والعشرون، وهو نفس القسم الأول، كرره مرة أخرى، فانتهى كما بدأ بعزم عنيد على أن يقطع ما بينه وبينها كما صرمت هى حباله. وقد أتاح للأستاذ شاكر الشكلُ الذى اتخذه للقصيدة على إبراز هذه العزيمة وتأكيدها، فكل قسم كما قلت ينتهى بنفس البيت مع اختلاف يسير فى كلمته الأولى يمليه ما عالجه فيه ولا يفوتك مغزى كلمة «لا تعودى» الذى بدأ بها المطلع ثم ختمها به.

لا تعودى .. أَحْرَقَ الشكُّ وجُودى .. لا تعودِى

وارجع إلى القسم الأول الذى استشهدتُ به هنا، فستجد - بعد بيت المطلع - البيتَ الثانى مستهِلًّا بقوله «اذهبى..»، ذهابًا لا رجعة فيه، فهذه النار التى تأكل قلبه قادرة على أن تأتى على حبها وما بقى من ذكراها:

فأنا النار .. وكالنار ارتيابى واشتعالى

لا أبالى.. فاذهبى إن شئتِ..لكن .. لا تعودى

وقد وفى الأستاذ شاكر بما وعد، فلم يذكرها بعد ذلك فى شعر أبدا.

أرجو أن أكون قد وضَّحت هذه التجربة الذى مر بها الأستاذ شاكر، وإن صح ما ذكرته - وهو صحيح إن شاء الله - فإننا نكون بإزاء شعور صادق، نابع من آلام حقيقية، وليست مستمدة من وَهْم الخيال. وأنا أزعم أنك لن تجد شاعرًا

في الأدب المصرى الحديث فى هـذه الفتـرة التى نظم فـيهـا الأستاذ شاكر أشعـاره عنى ما قال، ولم يكن شعره هروبًا من واقعه الاجـتماعى أو السياسى كـسائر شعراء عصـره، خاصة جماعة المهجر، وجمـاعة أبولّلو باستثناء إبراهيم ناجى وحسن كامل الصيرفى، حتى شعر سيد قطب الذى يقول عنه صديقنا الناقد الشاعر القدير الدكتور أبو همام فى كتابه النفيس «شعراء ما بعد الديوان» إن صاحبه «عاشق حتى النخاع» لا يرقى شعره إلى مُرْتَـقَى شعر الأسـتاذ شـاكر فى صـدق تجربتـه، وحرارة عواطفه، وصـراعه اليائس عبر سنين عـديدة فى التخلص من شبـاك هذا الحب الذى ملأ حـياته شكـا وعذابًا وحيـرة وألمًا. ولكنه عذاب رجل قوىّ النفس، شَهْم مُدِلّ، يبكى ويتألم لأنه بَشَـر، ولكنه لا ينهـار رقـة وتطرية، بل هو ثائر على نفـسـه لوقـوعـه فى شىء لا يسـتطيع منه خـلاصًـا، حـتى فى هذه القصيدة الأخيرة - التى لم يتمنَّ فيها على الإطلاق أن ترِقّ له هذه الحبيبـة، بل جاهرها بعزمه عزيمة حَـذاء على طرحها من حياته طَرْحا - لا يملك إلا أن يقول:

أنا فى الـرِّقِّ أُعـانـى ثورة الحُـرِّ العَنيـدِ
أتحـدَّاك .. ولكنـى ذليل فى قـيـودِى

******

(٦)

ذكرت من قبل «أنّ الذى زلـزل كيان الأستاذ شـاكر حادثان جليلان، أولهـما: فسـاد حياة أُمّتـه من كل وجه، وثانيهـما: ابتـلاؤه بخيـانة من أحب، وامـتزج هذان الحـادثان فى نفسـه وسريا فى دمه وفى أنفاسه واستقرا فى غور عظامه».

وقد بدأت بالحادث الثانى وفصّلت الكلام فيه فى الصفحات السابقة لأن أكثر شعره تعلّق به سواء الذى وَسَمَه بـ «من ديوان البغضاء» أو الذى لم يَسِمْه وجرّت دارساتُ هذا الحادث ذيولها على وجه حـياته، فأصـبح يشك فى كل شىء ويرتاب من لا شىء، وأصبح شارداً أبـداً يستأنس بالوحدة والوحـشة، وينفر من الأَنيس، يقول فى قصيدة «رماد» التى نظمها سنة ١٩٣٥:

أرتَابُ حَـتَّـى أرانِى ... فى حَـيْـرةٍ وظَلامِ
فى مَـهْـمَـهٍ مِنْ شُكوكٍ ... قَـفْـرٍ من الأَعْـلامِ
لا أهتـدِى لِـنَجـاةٍ ... فى أُفْـقِـه المُـتَـرَامى
اسْـوَدَّ ليْلِى، وصُبْـحِى ... مُلـفَّفٌ فى قَـتَـامِ
فـلا أرى من دَلـيلٍ ... يَهْـدى خُطَى أقـدامى
صَحِبتُ نَفْـسِى، ونَفْسِى ... من صُحْـبَتى فى ضِرامِ
كـأنَّـنا فـى زِحـامٍ ... يَرمـى بنا فـى زِحـامِ
مُـجَـرَّحَـيْنِ كُـلُـومًا ... مِنْ صَـدْمَـةٍ ولِـطامِ

وأمـا الحادث الأول، فـما هو بحـادث فقط، ولكنه أيضًـا استـجابة الفنان ورؤيته له. وقـد نقلتُ فى صدر هذه المقـدمة شيئًا من كلام الأستاذ شاكـر عن إحساسه بفساد المناهج الأدبية والاجتماعية والسياسيـة الدينية التى كانت تطغى يومئذ كالسيل الجارف، يهدم السدود ويقوض كل قائم فى نفسه وفى فطرته، فطوى نفـسه على عـزيمة حـذَّاء أنْ يبدأ رحلة طويلـة جدًا، وشاقة جدًا، منفـردًا وحيدًا، يكشف عن تدليس المدلسين من أبناء أمّتـه، ومكْرِ المستعـمر وخُبْثِ جـبِلَّته، ويغمـر بنور بيانه شعبًا هَمَّ أن يُفيق من غَـفْوَته، ولكن هذا النضال نال منه بقدر ما أنـاله، فآب منه مكلَّمـا مجـروحًا، يائسًـا حزينًـا، شقـيًّا محرومًـا، سلبته خيانةُ الحـبيبة دفء الحيـاة، ولذات الشباب، وسكرات الصبا، ونقصته الحـياة نصيبه الموفور مما مَنَّت به على كل ناقص محقور، يقول فى قصيدة «حيرة»:

أفى وَهَجِ الشَّبَـابِ أَعــودُ هِـمّا
يذودُ بضـعــفـه النُّوَبَ الصِّـعَـابا
وأُطْرِقُ للـحــوادثِ مُــسْــتكـينًا
كـجـانى الشَّـرِّ يـنتظرُ العِـقَـابا!
وأُصــبحُ فى يدِ الدنـيـا أسـيـرًا
إذا رَام الفِـكاكَ وَهَـى وخَـــابا!

جــزاكِ الله من دنْيَــا خَــتُــولِ

غَـــذَوْتِ القَلْبَ شَـكّا وارتيـــابا!

وإذا كان الأستاذ شاكر قد أبان فى قصائد «الحُبّ» وَقْع ذلك فى نفسه فـإنه فى القصائد الأخرى - مـثل «اعصفى يا رياح» التى سـبق الحديث عنهـا و«من تحت الأنقـاض» و«الشجـرة: ناسكة الصــحراء»، بل وفى قـصيدته «وعـد» التى نظمـها فى كلب كان يملكه المرحوم مـحمود حسن إسماعـيل - قد استل سيـفه هاويًا به على الفســاد الذى استشرى فى جـميع نواحى الحياة فى عـصره التى هدمت بنيانه بقدر ما هدمـها، وهذا ما يميـز هذه القصائد الأربع، فـهى وإن نضحت بنفـحات الألـم المحرق، فقد كالت الصاع صاعين لأناس يفُوقهم كلبٌ مهزول ساغِب ظامئ العينين واسم هذا الكلب «وعد»، لا أدرى على وجه التحقـيق أسمَّاه الأستاذ شاكر ذلـك، أم جعله له الأستاذ محمود حسن إسماعيل، وأيًّا كان الأمر، فالاسم مُوحٍ، يتعلق بشىء فى ضمير الغيب يكون أو لا يكون، يعبر عن قلق مالك الكلب. وكذلك كـان الأستاذ محـمود حسن إسماعـيل رجلاً قلقًا متـوفِّزا لا يستقر لـه قرار، وقد أحسن الأستـاذ شاكر كل الإحسان فـى تصويره فى القسم الأول من القصـيدة، والذين عرفـوا الأستاذ محـمود حسن إسمـاعيل عن قرب سيـجدون

صورته بكـل ظلالها فى هذه القـصيدة لا ينقص مـنها شىء، وهى حرِيَّة بدراسة مستقلة، ولا عجب أن وصفه الأستاذ شاكر مادحا فأحسن وأجاد، فإعجاب الأستاذ شاكر بالشاعر إعجاب قديم، ألمح إليه دون ذكر صـريح فى مقال بعنوان «منهجى فى هذا الباب[1]، فقال «أما الشعر والشـعراء وما يلوذ بهما، فأنا حين أُغْمِض عينى لأجـمع علىّ خيالى ورأيى وفكرى، أنتهى إلى مثل الغيبـوبة من الحسرة واللهفة والألم. فقـد فرغ الشعر من بيانه ومعارضه وصاريته الفاتنة، ووقع إلينا أوزانًا تتخلَّج بما تحمل تخلَّج المجنون فى الأرض الوَحِلة، ومـا أظنه يعتصم فى هذه الأيام بشـاعرين أو ثلاثة ولـكل منهم مذهب. وكلٌّ قـد قذفت به الحـياة فى مهنـتها وابتـذالها حتى صـار أكثر فـراغه مُسْتَهْلَـكًا على صناعة أو وظيفة تطعمه العـيش وتحرمه لذَّته. ومع ذلك فهم يقـولون ويتكلمون والسامعون ينـصرفون عنهم لسوء رأيهم فى الشعر الحاضر أولًا، ثـم لكثرة ما يسمعون من كلام لا يـحرِّك عاطفـة لأنه لا يصـدر عن عاطفـة، وما زال يتوالى عليـهم، حتى إنهم لا يكادون يعرفون الشـعر إلا هكذا ثقيلاً غثًا باردًا، فكيف لا ينصرفون عنه، ومن الذى يرضى أن يحمل نَفْسـه إلى «ثلاجة» وهو يُعَدّ فى العقـلاء فكذلك ضاع شعر هؤلاء الثلاثة فى غثاثة الكثرة».

(١) مجلة الرسالة، السنة الثامنة، ١٩٤٠، ص: ٢٤ - ٢٦.

وبعد ثماني سنوات[1] عاد الأستاذ شاكر مرة أخرى إلى ذكر هؤلاء الشعراء الثلاثة، فقال «إن أكثر شعر العصر العربى الحاضر قد انحطّ وضعف وسقط، لأن أكثر الشعراء قد بلغ منهم العيب مبلغًا أفسد كل ما يعتدّ به من آثار الشاعرية . . . ولكن بقى لشاعرين أو ثلاثة ما يمكن أن يلحقهم بأهل المرتبة الأولى من الشعراء العبقريين». ثم أفرد الكلام عن شاعر واحد فقط وهو الأستاذ محمود حسن إسماعيل، فقال «وأحد هؤلاء الشعراء الذين سيدفعون أنفسهم فى مجاز العربية حتى يبلغوا المرتبة الأولى - فيما نتوهّم - هو محمود حسن إسماعيل، فهو إنسان مرهف الحسّ، مشاعره رقيقة، متوهّج النفس، سريع التلقى للمعانى التى يصوّرها له إحساسه، وإن إحساسه لينشئ له من هذه الصور والمعانى أكثر مما يستطيع أن يطيق صبره، وهو إذ فقد الصبرَ على مطاولة هذه المعانى من إحساسه، تراه يثب وثبًا من أوّل المعنى إلى آخره لا يترفّق، كأن فى إحساسه روح قنبلة»[2]. ثم حلل الأستاذ شاكر قصيدته المعروفة فى زلزال الأناضول ووصفها بأنها «قصيدة فذّة».

(١) الرسالة، السنة الثامنة، ١٩٤٨، ص: ٣٤٤.

(٢) اهتدم الدكتور محمد مندور هذا الرأي، فقال عن محمود حسن إسماعيل «إنه شاعر وحشىّ الطاقة الشعرية عنيفها ولكنه فيما يبدو غير مالك لزمام نفسه ولا مسيطر عليها». وشتّان بين القولَين فى النظر والبيان. انظر «محاضرات فى الشعر المصرى بعد شوقى»، الحلقة الثالثة، ص: ١٠٠، نشر جامعة الدول العربية، القاهرة ١٩٥٨.

والأستاذ شاكر معجب أيضًا بمحمود حسن إسماعيل الإنسان. وقد قابلته مرارًا في بيت الأستاذ شاكر منذ سنة ١٩٥٩ إلى أن توفى رحمه الله، أعنى الأستاذ محمود حسن إسماعيل. وكان الأستاذ شاكر يثنى عليه شاعرًا ورجلاً، ويحمد له مواقفه من الحياة والناس[١]. وجد شيئًا منه ينسرب فى نفسه فنظم فيه وفى كلبه هذه القصيدة الفاخرة، رأى فيه صورة نفسه شاعرًا عبقريًا «قذفت به الحياة فى مهنتها وابتذالها حتى صار أكثر فراغه مُسْتَهْلَكا على صناعة أو وظيفة تطعمه العيش وتحرمه لذَّته». تطعمه العيش ولكنها تكدّره وتحرمه لذة هذا العيش بما ترميه به من أشباه الرجال، وثلَّة المتسلِّقين،

---

(١) كان الأستاذ شاكر رحمه الله يَعُدّ شعر محمود حسن إسماعيل فى بعض رجالات الدولة والملك فاروق سَقْطَةً، أقال الشاعرُ منها نفسَه، وقام من هذه العثرة إلى جَدَد الطريق. أقول: وما هو ببِدْع فى هذا. وهذا ابنُ هَرْمَة يقرع السِّنَّ نَدَما على مدحه أمير المدينة:

فإن أكُ قد هَفَوْتُ إلى أمير
فعَنْ غير التَّطوع والسَّماحِ
ولكنْ سقطةٌ كُتبت علينا
وبَعْضُ القول يذهبُ بالرياحِ

وقد تلفَّف ما قاله محمود حسن إسماعيل فى الملك فاروق فى أكفان الزمن، لا يأسف عليه أحد، ولا يذكره أحد، وبقى ما نظمه فى مصر والنيل والعروبة نغما عُلْوِيا خالدًا كخلودها جمعاء.

ومكر الماكريـن، وحقد الحـاقدين، مِن أمثـال مَن يقول فـيهم الطغرائى:

تقـــدَّمَنِى أناسٌ كـان شَـــوْطُهمُ
وراء خَطْوِىَ لو أَمْشِــى على مَهَلِ

واقـرأ الأبيات التـالية جـهدَك يتـراءى لك الأستـاذ شاكـر يتحدث عن نفـسه وعن دنياه الختول، ولا يـفوتنّك أن تتوقف مَليّاً عند قوله «وفيْتَ يـا وَعْدُ» فى البيت الأول والرابع، لترى رَأْى العين، وتَرُوزه بيدك وتتجسَّــه، وتشمه بأنفك وتتنسَّمه، ترى وتحسّ وتشم سموّ وفاء هذا الحيوان الأعجم على مرذول خيانة الإنسان (الحبيبة؟) التى هوت به إلى درك الحضيض:

وَفَيْتَ يـا وَعْدُا هذا شَاعِـرٌ ظَلَمَتْ
فـيهِ النَّـوائِبُ ظُلْمًا، وَهْـىَ جُهَّـالُ
فـفـرَّ مُـعْـتَـزِلا أَرْضـًا وسَـاكِنَهَـا
ولِلـكَرِيم عَنِ الآفَـــاتِ تَرْحَــــالُ
آنَسْــتَـــهُ بصـــدِيقٍ لاَ تُدَنِّـــســـهُ
خَـلاَئِقُ اللُّؤْمِ .. تَمْـلِيقٌ وإِدْغَـالُ

وَفَيْتَ يا وَعْـدُ! فى دُنْيَا صَـدَاقتُـها
كـمـا تلفَّعَ بالظَّلْـمـاءِ مـحـتـالُ
وَأهلُهَـا شَـرِهٌ ضَـارٍ، كَـأَنَّ بِهِ
مِنْ شَـهْـوَةِ الفَـتْكِ ذُؤْبانٌ وأَغْـوالُ
وخـائِنٌ يتَـراءَى فـِى مُلَمَّـعَـةٍ
بالصِّـدْقِ، والصِّـدْقُ فى بَيْـدَائِهِ آلُ
وَنَاسِكٌ هَـجَـرَ الدُّنْـيَـا وأَنكَـرَها
وخَـوْفُـهُ مِنْ عَـذَابِ اللـهِ إعْـوَالُ
تَرَاهُ يَخـشع فيِ أَسْـمَـالِـهِ رَهَبًا
وبَيْنَ جَنبَـيْـهِ فَـتَّـاكٌ ومُـحْـتَـالُ
وبَاسِمٌ . . بَاسِـمُ العَـيْنَيْنِ مُـؤْتَلِقٌ
كـما تَـرَقْرَقَ فيِ الغُـدْرَانِ سَلْسَـالُ
حُلْوُ الحَدِيثِ . .كأن الراحَ ما شَرِبَتْ
أُذْنَاكَ، وَالـوُدَّ أَنْسَـامٌ وأَظْـلالُ
أُفٍّ لِمَـا حَـملتْ أمٌّ ومـا وَضَـعَتْ
غَـدْرٌ، ولُؤْمٌ ، وطُغْـيانٌ، وإسْـلاَلُ

هكذا وصف الأستاذ شاكر محمود حسن إسماعيل، لا بل وصف نفسه وإن أراد بهذا الوصف صديقه، فكلاهما من مَعْدِن واحد، ضاقا ذَرْعا بالغدر واللؤم، والطغيان والظلم، فَتَبًّا لهذه الدنيا ولهذا الخَلْق:

تبًّا لها! ولخَلْقٍ كلَّما انتعشوا
تفارَسُوا بنُيُوبِ البَغْى أو صالوا
كمْ ظالمٍ عَبَّ كأس الظُّلْم طافحةً
ثم انْثَنَى وهو تيَّاهٌ ومُختالُ
وكمْ صديقٍ تَفانَوْا فى مُودَّتِهِمْ
حتى إذا نَبتتْ أنيابُهم جالوا
فأنشبوا حيث لاقَوْا، لا تروِّعهم
عَمَّا أَراغوه أُمَّاتٌ وأطفالُ
تَوالَغُوا فى الدم المسفوح عربدةً
كأنَّ ما شربوا صهباءُ جِرْيالُ
ثم انثنوْا وبِهِمْ مِن شِرَّة سَفَهٌ
وكلُّهمْ مَرِحُ العِطْفَيْن ميَّالُ

يرتاح للدْمعِ والأنَّات يَسْمَعُها
طَلْقَ المُحَيَّا إلى أن يَنْعَمَ البالُ

فنفرا من هذه الدنيا واعتزلاها فى غير خضوع لها ولا استكانة، واقرأ الأبيات التالية يخاطب بها الأستاذ وَعْدًا، مُتَعجِّبا من إخلاصه وبقائه مع صاحبه، مع أن هذا الإخلاص قد يُودى به، وتأمَّلْ هل ترى الأستاذ شاكر فى هذه الأبيات؟ أترى إخلاصه لهذه الحبيبة الذى أهلكه وذهب به كل مذهب؟

يا ظامِئَ العيْن من جوع ومن ظمأ
ماذا بَقاؤك؟! والإخلاصُ قَتَّالُ
هذا المُشَعَّثُ ذو الأحلام .. صُحْبته
هَمٌّ، وخَوْفٌ، وحِرْمان، وإقلالُ[1]
يعيش فى الأرض جُثْمانا وناظِرةً
وروحُه للعَوالى الشُّمِّ تَحتالُ
قد نابَذَ الزمَنَ العاتى فَنابَذَهُ
تَصاوُلا .. وكِلا القِرْنَيْنِ صَوَّالُ
وعاش فى وَحْدة الرُّهْبان مُعتزِلاً
له رفيقان: آلامٌ وأوْجالُ

---

(١) كان الأستاذ محمود حسن إسماعيل أشعث شعر الرأس مفرَّقه، كذلك كان الأستاذ شاكر فى شبابه.

هماهِمٌ، ومُنَى نَفس، وتَمْتَمَة
ولَوْعَةٌ، كبَنات السُّحبِ تَنْثالُ
ما انفكَّ يرْسِل مِن نَفْس مُعَذَّبَة
نارًا تَؤُجُّ .. لها فى الجوِّ إشْعالُ

يؤيد ما أقول هنا أن الأستاذ شاكر جمع بين نفسه وبين محمود حسن إسماعيل والتحما فى نفر واحد، يقول مخاطبًا وَعْدًا:

نظرتَ يا وَعْدُ مُرتابًا إلى نَفَرٍ
كأنهم من صَفاء الروح أبدالُ
تحيَّروا فى نواحى الأرض، والتمسوا
واستنفضوها، فَسالتْ حيثما سالوا
تَهاربتْ بين أيديهمْ خلائقُها
كما تهارَبَ تحت الحقِّ ختَّالُ
فأَشْرَفوا كالذُّرَى نُبْلاً .. فأنفُسُهمْ
إذا تَطلَّعْتَ فى الآفاق أجبالُ
يا وعدُ لا تكُ مُرتابًا، فإنهمُ
مالوا إليك .. ولولا أنتَ ما مالوا

همُ الصديــقُ، وإن جاءوكَ فى زمن
خيــرُ الصــديقِ به خِــبٌّ ودَجَّــالُ
فائْنَسْ إليهم، وخَفِّفْ من لواعجهم
فأنت أكــرمُ . . والمِفْضــال مِفْـضالُ

مما سبق رأينا أن الأستاذ شاكر جعل هذه القصيدة شركة بينه وبين محمود حسن إسماعيل وكلبه وَعْد، راعه وفاء الكلب وإخلاصه لصاحبه رغم قلَّة ما يجود به عليه من قوت، كما ترى فى أول بيتين من القصيدة، فأكبر هذا الولاءَ الذى انعدم بين الناس كما خبره هو فى حياته، ورأى فى محمود حسن إسماعيل شخصَه وصورته فوصفه وهو فى الحقيقة يصف نفسه، فحمل على زمنه وناسه، وما لقياه منهما من جحود، وما اتصفا به من غدر وخيانة، ولؤم ومخاتلة، وبَغْى وطغيان، وغش وتدليس. ولا أعلم أحدا مدحه الأستاذ شاكر فى شعره إلا محمود حسن إسماعيل، وما ذاك إلا لِمَشابِه بينهما، كما كان سيف الدولة للمتنبى، فكلاهما عربى أصيل فى زمن أصبح فيه كُلٌّ منهما غريبَ الوجه واليد واللسان، بين زمرة الأعاجم الذين مزقوا دولة الإسلام، وكلاهما دافع عن عروبته وإسلامه فتصدًّى لجمهرة الهمج الهامج الذين غزوا بلاد الإسلام، وكلاهما فوق كلّ ذلك ؟ أشمّ، لا يرتضى الذل ولا الهَضْم.

أرجِّح أن هذه القصيدة نظمها الأستاذ شاكر فى أواخر الخمسينات على الأقل، وبيان ذلك أنه تحدث فى هذه القصيدة عن شاعر استوت ملكته، وملك زِمام اللغة، وطاعت له القريحة، ووصل إلى العبقرية التى توهّم الأستاذ شاكر فى مقاله المكتوب سنة ١٩٤٨- والذى نقلتُ بعضًا منه آنفًا - أنه محققها و«سينتهى بعد قليل من المصابرة والمرابطة لإحساس مشاعره إلى القدرة على متابعة إحساسه وكبحه وتزجيته على هَدْى واحد مؤتلف غير مختلف، وذلك حين يجتاز الشاعرُ السنّ التى هى عِلّة التوقّد الدائم والاهتزاز المتتابع تتابع البرق فى عَوارِض السحاب. وأما لغته فقد ملك منها ما يكفيه بقدر حاجة بعض إحساسه، فإذا امتدت يده إلى خزائن العربية التى لا تنفد، وتداخل إلى أسرار حروفها بالمدارسة الطويلة، وتآمرت ثلاثتُها على تَسْنِية الأبواب له واحدا بعد واحد، حتى يستطيع أن يستوى على سَرارَة المرتبة الأولى للشعر غير مُدافَع».

فإذا كان الأستاذ شاكر قد وصف الشاعر سنة ١٩٤٨ كما رأيت فلا بد أن تكون القصيدة اللامية هذه بعد ذلك بزمن حيث استطاع الشاعر أن يكبح إحساسه ويضبطه وتُسلّم له اللغة قيادها يصرّفها كيف يشاء. وقد قدّمتها فى الحديث على

«من تحت الأنقاض» المنشورة سنة ١٩٣٤ لأن أولها وجزءاً كبيراً منها عن الأستاذ محمود حسن إسماعيل وكلبه، فتُوهِم أنها خارجة عن ذلك الإطار الذى حدثتك عنه.

أما «من تحت الأنقاض» فعنوانها دال على فَحْواها فلا زال الأستاذ شاكر يرزح تحت أنقاض صرح الحب الذى تقوّض، وتحت بناء المجتمع الذى تهاوى، كلما أزاح منه رُكاما، انهار آخر، كتدافع موج بحر زاخر، يرتفع أَتِيُّه ثم ينقضّ انقضاضا مكتسحًا ما يلقاه، حتى إذا تلاشت قوته، نشأت موجة أخرى أعتى وأشد، زادها الليل البهيم رهبة ووحشيَّة، يقول الأستاذ شاكر فى القسم الأول من هذه القصيدة:

حَسْرَةٌ ولَّت، وأخرى أقْبلتْ
كيف؟ مِن أين؟ .. متى؟ لم أَعْلَمِ
مَوجةٌ سوداءُ تَنقضُّ على
مَوْجة فى بَحْر لَيْلٍ مُظْلِمِ
تَتَفانَى وَهْىَ لا تَفْنى، وكَمْ
ردَّها تيَّارُها كالضَّيْغمِ
صَمَّمتْ، حتى إذا ما التهمتْ
نُورَ أيامِىَ طاشتْ فى دَمِى

فَـــهْىَ أمــــواجُ ظـلامٍ لا تَرَى

لا تُبالى .. لا تَعِى .. لا تَحْـتَمِى

هذه النَّفْس المُجَرَّحـة التى أتتهـا الحسرات تَتْـرا كانت زهرة نضرة ولكن حُرِمت ماء الحياة، أو قُلْ حـرمَّته هى على نفسها فذوت وذبلت فبثت حزنها إلى نجم سـطع فى حياتها، فتملَّت بلألائه، ومـشتْ على هَـدْى أنواره دوامَ الليل، ثم خـبـا هذا النجم مع مَطْلَع الفجر الصادِق فى خِضمّ الحياة.

وفى هذه الأبيات القليلة من القسم الثانى أبان الأستاذ شاكر عن هذه الأنقاض الذى لا يزال يـنوء بثقل ما تراكم منهـا فوق حطام حياته، والتى أبنتُ عنها منذ سطور قليلة، يقول:

زهرةً حَنَّت، فـــبـاحــتْ، فَـذَوتْ

أذْبَلـتْـهـــا نَفْــحَـــةٌ لم تُكْـتَمِ

شكـت البَـثَّ لنـجْمٍ ســــاطِعِ

ثم ظـلَّت فى شُـــعــــاعِ مُلْـهِمِ

ورَمَى النـجمُ شـعــــاعـا وسَـنًى

ثم ضــــاع الـنجـمُ بيـن الأنجمِ

وهذا النجم هو رمز للحبيبة بلا شك عندى، فهو نور يبدد

الوحشة ويُؤْنِس النفس، وهو نور يهدى السائر فيه إلى مقصده، ولكنه نور موقوت بزمان معلوم، يبدده الفجر الصادق كما تبّدد اليقظة أوهام الحالمين. ثم صرّح الأستاذ شاكر بهذا الوهم فى القسم الثالث من القصيدة، وهو وهم أبرز له الحبيبة عروسًا تختال فى ثيابها وزينتها، ولكن الحقيقة المُرَّة جَلَتْها فى أُسٍ جوهرها فما هذه الأثواب إلا أكفان حبِّه، وما زينتها إلا حلْية للمأتم، وما هذه الأغانى فى زفاف العرس إلا ألحان قبر مُعْتِم:

قد جلا الوَهْمُ عَروسًا زُيِّنَتْ

لَبِسَتْ حِلْيَتَها للمأْتمِ

إنما أثوابُها أكفانُها

والأغانى لَحْنُ قَبْرِ مُعْتِمِ

نظرةٌ، ثم هوًى، ثم مُنًى

ثم . . وانفَضَّ كأنْ لم تَحْلُمِ

هذان الموقفان اللذان اجتهدت فى بيانهما ما استطعت، موقفه من المجتمع الذى عاش فيه، وموقفه من خيانة المرأة التى أحبها جعلا الأستاذ شاكر ينظر إلى الحياة نظرة متشائمة يائسة، وهى وإن كانت نابعة من تجربته الشخصية، فهى نظرة

نافذة إلى جوهر الحياة فى عمومها منذ دبت على سطح هذه الأرض إلى أن يفنى هذا الزمان، كما رأينا فى قصيدته «اعصفى يا رياح»، وكما ترى فى القسم الأخير من هذه القصيدة، فالحياة الدنيا عبث وباطل الأباطيل، لا يستطيع العقل أن ينفذ إلى سرها وغيبها المكنون، كما يقول فى «اعصفى يا رياح».

وَاغِلٌ يَعْتَدِى. يُسائلُ عَنْ أَسْرَارِ خَلْقٍ أَجَلَّ مِنْ أَنْ تُثَارا
كَيْفَ غَرَّتْهُ نَفْسُه؟! كيف ظَنَّ الغَيْبَ يُلْقِى لِثَامَهُ والخِمارا
أَمَلٌ بَاطِلٌ. فَلَوْ أسفرَ الغيبُ لأَعْمَى بنورِه الأبصارا

فلا شىء يجنيه العقل من التدبُّر فى سر الحياة إلا الشقاء، والبوْء بالعجز عن فهم كنهها، والتخلص من قيودها التى تَرْبِض به فى الأرض فلا يستطيع الانطلاق للفهم والإدراك، يقول فى «وَعْد»:

فإنما العَقْلُ: إزْراءٌ وتَعْنِيَةٌ
وحَيْرةٌ، وضلالات، وأثقالُ
والغيْبُ غيْب، فما سِرٌّ بمنكشف
والعُمْر والعَيْشُ أغْلال وأكْبالُ

وإذا عجز العقل عن التغلغل فى سر الحياة وفهم ناموس الكون، فلن يئوده إدراك ظاهرها إدراك ممارسة وعيان، وعندئذ فلا شيء إلا قبض الريح، والموت والفناء، يستوى فى ذلك مَن استبان له الضلال فاعتزله، ومَن سَدَر فى الغىّ واشتمله، يفنى كلاهما، ويخلّفان وراءهما حياة تؤول بدورها إلى حَوْمة الفناء. والكون ساخر لا يبالى، تمضى دورته على أذلالها، ليل يكرّ، ونهار يفر، ووالدة تَلِد، ثم تكون وما ولدت إلى زوال. هذه هى الحياة، وما هى إلا لمحة خاطفة من هذا الزمان. وإذا كان ذلك كذلك فجاهِد ما استطعت وأَضْنِ عقلك فى التدبُّر، أو نم غافلاً، فالمآل واحد:

ما أرى إلا فناء أو سُدًى
فبصير فى ضلالٍ أو عَمِ
وليالٍ أظلمتْ أنوارُها
وليالٍ نورُها لم يُظْلِمِ
وهما الدهرُ فلا ليلَ ولا
صَبْحَ، بل والدَةٌ لم تَعْقَمِ
وحياةٌ مِن فَناء فُجِّرت
لفناءٍ فى حياة تَرْتَمِى

كلُّـه لَمْحٌ وَمِـــيضٍ خـــاطفٍ

ثم .. لا شيء .. فـجـاهِدْ أو نَمِ

أما قـصيدته «الشـجرة: ناسكة الصـحراء» فهى من فـاخر الشعر، هى آخر ما نظمه منشوراً سنة ١٩٤٣، وكنت قديمًا قد قرأت قصيـدة جيدة لسيد قطب عنوانها «فـى الصحراء»، قدم لها بقوله «فى ليلة من ليالى الخـريف المقمرة، الراكدة الهواء، المحتبـسة الأنفاس، وفى صحراء جـبل المقطم الموحشة، وبين هذا القَفْـر الأَبِيد، كانت تـتراءى نخلات سـاكنات فى وجوم كئيب. ومن بينها نخلتان: إحـداهما طويلة سامقة، والأخرى قصيرة قميئة. بين هاتين النخلتين دار حديث. وكانت همسات ومناجاة». ثم قرأت مـا كتبه عنها أخى الدكتـور عبد اللطيف عبد الحليم فى كتابه «شعراء ما بعد الديوان»، وما كتبه الأستاذ عبد الباقى محمد حسين فى كتابه «سيد قطب: حياته وأدبه». وخلاصة مـا قالاه أن سيد قطب بث همومـه من خلال حوار النخلتين، فهو مثلهما قابع فى صحراء الحياة، ضائق بما فرضته عليه من وحشـة واكتئاب، يتساءل عن سـر هذه الحياة وطلسم الوجود، فـلا يرتدّ إليه غـير صداه، صـدى الوحشة واليـباب والزوال، وقد أبان الدكتور عبد اللطيف، أن كـثيراً من معانيها قد اجتلبه سيد قطب من قصيـدة لتوماس هارى ترجمها العقاد قبل أن ينشر سيد ديوانه.

قصيدة الأستاذ شاكر، كقصيدة سيد قطب، فيها تأمل فى الحياة والوجود، والعدم والفناء، وقصور إدراك الإنسان عن لغز هذا الكون، شأنها فى ذلك شأن بعض قصائده كما وضّحتُ آنفًا، ولكنك حين تقرأ هذه القصيدة تشعر أن هذه «الشجرة» هى شجرة محمود شاكر، ولا أحد سواه، لأنه أضفى عليها من شعوره، فبينها لنا بغير العين التى كنا ننظر إليها بها. وبالرغم من عبث الوجود فى تصوره، ففيها أيضًا وحدة الوجود، لا فرق بين الإنسان فى هجير الحياة وبين الجماد فى وَقْدَة الصحراء. وكما استوحش الإنسان من الإنس، فعاش فى وحدة آسِية، مُنتَبِذا بنفسه عن الفُجْر والزور والباطل، كذلك وقفت هذه الشجرة شامخة فوق الأرض اليباب فلا عجب أن يستهل الأستاذ القصيدة بهذا التشابه البيّن بينها وبينه كما عرفناه فى حياته الخاصة والعامة:

أيَّتُها الجَرْدَاءُ فى بَلْقَعٍ
قَفْرٍ من النَّابتِ والسَّائرِ
مُفْرَدَةٌ تَنْأَى بأَحْزَانِها
عَنْ هَجْمَةِ النَّازلِ والزَّائرِ
وعَنْ حَديثِ اللَّهْوِ مِنْ صَاحبٍ
وعَنْ فُضُولِ النَّابِشِ الخَابِرِ

وعَنْ نِزَاعِ العَيْشِ فى عِيشَةٍ
مَتَاعُها للفَاجِرِ الظَّافِرِ
وعَنْ سَوادِ الحِقْدِ فى بَاطِنٍ
مُغَلَّفٍ بالنُّورِ فى الظَّاهِرِ
.. عَنْ عَالَمٍ زُورٍ .. أَباطِيلُهُ
حقٌّ، ولكنْ.. فى يَدِ القَامِرِ

وفى القسم الثانى من القصيدة يتعجّب الأستاذ شاكر من هذه الشجرة الشمطاء، فى صحراء مقفرة جرداء، يظللها الموت من كل جانب، فلا غيث يسقيها، ولا ظل يُكنّها، وتُلْهِبها سِياط القيظ، فتُبِضّ ماء لحائها فييبس جلدها، ولكنها مِثْلُه:

صَوَّامَةُ الأيَّامِ مِنْ عِفَّةٍ
نَاسِكَةٌ فى جِلْدِها الضَّامِرِ
لا تَسْأَلُ الشَّمْسَ شُعَاعًا، ولا
تَسْأَل عَنْ نَوْءِ الحَيَا المَاطِرِ
لا تَطْعَمُ الماءَ على جُوعِها
غِذَاؤُها مِنْ رَمْلِها الزاخِرِ

وَهْوَ غِـــــذَاءٌ جـــائِـعٌ مُلْـهَبٌ
يَلْـتَــهِمُ الأَحْـــيَـــاءَ بالخَـــاطِرِ
فكيـفَ سَـــالمتِ سُـــعَـــارَ الفَـــلا
يا دَوْحَـــــةً رَمْلِيـــَّةَ الحَـــافِـــرِ
نَاقَـــضْتِ أَتْـرابَكِ فى نَبْـــتَـــةٍ
خَـضْراءَ، يـا بنتَ الثَّرَى الـفَاقِـرِ!

ولكن لم العـجب، وفـيم الدهشة؟ فـكلاهما سـواء، هى الشجرة العـجماء، وهو الإنسان الناطق، شـاء قدرها أن تقف وحيـدة غريبـة فى الصحراء القـاحلة، وشاء قَـدَرُه أن يعيش غريبًا وسط قومه وإن أحاطوا به، ولكن كما تحيط الرمال بهذه الشجرة، وهو غذاؤها، وهو «غـذاء جائع مُلهب» ياالله! كيف يكون الغذاء الذى يُشْبع هو نفســه جائع؟ فهذه الرمال التى تُمُدُّ الشجرةَ بالغذاء هى الأخرى جائعة، أحرقتها الشمس فما تغذو الشجـرة إلا لهيبًا، وهؤلاء الـناس يروحون ويجيئـون كذرّات الرمال عـددًا، ولكن لا يرْفِدون شـيئًـا سوى الحـقد والحـسد والشنآن .. فكيف «سالَمَ» كلاهما هذا «السُّعار»؟:

مـا عَجَـبى منك .. وما دَهْشَـتى!
اخـــــتلـط الواردُ بـالصـــــادرِ

نحن - كــلانا - غُــرْبَــةٌ صُــوِّرَت
تِمـــثــالَ حَىٍّ ســاكنٍ حــائرِ
مُــحْتَــدِمُ الأشــواق .. مَــشْبُــوبُهــا
تحت خُــمــود الظـاهرِ الفــاترِ
تأخــذُنا العَــيْنُ .. ولو غُلْــغِلَت
ذابتْ، وكـانت شَــحْــمَــةَ الصـاهرِ
نحــنُ - كــلانا -أَمَلٌ مُــؤْمِنٌ
بحـــقِّـــه فى عـــالمٍ كــافِــرِ
أَثْبَــتَــنَا الخِــذْلان فى وَحْــشَــةٍ
تَطْفَـــأُ فيــهــا جــمرةُ النـاصِــرِ
نحن - كِــلانا - صَــرْخَـــةٌ حُــرَّةٌ
مـــأســورةٌ فى زَفْـــرةِ الزَّافِـــرِ
وكـــبــرِيــاءٌ أُلْبِـــسَــتْ ذِلَّةً
وعُــوِّدَتْ إطْـراقَـــةَ الصـــاغِـــرِ
تَخـــتلِـفُ الأيامُ مِــن حَـــولْـنا
ونـحن وَقْـفٌ للــرَّدَى الجـــــائـرِ

ويفتتح الأستاذ شاكر القسم الأخير من القصيدة مخاطبًا الشجرة ملقِّبا إياها بـ«أُخْت ذى النُّون». وذو النون لَقَب ليونس بن مَتّى لابتلاع النون - أى الحوت - إياه. ذكره سبحانه فى سورة الأنبياء. أى أنها قديمة قِدَم ذى النُّون، قاست الأهوال من غُربة وجوع وعطش قرونًا متطاولة. فهى أَحْرَى بأن تشعر بآلام مثيلها من عالم الإنس، بآلام رجل مُسْتَوْحش من الناس، نافر النَّفْس، ثائر القلب، تكاد ثورته تحطم أضلاعه من عنفها، تَضِجّ روحُه الأسيرة فى تجاليد بَدَنه، ولكن فى معبد هذه الروح يخفت الألم، ويتناهى الشر، ويسمو الإنسان وقد طهرته الآلام. ومعنى ذلك أن النفس الإنسانية لا تُوجَد باقية أبدًا إلا وهى مُسْتَهلَكَة، وأن الأشياء الشريفة التى تُهْلِك هى بعينها التى تُحْيِى، وأنه لا معنى للشىء الحَىّ إلا أن يجتمع فيه معنى الأشياء الشريفة، الموت والحياة معًا، وأن استغراق النَّفْس واستهلاكها فى الأحزان النبيلة وتعذيبها بها هو استحياؤها وتنعيمها، وأن العمل المُهْلِك والفِكْر المهلك هما العمل الإنسانى الجليل الذى خُلِقَت من أجله الحياة على الأرض. وعلى ذلك لا تكون النفس حَيَّة أبدًا إلا وهى سائرة بالحياة فى مَسْبَعَة من الموت، يتخطَّفها كلُّ شىء حتى الأسباب التى يستوجب بها الحىٍّ صفة الحياة.

فهذه كما ترى نظرة أعمق من نظرة سيد قطب فى قصيدته «الصحراء»، نظرة شاملة إلى الوجود كله. لا تقتصر بالوقوف حَيرةً أمام سر الحياة، بل تتراحب إلى الفناء والعدم فى هذا الوجود، ووحدته فى آن، كما تغور فى أعماق الروح التى تطهرها آلام الوجود، فينفذ الأستاذ شاكر بذلك إلى فهم أسرار الشقاء فى الحياة، فهذا الشقاء وإن استهلك الروح فهو أيضًا محييها، فتسعد الروح ويكتنفها الرِّضَى:

إن ضجيج الروح فى أَسْرِها
منْبَهَةُ المَأْسُورِ للآسِرِ
استمِعى نجواىَ فى عُزْلةٍ
تخشع فيها شَفْرَةُ الجازِرِ
فى مَعْبَد الروحِ ومحرابها
تَسْجُدُ هَمْسًا صَرْخَةُ الزاجِرِ
يَجْثُو ضِرام الشَّرِّ فى نورِها
ويَزْدَهِى فى صَمْتها الطاهِرِ
تَسْمو الأمانى بين أرجائها
قد طُهِّرَتْ بالألم العاصِرِ

******

خاتمــة

كنت قد نويت على ألا تزيد المقـدمة على عشرين صـفحة حتى تتّسِق وحجم الديوان، ولكن ما إن مـضيْتُ فيهـا حتى تشعّب بى كلام وامتدّ على غير ما كنت أقدّر، وكنت أزمع أن أتكلم عن خـصائص شـعر الأسـتـاذ شاكـر الفنيَّة فى اللغـة والأسلوب، ولكنى حـين طال الكلام عن مـضـمـون شعـره وخرج عن القصد الذى أردت، أمسكتُ، لأنى - هذه المرَّة - قدَّرتُ لرِجْلى قـبل الخَطْو موضعهـا، ولو مضيتُ فيـما نويت لملأت مائة صفحة أخرى. وإذا وهـب الله عمرًا وفراغًا فعلت ذلك. وحبسنى أيضًا عمـا أردتُ أنى أرجأت العمل فى تحرير مقـالات الأستـاذ شاكـر أثناء عملى فى ديوانه، فـلم أشأ أن تتأخر المقـالات أكثر مما تأخَّرت، ومن الله العـون، وبه السداد والتوفيق.

لم أنهج فى كتابة المقدمة نَهْجَ ما جرى عليه أكثر الدارسين من تقسيم مـا قاله الشاعر إلى موضوعـات، كالمدح والغزل، والوصف، وما شابه ذلك. لكن اتبـعت منهجه الذى سنَّه فى كتاب المتنـبى، فدرست شعره حسب زمـان نشره. وهو منهج قويم، فهـو مُبين عن تطور ملكة الشاعر الـفنية مع ارتقائه فى

العمر ومحصوله من التجارب. وهو أيضًا مبين عن نفسية الشاعر وأطوار حياته مع تعاقُب الأيام والسنين، ومهدت لذلك بصفحات مختصرة عن البيئة التى عاش فيها الأستاذ شاكر شابًّا ورجلاً وكهلاً، ولم يكن ذكْر هذا المهاد من قبيل العرف الذى درج عليه الدارسون، لكنه ضرورى لفهم جانب من جوانب نفس الأستاذ شاكر، وقد حاولت أن أوضح أن هذا الفساد الذى استشرى في جميع نواحى الحياة آنذاك زلزل كيان الأستاذ شاكر وهو لا يزال فى السابعة عشرة من عمره، وترك فى نفسه جراحًا وكلومًا تنزّت دما لم يرقأ أبدا، يعرف ذلك تلامذته ومريدوه، وقد جاء شعره تعبيرًا صادقًا عما لاقاه وأحسّ به كما أوضحْت فيما أرجو، فعرفناه من شعره على الصورة التى عرفناه بها فى سيرته، فله أن يقول كما قال البارودى عن نفسه:

فانْظُرْ لِقَوْلى تَجِدْ نَفْسى مُصَوَّرةً

فى صفحتيه، فقوْلى خَطُّ تمثالى

ولعل هذا الديوان - وقد جُمع بين دفتىْ كتاب - أن يأخذ حظه من الدرس الذى غُمِطَ صاحبه حقه فى حياته، وأن يدخل تاريخ الشعر العربى الحديث من أوسع أبوابه، والعجب كل العجب أن يُهْمَل هذا الشعرُ حتى الآن، فإن قلتَ: ربما كان ذلك لأنه كان مفرقًا فى مجلتى المقتطف والرسالة، فعزّ

تيسُّره فى أيدى الباحثين، قلتُ: كذلك كان شعر بعض شعراء مدرسة أبوللو الذى عكف عليه الدكتور محمد مندور رحمه الله، وهم لا يدانون الأستاذ شاكر فى شاعرية أو فِكْر. وانظر إلى قصيدته «القوس العذراء» التى نشرت سنة ١٩٥٢، فخلا ما كتبه عنها الدكتور زكى نجيب محمود - رحمه الله - وهو كلام أشبه بالتقريظ والثناء منه بالتحليل والدرس - سنة ١٩٦٥، لم يلتفت إليها أحد إلا بعد ثلاثين سنة من ظهورها حين كتب عنها الدكتور إحسان عباس، أطال الله بقاءه - دراسة قيمة فى الكتاب الذى أهديناه للأستاذ شاكر بمناسبة بلوغه سن السبعين سنة ١٩٨٢. ثم أخذت الدارسون سِنَة أخرى سنين عددا فأغمضوا عنها العيون، حتى بعثها الدكتور أبو موسى من سنن الكرى بكتيبه القيم «القوس العذراء وقراءة فى التراث»، ثم كُتب عنها بعد وفاته فى عدد المجلة الذى خصصه الزميل الدكتور عبد القدوس أبو صالح لدراسات عن محمود شاكر.

عسانى بهذا العمل أن أكون قد أدَّيتُ بعض حق الأستاذ محمود شاكر علىّ وعلى جيلى، وأدَّينا حق الأجيال القادمة علينا، نحن الذين لازمناه فى ضراء حياته حين زُجّ به فى السجن مرتين، وفى سرَّاء أيامه.

*****

أبو فهر
محمود محمد شاكر

اعْصِفِي يا رِياح

وقصائد أخرى

«قصائد الديوان»

اعصفي يا رياحُ من حيثما شئتِ وعفّي الطلولَ والآثارا
وانسفي يا رياحُ آيةَ هذا الليلِ حتى يحورَ ليلاً سرارا
وأذري يا رياحُ في حرمِ الدهرِ نثيرًا يزلزلُ الأعمارا
اعصفي وانسفي كأنكِ سُخّرتِ حُبًّا لا يساورُ الأقدارا
اعصفي وأذري كأنكِ غيرى قذفتْ حقدَها شرارًا ونارا
اعصفي كالجنونِ في عقلِ صبٍّ قتّلَه الغيظُ عزمةً والوقارا
اعصفي كالشكوكِ في مهجةِ الأعمى تخاطفْنَ حسَّه حيثُ سارا
اعصفي كالفناءِ ينتسفُ الأوكارَ نسفًا ويصرعُ الأطيارا
اعصفي كالوفاءِ صادمَه الغدرُ فأغفى إغفاءةً ، ثمّ ثارا
اعصفي كالضلالِ يسخرُ من هادٍ أذلَّ القفارَ علمًا ، وحارا
اعصفي كالأسى أتاني من القبرِ فلم يستطعْ قرارًا ، وفارا
اعصفي وانسفي ، فما أنتِ إلا نغمةٌ تنشئُ الخرابَ اقتدارا
عالمٌ لم يكنْ ولا التكوينُ غيرَ أشباحِ نغمةٍ تتبارى

اعصفي يا رياح

كتبت قبل القوس العذراء (المنشورة سنة ١٩٥٢) بزمن

اعصِفِي يا رِيَاحُ مِنْ حَيْثُـمَا شِئْتِ . . وعَفِّى الطُّلُولَ وَالآثَارا(١)
وَانْسِفِي يَارِيَـاحُ آيةَ هذَا اللَّيْلِ حَـتَّى يَحُــورَ لَيْـلاً سِـرَارَا(٢)
وَازْأرِي يا رِيَاحُ فـى حَـرَمِ الـدَّهْرِ زَئيـراً يُزَلْزِلُ الأَعْــمَـــارَا
اعْصِــفِي . . وَانْسِفي . . كَأنَّكِ سُـخِّرتِ خَبَالًا يُسَـاوِرُ الأَقْدَارَا
اعْصِفِي . . وَازْأرِي . . كَأنَّكِ غَيْـرَى قَذَفَتْ حِقْدَهَا شَرَارًا وَنَارَا
اعْصِــفِي كَالْجُنُونِ فِي عَقْـلِ صَبٍّ هَتَكَ الغَيْظُ عَزْمَـهُ وَالْوَقَارَا
اعْصِفِي كَالشُّـكُوكِ فى مُهْجَةِ الأَعْمَى تَخَاطَفْنَ حِسَّهُ حَيْثُ سَارَا
اعْـصِفِي كَـالفَنَاءِ يَنْـتَسِفُ الأَوْكَـارَ نَسْـفًا وَيَـصْرَعُ الأَطْيَـارَا
اعْصِــفِي كَالْوَفَاءِ صَادَمَـهُ الْغَدْرُ . . فَأَغْضَى إغْـضَاءَةً، ثُمَّ ثَارَا
اعْصِــفِي كَالضَّــلالِ يَسْخَـرُ مِنْ هَادٍ أَذَلَّ الْقِـفَارَ عِلْمًـا، وَحَارَا

(١) تعفى: تمحو وتُزيل.

(٢) يحور: يرجع. السِّرار: الليل الشديد الظلمة، يكون آخر الشهر.

اعْـصِفِى كَـالأسَى أَفَاقَ مِن الصَّـبْرِ فَلَمْ يَسْـتَطِعْ قَرَارًا، وفَـارَا
اعْصِـفِى وَانسِفِـى، فَمَا أَنْتَ إِلَّا نِـعْمَةٌ تُـنْشِئُ الخَرَابَ اقْـتِدَارَا
عَـالَمٌ لَمْ يكُنْ ولا السَّـاكِنُوهُ غَـيْـرَ أَشْـبَـاحِ نِقْمَـةٍ تَتَـبَـارَى!

* * *

اعْصِفِى يَا رِيَاحُ غَضْبَى بِإِعْـصَارٍ مِنَ الْمَقْتِ، جَاحِمًا هَدَّارَا(١)
كَيْفَ أَبْصَرْتِ مَا طَوَيْتِ مِنَ الدُّنْيَـا بِلَيْلٍ، وَمَا اخْتَرَقْتِ نَهَارَا؟!
اشْهَـدِى: هَلْ رَأَيْتِ عَقْـلًا ونُبْلًا، أَمْ جُنُونًا يَؤُمُّ خِـزْيًا وَعَارَا؟
وَخَـفَايَا مِنْ الْخَـبَـائِثِ تَسْعَى، وَحُـقُـودًا من الخَنَى تَـتَمـارَى
وَأَسَـاطِيـرَ حَيَّـةً أَلْبَـسَـتْـهَـا قَيْنَـةُ الْدَّهْرِ ثَوبَهَـا الْمُـسْتَـعَـارَا
وَأَباطِيلَ دَلَّسَـتْـهَـا أَكَـاذِيبُ، فَـأَضْـحَتْ هُدًى وَأَمْـسَتْ مَنَارَا
وَمَطَايَا تَخُـوضُ فى لُجَجِ الظُّلْـمِ بركْبٍ لا يَسْـأَمُونَ السِّـفَـارَا
وَأَذِلَّاءَ يَشْمَـخُونَ مِنَ الْكِبْرِ وهُمْ فى الْقُـيودِ حَسْـرَى أُسَارَى!
وَدُمًى لَمْ تَزَلْ تَسِيرُ اضْطِرَارًا.. فى غُرُورٍ يَنْفِى الـمَسِيرَ اضْطِرَارَا
وَبَقَـايَا فَـرَائِسٍ لَـمْ تَكَدْ تَنْبِضُ حَـتَّى أَحَـدَّتِ الأَظْـفَـارَا!

---

(١) جاجم النار: توقُدها.

وَدَنَايَا تَخْتَالُ فِى زُخْرُفِ البَطْشِ.. تَخَـال الأَقْدارَ مِنْها غَيَارَى!
فى حَيَـاةٍ مَخْبُولَـةٍ أسْكَرَتْها شَهَواتٌ تَـبْقَى.. وتُفْنِى السُّكَارَى
كُلُّ شَىْءٍ مَسَّـتْهُ يَطْغَى.. فَلاَ يَزْهَدُ طَبْـعًا، ولا يَعِفُّ اخْتِـيَارَا

* * *

اذكُـرِى يا رِيَاحُ كَيْفَ تَدَسَّـسْتِ إلى مُضْـمَرِ الطَّوَايَا اقْـتِسَـارَا
كُنْتِ سِرَّ الأَحْيَـاءِ طُرًّا.. فَمَا يَمْلِكُ سِرٌّ عَنْ نَاظِرَيْكِ اسْـتِتَارَا
مُنْذُ جَاشَتْ فِـى حَمْأَةِ الْكَوْنِ آمَـالٌ تُرَجِّى أنْ تَبْلُغَ الأَوْطَارَا(١)
مُذْ تَهَـادَتْ غَرَائِبُ الْمُـزْنِ تَخْتَال وتُهْـدِى الظِّلالَ وَالأَمْطَارَا(٢)
مُنْذُ بَاحَتْ بِسِـرِّهَا الزَّهْرَةُ الأولَى فَـأَذْكَتْ فى كُلِّ قَلْبٍ أُوَارَا(٣)
مُذْ تَسَامَتْ فى مَسْبَحِ الجَوِّ فَـتْخَاءُ وَدَارَتْ بِلَهْوِهَا حَيْثُ دَارَا(٤)
مُنْذُ نَاحَتْ بِشَجْوِهَا ذَاتُطَوْقٍ، فَاسْتَجَاشَتْ بِنَوْحِهَا الأَسْحَارَا(٥)

---

(١) الحمأة: الطِّين الأسود.
(٢) المزن: جمع مُزْنَة، وهى السحابة المحملة بالماء.
(٣) الأوار: حَرّ النار.
(٤) الفتخاء: العُقاب اللينة الجناحيْن.
(٥) ذات طوق: الحمامة.

مُنْذُ حَنَّتْ فى ظُلْمَـةِ اللَّيْلِ حَيْـرَى قد أَضَلَّتْ أَتْرابَهـا والدِّيَارَا
مُنْذ أَوْفَى عَلَى البِـقَاعِ أَبُونا الـشَّيْخُ حَـيْرَانَ لا يُطِيقُ اصْطِبَـارَا
مُـذْ أَلَمَّتْ بِأُمِّنَـا نَفْـحَـةُ الأُنْثَى فـأغْـرَتْ بشـيْـخِنا الأَخْطَارَا
مُذْ أَصَاخَتْ لَكِ البَرَايَا خُشُـوعًا. . فَضَّ فِيهِمْ حَنِينُكِ الأَسْرَارَا
اذكُرِى كَيْفَ. . وانْظرى كَيْفَ أَضْحَوْا: أَعِبَادًا رَأَيْتِ أمْ فُجَّارًا؟!
يَتَـباغَـوْنَ قُدْرةً ليسَ تَفْنَـى، ثم يَفْنَونَ. . عَاجِـزِينَ حَيَـارَى!

* * *

أنْصِـتِى يا رِيَاحُ، صَرْخَـةُ مَلْهُوفٍ طَعِـينٍ أَفْنَى اللَّيَـالِى انتِظَارا
هَامَ يَسْـتَنْفِضُ الغُـيوبَ وَحِـيدًا. . دَامِـياتٍ جِرَاحُـه لاَ تُوَارَى
كُلَّمـا ظَنَّ فى دَوَاءٍ شِـفَـاءً، عَادَ دَاءً يُـدْمِى جِرَاحًـا عَـذَارَى
أَفِـرَارًا مِنَ الجِـرَاحِ تُدَاوِيهِنَّ؟ كَـلَّا! أَيْقَنْتَ أنْ لاَ فِـرَارا!
سِرْ جَرِيحًا رَثًّـا بآلامِكَ الظَّمأَى، وَسَائِل. . إِنِ اسْتَطَعْتَ حِوَارًا!
غَرِقَ العَـالِـمُونَ فى عَـيْلَمِ النُّورِ فَأَطْفَـا جِهارَهُـمْ والسِّرَارَا[1]
شَـرِقُوا شَـرْقَـةً بما حَـصَّلوهُ، ذَبَحَتْ عِلْمَـهُم فَـغَارُوا وَغَـارَا

(١) العيلم: البحر، والبئر الواسعة الكثيرة الماء.

أيْنَ؟.. لا أيْن! يَا رِيَاحُ أجيبى، مزِّقى الحُجْبَ وَانْزِعِى الأَسْتَارَا
مَنْ مُـجِـيبٌ إلَّاكِ، كَاهِـنَةَ الآبَادِ، فى هَيْكَلٍ تَـقَـادمَ دَارَا؟
شَادَ عُبَّادُه المَحَارِيبَ إِيمَانًا، فَـملُّوا، فأعْـرَضُوا كُـفَّـارَا!
سكِرُوا، فَانْتَشَوْا، فَهبُّوا يزُفُّونَ إلى هيْكَلِ البَقَاءِ الْبوَارَا!![1]
أَخُلُودًا وحِكمَـةً، أَمْ ظِلاَلًا وأَحَادِيثَ تُضْحِكُ الْسُّمَّارَا؟
مَارِدٌ فى الثَّرَى تُقَلِّصُ عَنْهُ الْشَمْسُ، يُمْسِى ثَرًى.. يَطيرُ غُبَارَا!

* * *

اسْمَعِى يا رِيَاحُ، مَنْ ذَا يُنَادِيك وَقَدْ أَرْخَتِ الدَّيَاجِى السِّتَارَا؟
مُهْجَةٌ تَسْتَغِيثُ فِى دَغَلِ الآثَامِ قد أَطْبَقَتْ عَلَيْهَا شِفَارَا[2]
قَدْ رمَاهَا الجَبَّارُ بالفَزَعِ الأَكْبَرِ، بالمَوْجِ طَاغِيًا زَخَّارَا
بِلَهِيبٍ يَنْسَابُ رَهْوًا، إِذَا مَا خَامَرَ النَّفْسَ أَجَّ فِيهَا سُعَارَا
فِتْنَةٌ إِثْرَ فِتْنَةٍ إِثْرَ أُخْرَى، هَدَّمَتْهَا ودَكَّتِ الأَسْوَارَا
كيفَ تَرْجُو النجاةَ فى مَأْزِقٍ ضَنْكٍ وَحِيدًا لا تَسْتَطِيعُ انْتِصَارَا؟

---

(١) البوار: الهلاك.
(٢) الدغل: الفساد.

تَبْتَغِي ثَغْـرةً! وكَيفَ؟! وهَلْ يَنْفَعُ شَيْئًـا؟! يَاضَلَّ ذاكِ اغترارًا!
أَنْتِ فى حَـوْزَةِ الأثَامِ تَعِـيشِـينَ، فَذُلًّا فـى الرِّقِّ لا استكبَـارَا
اشْرَبِى الكأسَ مُـزَّةً لم تُشَعْشَعْ، ثُمَّ إِيَاكِ أن تَمِيـدِى خُمَارَا[1]
اغْدرِى. نَافقِى. أَضِلِّى. استَبدِّى، خَالطِى الإِثْمَ وَاحْمِلِى الأَوْزَارَا
أنتِ للبأسِ قد خُلِقْتِ. فأينَ البأسُ إنْ كنتِ تَفْزِعِينَ حِذَارا؟!
هكَذا الأرضُ. فاذهبِى أَوْ أَقِيمِي. لَيْسَ يُغْنِى أَنْ تَشْمَئِزِّى ازوِرَارا
سَيِّدُ الجَـوِّ والجَـوَارِحِ بَازٍ سَـاقطَ الطَّـيْـرَ دامِيَـاتٍ وَطَارا![2]

* * *

أَنْصِتِى يَا رِياحُ. مَا أَبْشَعَ الصَّوْتَا! لَقَدْ سَارَ فِى القُرُونِ مَسَارَا!
أحَنِينًا. أَمْ صَرْخَةً، أَمْ أَنِينًا، أَمْ مُكَاءً، أمْ عَوْلَةً، أمْ جُؤَارًا؟![3]
أَمْ تَهالِيلَ عَـاكِفِينَ عَلَى الأَوْثَانِ عَجُّـوا لَهَا وضَجُّوا اعْـتِذَارًا؟!
أمْ زُنُوجًا تَوَالَغُوا فى الدَّمِ المَسْفُوحِ. دَفُّوا وهَلَّلُوا استبشارا؟![4]

---

(١) المُزة: الخمر التى تلذع اللسان. الخُمار: ما أصاب الرأس من ألم الخمر وصداعها.
(٢) ساقَط الطير: أَسقَطها وتابَع إسقاطها.
(٣) المكاء: الصَّفير.
(٤) دفّت جوارح الطير: إذا دنت فى طيرانها من الأرض للانقضاض.

أَمْ مُسُــوخًا مِن العَوَاطِف تَعْوِى سَــخَرًا مِنْ رِثَائِها واحْتِـقَارَا؟!

أَمْ كَشِيشَ الشَّحْنَاءِ، هَمَّتْ، وفَحَّتْ، وتَنَزَّى لُعَابُهَا وَاسْتَطَارا؟![1]

أَمْ صَلِيلَ الأَحْـقَـادِ طَاشَتْ عَنِ الكَظْمِ، فَخَـاضَتْ إلىَ التَّشَفِّى الغِمَـارا؟!

أَمْ هَزِيمَ اللَّذَّاتِ فى صَخَبِ النَّشْوَةِ، هَاجَتْ زَفِيرَهَا الفَوَّارَا؟![2]

أَمْ وَغَى السُّخْرِيَـاتِ فى لَغَطِ الآلامِ تَسْتَصْرِخُ الدُّمُوعَ الغِزَارا؟![3]

أَمْ عَوِيلَ المُنَى البَوَالِى عَلَى أَجْـدَاثِ هَمٍّ مَضَى وَأَبْقَى تَبَارَا؟![4]

أَمْ تَسَابِيحَ خَـاشِعِيـنَ من التَّقْوَى أَسَـرُّوا مِنْ خَشْيَـةٍ إِسْرَارَا؟!

أَمْ تكَاذِيبَ ؟!.. بَل تكَاذِيبُ! هَلْ تُبْصِرُ إلا الهُدَاةَ والأَبْرَارَا؟!

قَدْ أَرَادُوا أَنْ يَجْـتَنُوا ثَمَرَ الخَيْـرَاتِ حُلْواً.. فَصَادَفُـوه مُرَارَا!!

* * *

انْظُرِى يا رِياحُ.. يَـا وَحْـشَـةَ الطَّرْفِ إِذَا دَارَ يَمْـنَةً أَوْ يَسَـارَا!

مَا الَّذِى تُبْصِرِينَ؟ أَشْبَـاحَ فانين؟! مِرَارًا تُرَى.. وتَخْفَى مِرَارَا!

---

(١) كشّت الأفعى كشيشا، وهو صوت جِلْدها إذا حكّت بعضها ببعض، وفحّت فحيحا، وهو صوتها من فَمها.

(٢) الهزيم: الصوت، وهو للرَّعْد خاصة.

(٣) الوغى: الصوت، وفى الحرب خاصة.

(٤) التبار: الهلاك.

وُجِدُوا، ثُمَّ أَوْجَدْوا، ثُمَّ بَادُوا. . وَاحتَـذَى نَسْلُهم فَزَادَ انتِشَارَا
وتَمـادَى البَقَـاءُ فيـهم دَوَالَيْكَ. . فَـشَىءٌ بَدَا. . وَشَىءٌ تَوَارَى!
أَوْغَلُوا فِى الحَـيَـاةِ جِيـلًا فَـجِيلًا، وتَـجَلَّى طَرِيقُـهُمْ وأَنَارَا
فَـمَضَـوْا يُبْدِعُـون فى حَيْثُ حَلُّوا، وَتَبَـارَوْا حِضَـارَةً وَابْتِكَارَا
مَا كَفَاهُمْ مَا بُلِّغُوا، فَاسْتَطَالوا. . ثُمَّ خَالُوا، فَأَسْرَفُوا إِصْرَارَا(١)
شُـغِـفُـوا بالخُلُودِ فى هذهِ الدُّنْيَـا، فَـأَعْطَتْـهُمُ الخُلودَ المُعَـارَا!
عَمَرُوا الأَرْضَ زِينَةً ومَتَاعًا، ثم نُودُوا: كَفَى. . البِدارَ البِدَارَا!!(٢)
ثُمَّ مَرُّوا. . أَشْـبَاحَ فَـانِينَ، مَا تَمْلِـكُ فى حَوْمَةِ الـزَّوَالِ قَرَارَا!
لَمْ يَكُنْ غَيْرَ خَطْفَةِ البَرْقِ. . إِذْ تَبْنِى وتُعْلِى، ولَمْ يَكَدْ. . فَانْهَارَا!
ذَهَبَتْ رِيحُـهمْ، وَهَبَّت رِيَاحٌ، فَـأَقَـامَتْ عَلَى القُـبُـورِ الدِّيَارَا!
ضَلَّ هذَا الإِنسَانُ! يَكْدَحُ لِلخُلْدِ. . وأَقْصَى الخُلُودِ: كَانَ. . فَصَارَا!

* * *

انظُرِى يا رياحُ ذَا القَـبَسَ الوَهَّاجَ. . قَـد رَاوَغَ الفَنَاءَ اقتِـدَارَا!

---

(١) خال الرجلُ: أُعجب بنفسه وتباهَى، من الخُيَلاء.
(٢) بادر الشئَ مُبادرة وبدارا: أَسْرَع إليه وعجل.

عَـاشَ تَحْتَ الأَطْبَاقِ دَهْرًا فَـدَهْرًا، يَتَلوَّى بِثِـقْلِهِنَّ انبِهَـارَا[١]
كُلَّمَـا رَامَ مَنْفَـذًا رَدَّتْهُ فِي ظَلَامِ الأَعْـمَـاقِ يَعْنُو صَـغَـارَا[٢]
لَمْ يَزَلْ دائبًا . . يُنَقِّبُ مُلْتَـاعًا، ويحتَالُ فِي صَفَاهَا احْـتِفارَا[٣]
صَدَعَ الصَّخْـرَةَ المُلَمْلَمَةَ الكُبْرَى،وَأَسْرَى،حَـتَّى نَمَى فَاسْتَطارَا
وَرَأَى نُورَه فَـجُنَّ مِنَ الفَـرْحَةِ . . أَعْـمَى رَأى الظَّلَامَ نَهَـارَا!
أيُّ شيْءٍ هَذا؟! وَمَا ذَاكَ؟! بل هَذَا؟! . . وَزَاغَتْ لِحَاظُهُ اسْتِكْبارَا
قَـدْ رَأى عَالَمًـا مَهُـولًا من المَجْـهُولِ، غَـشَّـاهُ نورُه فاسْـتَنَارَا
لَيْسَ يَدْرِي: أَهُمْ عِدًى . . أم صَدِيقٌ؟!!! أَيُبِينُونَ لَوْ أَرَادَ حِوَارا؟
أَمْ صُمُـوتٌ لا يَنْطِقُونَ، ازْدِرَاءً لِغَـرِيبٍ عَنْهُمْ أَسَـاءَ الجوَارَا؟!
وَاغِلٌ يَعْتَـدِي . . يُسَائِلُ عَنْ أَسْرَارِ خَـلْقٍ أَجَلَّ مِنْ أَنْ تُثَارا!![٤]
كَيْفَ غَـرَّتْهُ نَفْسُهُ؟! كَيْفَ ظَنَّ الـغَيْبَ يُلْقِي لِثَامَهُ والخِـمَارا؟!
أَمَلٌ بَاطِلٌ . . فَلَوْ أَسْـفَـرَ الغَـيْـبُ لأَعْـمَـى بِنُورِه الأَنْوَارَا!!

* * *

(١) الأطباق: جمع طَبَق، وطَبَق كل شيء ما ساواه، يعنى تراكم الظلمات بعضها فوق بعض.
(٢) يعنو: ذَلّ وصَغُر، ومنه العانى، أى الأسير.
(٣) الصفا: جمع صَفاة، وهى الصخرة الصلبة.
(٤) الواغل: الذى يدخل على القوم فى طعامهم وشرابهم من غير أن يدعوه إليه أو يُنفق معهم مثل ما أنفقوا.

وَعْد (*)

يا وَعْدُ! مَالَك مَهزولًا ومُختَزَلًا
كأَنَّ جِلْدَكَ، يا لَلبُؤْسِ، أسْمَالُ؟!
الجُوعُ غَالكَ؟! .. أمْ غَالَتْكَ نَائبَةٌ
مِنَ اللَّوَاتى لَهَا فى الرُّوحِ أَغْوَالُ؟
بنو أَبِيكَ لَهُمْ فى الدُّورِ مَنْزِلَةٌ
عَطْفٌ، وحُبٌّ ، وتَقْرِيبٌ ، وإِدْلالُ
وأَنتَ، وَحْدَكَ، مَنْبُوذٌ ومُطَّرَحٌ
تَطُوفُ حَوْلَكَ أشْبَاحٌ وأَهْوالُ!

* * *

يا ظَامِئَ العَيْنِ من جُوعٍ ومن ظَمَأٍ
ماذا بَقَاؤُكَ؟! والإِخْلاَصُ قَتَّالُ! (١)

(*) وعد هو اسم كلب كان يقتنيه الشاعر الكبير محمود حسن إسماعيل.
(١) ظامئ: ضامر، قليل اللحم من الهزال.

هذَا الْمُشَعَّثُ ذُو الأحْلامِ . . صُحْبَتُه
هَمٌّ ،وخَوْفٌ ،وحِرْمانٌ ، وإقْلالُ[١]
يَعِيشُ فى الأَرْضِ جُثْمَانًا وناظِرَةً
ورُوحُهُ للعَوَالِي الشُمِّ تَحْتَالُ
قد نابَذَ الزَّمَنَ العَاتِى فنابَذَهُ
تَصَاوُلًا . . وكِلَا القِرْنَيْنِ صوَّالُ!
وعاشَ فى وَحْدةِ الرُّهْبَانِ مُعْتزِلًا
له رَفِيقَانِ: آلامٌ وأَوْجَالُ
هَمَاهِمٌ، ومُنَى نَفْسٍ، وتَمْتَمَةٌ
ولَوْعَةٌ ، كَبنَاتِ السُّحْبِ تَنْثَالُ[٢]
مَا انفَكَّ يُرْسِلُ مِنْ نَفْسٍ مُعَذَّبَةٍ
نارًا تَوَجُّ . . لها فى الجَوِّ إِشْعَالُ

---

(١) المشعث: يعنى محمود حسن إسماعيل رحمه الله، فقد كان دائمًا أشعث الشعر مفرقه.
(٢) هَماهِم: أصوات لا تكاد تبين. بنات السحب: أمطارها.

لَهَا نَقِيضٌ[١] ، وترجيعٌ ، وغَمْغَمَةٌ
كـــــــأنَّما لاقَـتِ الأَبْطـالَ أَبْطـالُ
يُثِــيـرُ حَــولَـكَ ذُعْـراً لا يُنَهْنِـهُـه
خَـوْفُ الحـيـاةِ، ولا تَـنْهـاهُ آمـالُ
بَيْنَا تَرَاهُ عَلَـيْهـا سَـاكنًـا .. قَلِقـًا
كَـأَنْ بِهِ رَبَضَتْ فى الأَرضِ أَغْـلالُ
إذا السَّـماءُ قـد انْشَـقَّتْ بصَـاعقَـةٍ
رَعْدٌ، وبَرْقٌ، وتَخْطِيفٌ، وإذْهَالُ!!
مــا حِـيـلَةٌ لَكَ إلّا أن تَنَكـبَّـهَــا
وأَنتَ تُخْلِدُ مَـــذْعُـوراً وتَنْهَـالُ![٢]
تَرُدُّ ذَيْلَكَ لِـلخَـيْـــشُـومِ تَسْــتُـرُهُ
عَجْـلانَ تَرْجُفُ! مَا لِلهَوْلِ إمْـهَالُ!

* * *

---

(١) النقيض: الصوت.

(٢) تنكبها: حذف إحدى التاءين، وتنكّب الأمر: حاد عنه وتجنَّبه.

يا رابضًا حَيْثُ لا لَحْمٌ ، ولا حَدَبٌ
وَلا صَـديقٌ ، ولا مَـاءٌ . . ولا آلُ!
رَمَيْتَ نَفْـسَكَ فى مَظْلومَةٍ خَـشَعَتْ
لـمَّـا استَـبَدَّ بهـا بُؤْسٌ وإغفـالُ[١]
حَدِيقـةٌ !! زعَمَتْ عَـيْنَاكَ نَضْرَتَـها
فـخِلْتَهـا . . وَهْىَ أَعْوَادٌ وأَجْـذَالُ!
ويَا لَهَا نَضْـرَةً! مِنْ سِحْرِ سَـاحِرِها
وحَــولَهَـا دِمَـنٌ غُـبْــرٌ وأطْلاَلُ!!
مَا بَيْنَ كَـهْفَـيْنِ يأْوِى فى ظَلامِهِـمَا
شَـيْطَانُ شِـعْـرٍ لَـهُ نَفْثٌ وبَلْبَـالُ[٢]
يَرْقِى الدَّيَـاجِى فَـتـأْتيـهِ مُلَمْلَـمَـةً
شُعْثاً. .لَهَا فى نَواحِى الكَهْفِ زِلْزَالُ

---

(١) المظلومة: الأرض التى لا يصيبها المطر، يعنى أنها جدباء.
(٢) النفث هنا الشِّعْـر، سُمِّى كذلك لأنه كالشىء ينفُثُـه الإنسان من فيه كـالرُّقْيَة.
البَلْبال: شدة الهم والوساوس.

سُودًا تُكَفِّنُ ضَـوْءَ الشَّمْسِ هَبْـوَتُها
وتَمْـــسَـــحُ الأَرْضَ أَرْدَانٌ وأَذْيالُ(١)

جِنٌّ تَـرَنَّحُ مِنْ سُـكْرٍ ومِنْ نَـصَبٍ
كَأَنَّـهَا فِي ضَمِـيرِ الدَّهْـرِ ضُلاَّلُ(٢)

تُخَـافِتُ الصَّوْتَ وَسْـوَاسًا وهَيْنَمَـةً
كـما تُـهَامِسُ مَـرَّ الرِّيحِ أَوْشَـالُ(٣)

حُـمْرُ العُـيُـونِ كَأَنَّ النَّـارَ مُشْـعَلَةٌ
لها وَبِيصٌ ، وتَـرْهِيبٌ ، وتَسْآلُ(٤)

كَلا . . ولا، وإذا الأَرْجَاءُ صَاخِبَةٌ:
غَـيْظٌ، وثَأْرٌ ، وإقْـدَامٌ ، وإجْفَـالُ

جَيْـشٌ تَجمَّعَ جَـرَّارًا . . إذا أَخَذَتْ
فـيه الرُّقَى خَـضَعَتْ أُسْـدٌ وأَشْبَـالُ

---

(١) الأردان: جمع رُدْن: مقدَّم كُمّ القميص.
(٢) ترنح: حذف إحدى التاءين. النصب: التعب.
(٣) الأوشال: جمع وَشَل، وهو الماء القليل.
(٤) الوبيص: البريق والتوهّج.

أَطَاعَ كُلُّ عَـنِيـدٍ بَعْـد مَــأْبِيَـةٍ
وذَلَّ كُلُّ عَــزِيـزٍ كَــانَ يَخْـتَــالُ
ثَمَّتَ .. لا شَيْءَ! إلا صَـائِدٌ عَجِلٌ
لَـهُ قَــــرِينَـانِ: نَـظَّارٌ وبَـذَّالُ
يَدْعُـو المَعَـانِى فَتَـأْتِى وَهْىَ طَيِّـعَـةٌ
مُحَجَّبَـاتٌ .. عَلَيْـها الحُسْنُ سِرْبالُ
فـمَـاَ يَزالُ يُنَاجِـيـهَـا، وَيَعْـبُـدُها
كَـــأَنَّهُ وَثَنِىٌّ، وَهْـى تِمْـثَـــالُ!

* * *

يا وَعْدُ حَـسْبُكَ! هذَا سَـاحِرٌ فَطِنٌ
لَهُ على مُـرْسَلاتِ الرِّيح إفْـضَـالُ
يَعْلُو الشَّــوَامِخَ لَمَّـاحـًا، وَنَظْرَتُه
كَنَظْـرَةِ الصَّـقْـرِ: إمْهَـالٌ وإعْجَـالُ
يَنْقَضُّ .. يَفْتَرِسُ الأَقْـرانَ مُجْتَرِئـًا
وبَاغِـيًـا، فَـــهْىَ أَشْـلَاءٌ وأَوْصَـالُ

مَـاذَا لَقِيـتَ من الدُّنْيَـا، ومِن رَجُلٍ
لَهُ عَلَيْـكَ تَمِـيـمَـاتٌ وَأَقْــفَـالُ؟!
يَظَلُّ مُنْتَبِـذًا فى الظِّلِّ مُـخْـتَـلَجـًا
ولِلْوَسَـاوِسِ من حَـوْلَـيْـهِ تَجْـوَالُ
وَهْمٌ يُقَلِّبُ فى الآفـاقِ جُـمْـجُـمَـةً
لَهَـا وُجُومٌ ، وإيمَـاءٌ ، وإطْلالُ[1]
يَرْمِى الغُـيُوبَ بعَـيْنٍ لَمْحُـها ضَـرِمٌ
كـأَنَّمـا هِىَ صَـيْـدٌ، وَهْوَ نَبَّـالُ[2]
تَرَاهُ كـالهَامِـدِ الْمُضْـنَى، ومُهْـجَتُـهُ
رَوْعَاءُ .. نَافِرةُ الأَهْوَاءِ .. مِرْسَالُ
جَـيَّـاشَةٌ يَتَـلاقَى مَـوْجُـها لُجَـجًا
كـمــا تَصَــادَمَ بالرِّيَـالِ رِيـبَـالُ

---

(١) الوَهْم: الضخم.
(٢) النبّال: صانع النَّبل، أما الرامى به فهو النابل، ولكن الشعراء جاءوا بكل منهما فى موضع الآخر.

تَرَى الظِّلالَ حَـوالَيْـه مُـفَـزَّعَـةً

لَهُنَّ فِي الـصَّـمْتِ تَعْـدَاءٌ وتَـنْقَـالُ

تَخَالُها الجِنَّ . . تَخْطُو فى مَسارِ بِهَا

والرِّيـحُ سَـاكِـنةٌ ، والقَـيْظُ جَـوَّالُ

أَكَبَّ يَنْظُرُ مـا فـيـهـا، ويَقْـرَؤُها

كَـأَنَّـهُ فى طَوَايَا الجِـنِّ دَخَّـالُ

تَسْـمَعُ لِلنَّفْـثِ هَسْـهَـاسًـا ودَنْدَنَةً

كـأَنَّها الغَـيْثُ فى شَجْـرَاءَ هَطَّالُ[1]

* * *

يا وَعْدُ! مَـالَكَ قد أَقْـعَيْتَ مُنْتَـبِهـًا

كَذِى حِـجًى لِخَبَايَـا العَقْلِ سَـآَّلُ؟!

تَظَلُّ فى غـابَةٍ جَـرْدَاءَ مُـسْـتَـمِـعًا

تُصْـغِى، كَأَنَّكَ للأَشْـعَـارِ حَمَّـالُ!

(١) النفث: مضى شرحه فى هذه القصيدة، ص: ٢٠. والهسهاس من الكلام الذى لا يفهم. الشجراء: الأشجار المتشابكة، وهو مفرد يُراد به الجمع.

تَرْنُو بِعَـيْنَيْـكَ لِلتَّـالِي زَمَـازِمَـهُ[١]
وفى سكُـونك إيمَـــانٌ وَإجْــلالُ
خَـشَعْتَ للرُّقْـيَةِ المأخُـوذِ سَامِـعُهـا
فلَمْ تزَلْ بِكَ .. حتَّى كِـدْتَ تَخْتَالُ
عَلِمْتَ حتَّى نَسِيتَ الطَّبْعَ، فانْتَفَضَتْ
قُـوَاكَ .. والطَّبْـعُ غَـلاَّبٌ وخَـذَّالُ
ورُحْتَ تَبْـغِـى بيَـانًا عن مُـغَلْغَلَةٍ
فى النَّفْسِ، إضْمَـارُها هَمٌّ وإضْلاَلُ
هزَّتْكَ حتَّى اخْتَلَسْتَ اللَّفْظَ مُـحْتَفِزًا
ولم تَزَلْ جَـاهدًا للنُّطْقِ تَحْتَـالُ![٢]
مُـهَـمْهِـمًـا بَعْـدَ تَرْجِيعٍ ولَقْلَقَـةٍ
ولِلِّـسَـــانِ مُـنَاجَـــاةٌ وإهْلاَلُ[٣]

---

(١) الزمازم: جمع زَمْزَمة، وهو صوت خفىٌّ لا يكاد يُفْهَم.
(٢) احتفز الكلب: استوى جالسًا على وركيْه.
(٣) اللقلقة: شدة الصوت. وكل متكلم رفع صوته أو خفضه فقد أهَلَّ.

فَانْتَابَ لَحْيَيْكَ مِن طُولِ اخْـتِلاَجِهِمَا
كَـمَـا يُحَـرِّكُ مِنْ شِـدْقَـيْـهِ قَـوَّالُ!
تَرْوِى قَـصَـائِدَ مِنْ شِـعْرٍ تُقَـصِّـدُهُ
فيـه خَيَـالٌ ، وتَصْوِيرٌ ، وأَمْـثَالُ!!
أَتَيْتَ إِداًّ[1]، وخَالَفْتَ الطِّبَـاعَ بِمَا
لَمْ يَأتِ قَـبْلَكَ لا عَمٌّ ولا خَـالُ!
بَدَّلْـتَ مَـا أَوْرَثَ الآباءُ مُـنْذُ أزَلٍ
فَـرُوِّعَتْ بِك آبَـادٌ وَأَجْـيَـالُ
وَصِرْتَ كالضَّاحِكِ البَاكِى.. أَخا شَجَنٍ
فى سِـرِّ قَلْبِكَ تَعْـذِيبٌ وتَأْمَـالُ
تُفْضِى إلى مُوصَدَاتِ الغَيْبِ مُقْتَحِمًا
ودُونَ مَـا تَبْـتَغِـى ذَبْحٌ وأَهْوَالُ!
فـاقْنَعْ بما كـانَ من نَبْحٍ وبَصْبَصَةٍ
واسْخَرْ بما حَازَ أهلُ النُّطْقِ أو نَالُوا![2]

---

(١) الإدّ: الأمر الفظيع.

(٢) بصبص الكلب: حرّك ذنبه طمعًا أو خوفًا.

تَرَى الأَمَــانِىَّ فِي نَجْـوَاهُ مَــاثِلَةً:

ظِلٌّ ، وطَلٌّ ، وأَسْـحَـارٌ، وآصَــالُ

ونَفْـحَــةٌ مِنْ نَسِـيمِ الخُـلْدِ هَارِبَةٌ

وَرَاحَــةٌ كَرِيَاضِ الخُـلْدِ مِحْـلاَلُ(١)

حَــتَّى إِذَا سَكَنَتْ نَفْسٌ ، وَهَدْهَدَهَا

طُولُ التَّنَاغِــى، وَإِمْـسَــاكٌ وَإِرْسَــالُ

ونَاسَــمَتْـكَ حُـمَيَّــا الحُبِّ مُـسْكِرَةً

ونَاعَسَ الطَّرْفَ إِغْـضَاءٌ وإِسْـبَالُ(٢)

دَبَّتْ إِلَيْـكَ مِنَ الأَدْغَــال سَــارِيَةً

عَقَــارِبٌ ، وشَيَــاطِينٌ ، وأَصْلاَلُ(٣)

لَدْغًا،ونَهْشًا . . فَمَا تَنْفَكُّ مِنْ خَبَلٍ

لِلسَّــمِّ فى الدَّمِ إِضْــرَامٌ وإِيــغَــالُ

---

(١) أرض محلال: تجعل الناس يحلُّون بها لسهولتها ولينها.

(٢) حُمَيَّا الشىء: حدّته وسورته، وأصله فى الخمر.

(٣) أصلال: جمع صِلّ، وهى الحية التى تقتل إذا نهشت من ساعتها.

تبـًّا لَهَـا! ولِخَلْقٍ كُلَّـمَا انْتَـعَشُـوا
تَفَارَسُوا بِنُيُـوبِ البَغْيِ أَوْ صَالُوا[١]
كَمْ ظَالِمٍ عَبَّ كَـأْسَ الظُّلْمِ طافِحَـةً
ثم انْتَـشَى وَهْـوَ تَيَّـاهٌ ومُـخْـتَـالُ!
وَكَمْ صَـدِيقٍ تَفَـانَـوْا فِي مَـوَدَّتِهم
حَـتَّى إِذَا نَـبَـتَتْ أَنْيَـابُهُـمْ جَـالُوا!
فَأَنْـشَبُوا حَـيْثُ لاقَوْا، لا تُرَوِّعُـهُمْ
عَـمَّـا أَرَاغُـوهُ أُمَّـاتٌ وأَطْـفَـالُ[٢]
تَوَالَغُـوا فِي الدَّمِ المَسْـفُـوحِ عَـرْبَدَةً
كَـأَنَّ مَا شَـرِبُوا صَهْـبَاءُ جِـرْيَالُ![٣]
ثُمَّ انْثَـنَوْا وَبِهِمْ من شِـرَّةٍ سَـفَـهٌ
وكُلُّهُـم مَـرِحُ العِـطْفَـينِ مَـيَّـالُ

---

(١) تفارسوا: افترس بعضهم بعضا.

(٢) أراغ الشىءَ: طلبه. أمات: أكثر ما يقـال فى جمع غير العاقل، ولكنهم أحلوا كلا الجمعين: أمّهات وأمّات محل الآخر.

(٣) ولغ: أصله فى الكلب والسبـاع. الصهباء: الخـمر. الجريال: الخمر الشديدة الحُمْرَة.

يَرْتَاحُ لِلدَّمْعِ وَالأَنَّـاتِ، يَسْمَعُهَا
طَلْقَ المُحَيَّا إلَى أنْ يَنْعَمَ البَالُ
فَإِنَّمَا العَقْلُ : إِزْرَاءٌ ، وتَعْنِيَةٌ
وَحَيْرَةٌ ، وضَلالاتٌ، وَأَثْقَالُ
والغَيْبُ غَيْبٌ ، فَمَا سِرٌّ بِمُنْكَشِفٍ
والعُمْرُ والعَيْشُ أَغْلاَلٌ وأَكْبَالُ!

* * *

وَفَيْتَ يا وَعْدُ! هذا شَاعِرٌ ظَلَمَتْ
فِيهِ النَّوائِبُ ظُلْمًا، وَهْيَ جُهَّالُ
فَفَرَّ مُعْتَزِلًا أَرْضًا وسَاكِنَهَا
ولِلكَرِيمِ عَنِ الآفَاتِ تَرْحَالُ
آنَسْتَهُ بِصَدِيقٍ لاَ تُدَنِّسُهُ
خَلاَئِقُ اللُّؤْمِ .. تَمْلِيقٌ وإِدْغَالُ[1]

---

(١) أدغل فى الأمر: أدخل فيه ما يُفسِده.

وَفَـيْتَ يا وَعْدُ! فى دُنْيَـا صَدَاقـتُهـا
كـمــا تلَفَّعَ بالظَّلْـمـاءِ مُـغْـتَـالُ
وَأَهلُهَــا شَــرِهٌ ضَــارِ، كَــأَنَّ بِهِ
مِنْ شَـهْـوَةِ الفَـتْكِ ذُؤبَانٌ وأَغْـوَالُ
وخــائِنٌ يَتَــراءَى فـي مُلَمَّــعَــةٍ
بالصِّدْقِ، والصِّدْقُ فى بَيْدَائِهِ آلُ![1]
وَنَاسِكٌ هَـجَـرَ الدُّنْـيَــا وأنكَـرَها
وخَـوفُــهُ مِنْ عَـذَابِ اللـهِ إعْـوَالُ
تَرَاهُ يَخْــشَعُ فـيِ أَسْـمَــالِهِ رَهَـبًا
وبَيْنَ جَنْبَــيْـهِ فَـتَّـاكٌ ومُـخْـتَـالُ!
وبَاسِمٌ . . بَاسِـمُ العَـيْنَيْنِ مُـؤْتَلِقٌ
كـما تَـرَقْرَقَ في الغُـدْرَانِ سَلْسَـالُ
حُلْوُ الحَدِيثِ .كَأَنَّ الرَّاحَ ما شَرِبَتْ
أُذْنَاكَ، وَالْـوُدَّ أَنْسَــــامٌ وأَظْـلالُ

(١) المُلَمَّعة: الأرض يلمع فيها السراب. الآل: السراب.

أُفٍّ لِمَا حَمَلَتْ أمٌّ وما وَضَعَتْ
غَدْرٌ، ولُؤْمٌ ، وطُغْيانٌ، وإسْلاَلُ![1]

* * *

نَظَرْتَ، يَا وَعْدُ، مُرْتَابًا إلى نَفَرٍ
كَأَنَّهُمْ مِنْ صَفَاءِ الرُّوحِ أَبْدَالُ[2]
تَحَيَّرُوا فِيِ نَوَاحِي الأَرْضِ، وَالْتَمَسُوا
وَاسْتَنْفَضُوهَا، فَسَالَتْ حَيْثُمَا سَالُوا[3]
تَهَارَبَتْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ خَلاَئِقُهَا
كَمَا تَهَارَبَ تَحْتَ الحَقِّ خَتَّالُ[4]
فَأَشْرَفُوا كَالذُّرَى نُبْلاً.. فأنْفُسُهُمْ
إذَا تَطَلَّعْتَ فِي الآفَاقِ أَجْبَالُ

(١) الإسلال: السَّرِقة.
(٢) الأبدال: الأولياء والعبَّاد.
(٣) تحيروا: ذهبوا وجاءوا فانتشروا في كل مكان، وأصله فى الماء الكثير. واستنفض الناقة وما أشبهها: استقصى عليها حلبها فلم يدع فى ضَرْعها شيئًا من اللبن.
(٤) الختال: المخادع.

مَــــاذَا أَرَابَكَ مِنْهُــمْ؟ أَمْ رَأَيْتَــــهُمُ
فى حَيْثُ رُعْبُ الصَّدَى لِلصَّوْتِ عَذَّالُ؟!
فى مَـعْــزِلٍ لَمْ تَطَأْهُ قَـبْلَـهُمْ قَـدَمٌ
فأَرْضُهُ - خَـشْيَةَ السَّارِيـنَ - مِغْوَالُ
وحيثُ دبّـتْ إياةُ الشمسِ خـائفةً
أَزَلَّهـــا عن ذُرى الأغـصـــانِ تَزْوَالُ
وَحَـيْثُ حَشْـرَجَتِ الظَّلْمَـاءُ مُعْـوِلَةً
كَـمَــا تُسِــرُّ أَنِينَ الَّـليْلِ مِـثْكَالُ
وَحَـيْـثُ أَنْتَ وَحِـيــدٌ لا أَنِيسَ لَهُ
إِلَّا جَـوًى حَـائِرُ الـسَّـاعَـاتِ زَوَّالُ
حَـيْثُ المَقَـــادِيرُ أَلْقَـاءٌ مُـبَـعْـثَـرَةٌ
مِنْ حَوْلِ شَيْخِكَ، وَالأَيَّامُ أَهْمَالُ(١)
يَا وَعْـــدُ! لا تَكُ مُـرْتَابًا، فَـــإِنَّهُمُ
مَالُوا إِلَيْكَ . . وَلَوْلا أَنْتَ مَـا مَالُوا

---

(١) الألقاء: جمع لَقًى، وهو الشيء المُلْقَى المهمل لا يُعْبَأ به. أهمال: كأنه جمع هَمَل، وهو الشيء المتروك الضـال، جمعها أسـتاذنا - اقتداراً على عـربيته - مثل: قَلَم وأقلام.

هُمُ الصَّدِيقُ، وإنْ جاءُوكَ فى زمَنٍ
خَيْرُ الصَّدِيقِ بِهِ خَبٌّ ودَجَّالُ!(١)

فَانْسَ إِلَيْهِمْ، وخَفِّفْ مِنْ لَوَاعِجِهِمْ
فَأَنْتَ أَكْرَمُ . . والمِفْضَالُ مِفْضَالُ!

* * *

يا وَعْدُ! حُيِّيتَ مِنْ ذِى نَبْحَةٍ فَضَلَتْ
نُطْقَ الخَلائِقِ . . إكْرَامٌ وإِجْمَالُ

لَمَّا غَدَوْتَ مِنَ السَّاجُورِ مُنْطَلِقًا
كُنْتَ الحَفَاوَةَ، لا كِبْرٌ ولا خَالُ(٢)

وَجِئْتَ مُبْتَهِجَ العَيْنَيْنِ مُبْتَسِمًا
مُبَصْبِصًا، فَهُمُ ضَيْفٌ ونُزَّالُ(٣)

وَرُحْتَ تَمْسَحُهُمْ بِرًّا وتكْرِمَةً
وَذُو المُرُوءَةِ لِلمَعْرُوفِ فَعَّالُ

(١) الخب: اللئيم المخادع.
(٢) الساجور: القلادة أو الخشبة التى توضع فى عنق الكلب. الخال: الاختيال والتكبّر.
(٣) بصبص الكلب: حرك ذنبيه طَمَعًا أو خوفًا.

تَرْنُو إلىَ صَـدَعٍ أَرْخَـى مُـبَـيَّـضَـةً
نَسَّاجُـهَا الدَّهْرُ . . وَالأَيَّامُ مِنْوَالُ(١)

فَـانْظُرْ بَنانًا كَنُورِ الـفَجْرِ لَمْـحَـتُـهُ
تَنْجَـابُ عَنْهُ الـدَّيَاجِي وَهْىَ فُـلاَّلُ

يَرِفُّ فِـيـهِ شُـعَـاعٌ مِنْ قَـرِيحَـتِـهِ
إذَا تَمَـــزَّقَتِ الآرَاءُ وَصَّـــالُ

أَنَامِلُ الـسِّـــحْـــرِ فيِ الجُلَّى أَنَـامِلُهُ
النَّـارُ وَهَّاجَـــةٌ، وَالـغَـيْـثُ هَـطَّالُ

فَلَيْسَ يُـعْـجِـــزُهُ عَـمَّـــا يُحَـاوِلُهُ
صَعْبُ المِـرَاسِ، وَلا يَثْنِيهِ عُـقَّالُ(٢)

فيِ كَـفِّـهِ أَنْمُـلاَتٌ نَـبْـضُـهـا نَغَمٌ
مُـغَرِّدٌ في ضَـمِـيرِ اللَّفْظِ زَجَّـالُ(٣)

* * *

(١) الصَّدَع: الصُّلْب القوِىّ. مُبَيَّضَة: الثوب بيّضه صانعه، أى جعله أبيض.
(٢) العُقَّال: ظَلَع يأخذ فى قوائم الدابة.
(٣) الزجّال: الذى يبالغ فى رفع الصوت، وخُصّ به التطريب.

لا تعودى !

لا تعودِى . . أحرقَ الشَّـكُّ وُجودِى . . لا تعودِى
اذهبِى مـا شـئتِ . . أنَّى شـئـتِ فى دنيـا الخُلودِ
واتركى النـارَ التى أَوْقَـدْتِهـا تـقْـضِمُ عُـودِى
هـى بَرْدٌ وسَـلامٌ يـتلـظَّـى فى بُـرودى!
فاسـعَدِى فى شِقْـوةِ الرُّوحِ . . ولكنْ . . لا تعودِى!

* * *

أنتِ والأقـدارُ! . . كَـمْ قـاسـيتُ منـهنَّ ومنكِ!
هى تـأتى بـيـقينٍ خـائنٍ فـى إثْـرِ شَكٍّ
ثـم أنـتِ الشَّـكُّ فـى إِثْرِ يَـقـينٍ لم يَـخُـنْكِ
وأنا سَـائِلُـكِ الحَـيْـرانُ عـنهنَّ وعَـنْكِ
فـأجيـبى، واذهبى إنْ شئتِ . . لكنْ . . لا تَعُـودى!

* * *

اللَّـظَى زادىَ!! فــهـل يَنْفــعُنى زادٌ ممـيتُ؟!
اللَّظَى رُوحُكِ؟ أم رُوحى سَعـيرٌ مُسْتَميتُ؟!
كُلَّمـا مَّـرتْ به النَّسْمَـةُ من وَجْـدِى حَـيِيتُ
أَهْىَ تُحْـيِينى إذا مَــرَّتْ بنارِى.. أم تُميتُ؟!
خَبِّـرِينى، واذهبى إنْ شئتِ.. لكــنْ.. لا تعودى!

* * *

أنا كـــالنَّـارِ تَغَــشَّــاهـا مِنَ الموتِ رَمَـــادُ!
أَحـديثٌ منكِ يُحْـيِينى.. أَمْ الصَّمْتُ المُعَـادُ؟
أَمْ نسـيمُ الحُبِّ؟ أَمْ هَجْـرُكِ؟ أَمْ هذا البِــعـادُ؟
أأنا حـىٌّ ولا أدرِى.. أَم الحىُّ الجـــمَـــادُ؟!
خَبِّـرينى، واذهبى إنْ شئتِ.. لكـنْ.. لا تعودى!

* * *

هذه الرِّيـبــةُ فى رُوحىَ مـن سِــرِّ حَـيَــاتى
بَعـثتْ وَجْدِى.. فـدَبَّ الشَّوقُ منها فى رُفـاتى

فَجَّرَتْ أَغْـمَضَ ما أَخفيْتُ فى جَـوْفِ صَفَاتى[1]
فــإذا وَرْدُكِ نجــواىَ.. وأشــواكى شَكَاتى!
اسمـعيها، واذهبى إنْ شـئتِ.. لكنْ.. لا تعودِى!

* * *

أنتِ! مــا أنتِ سِــوى شكَّىَ فى طُولِ حنينى!
كلُّ مــا فِــيكِ من الأوهـامِ حقٌّ فى يقــينى
المُنَى والـوَجْــدُ والصَّــبْــوَةُ نـبعٌ من ظُنُـونى
أنتِ إيمانىَ.. بـل كُـفـرِىَ.. بل أنـتِ جُنونىِ!
أنتِ..لا أنتِ! اذهبى إنْ شئتِ..لكنْ..لا تعودِى!

* * *

مــا ســمــائى؟ هى إظْلامٌ ورَعْــدٌ وبُروقُ
لا أَرى نَجْمى.. ولا فـيـها غُـروبٌ أو شُـروقُ
صَـخَبٌ يهـدِمُ بُنْيـانى.. ورُعْبٌ.. وخُـفـوقُ
ووَمِــيضٌ هـو فى رُوحى حَــريـقٌ وفُــتُــوقُ

(١) الصفاة: الصخرة الصلبة.

اشهدى، ثم اذهبى إنْ شـئتِ.. لكنْ.. لا تعودِى!

* * *

ثم.. مـا أَرْضِىَ؟! زِلـزالٌ، وجَـدْبٌ، وصُـدوعُ
ظَـمَـأٌ يَغْـتَـالُ آمـالِى.. وأشـواقٌ تَلوعُ
هذه الأوهـامُ من حَـولـىَ أطيـافٌ تَروعُ
أينَ؟ لا أين!.. ضَلالٌ.. بل خِداعٌ.. بل هُلوعُ
أَقْـبِلِى، ثم اذهبى إنْ شئتِ.. لكنْ.. لا تعـودى!

* * *

حَـيْـرتـى فـيكِ وفى نفـسىَ مـن طُولِ انتظارى
حَـيْـرةُ الذَّرَّةِ فى الرِّيحِ بمجـهـولِ القِـفَـارِ[1]
تَشـتكى لِلَّيلِ مـا تلقـاهُ من شَـمْسِ النَّـهـارِ
لا كُـؤوسُ الغَيْثِ تَسـقـيهـا.. ولا الموتُ يُوارِى
اذهبى.. ثم اذهبى إنْ شـئتِ.. لكنْ.. لا تعودى!

* * *

---

(١) الذَّرَّة: النملة الصغيرة.

أنا فــى العُـــــزْلة لا آنَـسُ إلا بارتـيــــابِى
الأفاعِى الصُّمُّ والوَحْشُ الضَّوارِى من صِحابِى(١)
فى دَمِى تَشْــتَفُّ.. أو تَنْهَـشُ رُوحِى وإهَابِى(٢)
فـتـعــالَىْ.. واسـألِى كـيف رَأتْنِى.. لا تَهـابِى
اسمــعيها، واذهبى إنْ شـئتِ.. لكنْ.. لا تعودِى!

* * *

كــيفَ لا تأنَسُ فى الرِّيـبـةِ بِنْـتُ الظُّـلمــاتِ؟
مُهْــجتِى.. أُمُّ الخِـصَامِ الـمُــرِّ.. مَـهْدُ النَّزواتِ
خُلِقَـتْ لليـــأْسِ والبـــأس وطَىِّ الحـــسَرَاتِ
وارتكابِ الـفَـرَحِ النَّـشـوانِ فـــوقَ العَـــبَــراتِ
لا أُبالى.. فاذهبى إنْ شـئتِ.. لكنْ.. لا تَعودِى!

* * *

مــا دِمائى؟! هِـىَ أشواقِىَ من جُـرْحِى تَفـيضُ!

---

(١) الصم: جمع صَماء، وهى الأفعى لا تجيب الرَّاقى.
(٢) تشتف: اشتف الشيء: تَقَصّى شُربه حتى أتى عليه. الإهاب: الجِلْد.

شُعَلٌ ذابتْ من اللَّذات.. أو وَجْدٌ غويض[1]

ليتَها تَبقَى.. كما تبقى الأمانى لا تغيضُ!

حَبَّبَ الشَّكَّ إلى قلبىَ إيمانٌ بَغيضُ!

أنتِ جُرْحِى..فاذهبى إنْ شئتِ..لكنْ..لا تعودِى!

* * *

قَدْ صَحِبتُ اللَّيلَ، واللَّيلُ اكتئابٌ وارتياعُ

ظُلُماتُ الصَّمْتِ لا يَنفُذُ فِيهنَّ شُعاعُ

حَسْرةٌ تُطَوى عَلى أُخرَى.. وَهَمٌّ وضَياعُ

وأحاديثُ لهـا فى النَّفْسِ هَدٌّ ونِزاعُ

أَنْصتِى، ثم اذهبى إنْ شئتِ.. لكنْ.. لا تعودى!

* * *

قلتُ: يا نَجْمِىَ.. هذا الَّليلُ .. فاسطَعْ وأَعنِّى

اهدْنى.. هذِى فَلاةٌ ودليلٌ ضَلَّ عَنِّى

(١) غويض: كذا بالأصل المطبوع، وليس فى اللغة مادة غوض. وظنِّى أنها: غريض، والغريض الطرى الطازج العَذْب من كل شىء.

كَلُّ مــا أخـشَـاهُ أو أرجُـوه قَـدْ أفْلـتَ منِّى
اهدنِى . . أو لا . . لقد ضِعْتُ . . فَغِبْ يا نَجْمُ ! إنِّى . .
لا أبالى . . فاذهبى إنْ شـئتِ . . لكنْ . . لا تعودى !

* * *

أنتَ يا نَجْمِيَ كـالذِّكْـرَى . . عَـذابٌ وارتيـاحُ
ظَفَـرٌ يَخْـبُـو وقَـدْ ضَرَّم آمـالى الطِّمـاحُ
لكمـا فى النَّفْسِ أضـواءٌ تُدَمِّـيـهـا الجِـرَاحُ
هكذا السَّـعْـدُ . . إذا مـا لامَـهُ نَحسٌ مُـتَـاحُ !
أنتِ نَجْمِى . . فاذهبِى إنْ شئتِ . . لكنْ . . لا تعودِى !

* * *

سَاعـةٌ فَـرَّتْ إلى الذِّكْـرَى . . إلى غـيرِ مَآبِ
تَتـجلَّى كـالخُلودِ الـغَضِّ فى بَرْقِ الشَّـبـابِ
سَـعَّـرَتْ لـلرَّاحلِ المُنْبـتِّ هَمِّى وطِـلابِى
فَـهْىَ تَخْـتَالُ لـتُضْـرِينىَ - من خَلْفِ حِـجَـابِ
مَـزِّقِيـه ، واذهبى إنْ شـئتِ . . لكنْ . . لا تَعـودى !

* * *

هَلَكَ الماضِي!.. أمَـا تَهْلَكُ ذِكـراه فَـتـفنَى؟!
أَهْوَ مـالُ الحيِّ فى دُنيـاه يَحْـويه ليَـغْنَى؟!
أمْ ثِمَـارُ العُمْـرِ قد أنضجهـا الشَّوقُ لتُـجْنَى؟!
أمْ هـو الشُّـحُّ الذى لَـوَّعَ أرواحًا وَأضْـنَى؟!
لستُ أدرى!.. فاذهبى إنْ شئتِ.. لكنْ.. لا تعودِى!

* * *

هذه السَّـاعـاتُ تَنْسَـابُ كـأنْ لـم تَكُنِ!
هِيَ كـالحَـيَّـاتِ غـابَتْ فى كُـهـوفِ الزَّمنِ
رُقْـيَـةُ الذِّكْـرى أطارتْ حَـيَّـةً مِنْ وسَنِ(١)
فـأرتْنِي القَـلْبَ نَشْـوانَ بسُمٍّ الفِـتَنِ!
فتنةَ الماضِي! اذهبى إنْ شئتِ.. لكنْ.. لا تعودِى!

* * *

أَهِـيَ الجِنُّ تَـجـلَّتْ لـى.. أراهـا وتَرانـى؟!
وَسْوسَتْ لى الشَّكَّ فى صَمْتكِ عنِّى كَىْ أُعانى؟!

---

(١) الوَسَن والسِّنَة: النعاس من غير نوم.

أَسْـمَعُ النَّـبْـأَةَ تأتينـى بغَـيْبٍ كـالبَـيَـانِ؟!
فَـهْيَ حَقٌّ مِلْءُ أسماعى.. وحقٌّ فـى عِيَـانِى؟!
أُصْـدُقِينى، واذهبى إنْ شئتِ.. لكنْ.. لا تعودى!

* * *

أَمِنَ الإنسِ تَـغـارُ الجنُّ؟ أمْ كـيـفَ أقـولُ؟!
أَهْيَ مِنـهنَّ التى تَخْـتِلُ عَـقْلِى وتَغـولُ؟![1]
هذه الأَشْـبَـاحُ فى شَـكِّيَ تَبْـدُو وتَزولُ؟!
كُلَّمـا آمنتُ.. لا رَيْبَ.. أتى الرَّيْبُ يَـجُـولُ!
فإلى الجِنِّ اذهبى إنْ شئتِ.. لكنْ.. لا تعودِى!

* * *

ذَكِّـرى تـلكَ التى تُخْـفِـى عَـذابِى واحْـتِـراقِى
هِـيَ أَدْرَى مِـنْـكِ لا شَكَّ.. ولـكـنِّـى أُلاقِـى
اسـأَليـهـا السِّلْمَ.. فـالسِّلْمُ نَجـاةٌ من فُـواقِ[2]

---

(١) تغول: تُهْلك.
(٢) الفواق: الموت، أو خروج النَّفس عند الموت.

واذْكُـــراَ أنِّــى على حَـــرْبِكـمـــا لَسْتُ بِـبَــاقِ

ذَكِّرِيها، واذهبى إنْ شئتِ. . لكنْ. . لا تعودِى!

* * *

لا تعودِى. . أحرقَ الشَّكُّ وُجودِى. . لا تعودِى!

اذهبى مــا شـئتِ. . أنَّى شِـئْتِ فى دنيـا الخُلودِ

واتركى النَّــارَ التى أَوقــدْتِهـا تَـقْـضِمُ عُــودِى

هِـىَ بَرْدٌ وسَـــــــــلامٌ يـتَلـظَّـى فى بُـرُودِى!

فاسعَدِى فى شِقْوةِ الرُّوحِ. . ولكنْ. . لا تعودِى!

* * *

أنا. . لا كُنتِ، ولا كـانَ قَصـيـدِى أو نَشيـدِى

لوعـــةٌ تُمْـلِى على الأكــوانِ آلامَ العَـــبـيـــدِ

أنا فــى الرِّقِّ أُعَـــانِى ثَـورةَ الحُـــرِّ العَـنيـــدِ

أَتَحــــدَّاكِ. . ولـكنِّى ذَليـلٌ فى قُــيـــودِى!

لا تَرِقِّى، واذهبى إنْ شئتِ. . لكنْ. . لا تعودِى!

* * *

نَفَـثَـاتُ السِّـحْـرِ تَنْسَـابُ الأفـاعِى فى رُقَـاها
هِـىَ بِـنْـتُ اللَّـيـل والأوهامِ . . لـكـنِّى أراهـا
كُلَّمـا نـازعْـتُـهـا السَّـيْـر رَمـتْنِى فـى خُطاها
نَفَـثاتُ السِّحْرِ! مـا يفعلُ فى رُوحى صَـداها؟!
انفثيها، واذهبى إنْ شئِت . . لكنْ . . لا تعودِى!

* * *

هذه الزَّهْـرةُ من نَضْـرِتـهـا نَفْحُ الجَـمـالِ
الشَّـذَى والحُـسْنُ حُـرَّاسٌ على سِـرِّ الجَـمَـالِ
أذبلَـتْـهـا زَفْـرةٌ مِـنِّى . . ولكنْ . . لا أبـالِى!
فـأنا الـنَّارُ . . وكـالنَّارِ ارتيـابى واشـتـعـالِى
لا أبالى . . فاذهبى إنْ شِئتِ . . لكنْ . . لا تعودِى!

* * *

يوم تهطال الشجون

نشرت بمجلة الزهراء، الجزء الثالث فى ربيع أول ١٣٤٥هـ
سبتمبر ١٩٢٦م

أيُّها الرَّاسِفُ فى أغلالِه إنَّك اليومَ لَموْهونٌ مَنِينْ
ذَلَّ ذو التَّاجِ على رُغْمِ لِقيً ونأى عنه.. وقد عزَّ القَطينْ(١)
أذْؤبُ الدَّهرِ ترامَتْ نَحْوَه دَخلوا الأرضَ دُخولَ الفاتحينْ
عَلِمَ اللهُ، فَما نالوا به عِزَّةَ النَّصْرِ ولا الفتحَ المبينْ
ما هُمُ غيرُ سَعالٍ قُبِّحَتْ(٢) خَدَعوا الناسَ وغَرُّوا الجاهلينْ
قَيَّدَ الأعداءُ مَنْ كانَ لهُ ساجِداً فِرْعَوْنُ فى ضَعْفٍ ولِينْ
قَيَّدَ الأعداءُ مَنْ فاضَ على جانبِ غَضٍّ ومَجْنونِ العَرينْ(٣)
قَيَّدَ الأعداءُ من حَلَّ به دينُ عبدِ اللهِ محمودِ الأمينْ
يا سَبيكَ السَّامِ فى مُصْبَحِه وسَبيكَ الوِرْقِ فى وَقتِ الكُمونْ(٤)
تُرْسِلُ الشَّمْسُ طويلاً نُورَها فنرى فيكَ سُيوفَ القاتلينْ

---

(١) الخدم. (٢) جمع سعلاة وهى الغول
(٣) جَنَّ النَّبتُ: اعتَمّ واكتهل. وجنُّ النبت: زَهرُه ونَوْرُه. والعرين: الشجر.
(٤) السام: عروق الذهب فى الصخر. المصبح: الصباح. الورق: الفضة. يراد كمون الشمس فى كبد السماء ساعة الزوال.

أوْقفوا سيرَكَ سُجْحًا قُدُماً[١] ... بدِمـاءِ الواهنـينَ العَـاجـزينْ
قَسَمًـا . حَقًّا لئن طُلَّ دَمِى ... فـفِداءُ النيل مـالى والوَتِينْ[٢]
أجدُ الموتَ صبـيباً وجنى[٣] ... فى هوَى مصرَ مَراحِ العَاشقينْ
أجدُ الموتَ كؤوسًـا قَرْقَفًا[٤] ... أنتشى حِينًا وأصْحُو بعدَ حينْ
لكِ نَفْسِى وحَيَاتـى وقُوًى ... تَزْدَهِى مُسْتَصْعِبَ الرَّأيِ الوَزينْ[٥]
أنا لا أحْـفِلُ مـا مـوْعِـدُه ... والإلهُ القـادرُ البـارِى مُـعينْ

* * *

نِيلَ نَفْسى . . لكَ نَفْسى وهوًى ... فى دَمٍ مِنْ مائكَ الجارِى المَعينْ
خَـرَّ فرعـونُ، وهامـانُ عَنَا ... لِجلالٍ فى تَـراقيك[٦] كَمينْ
سِرْتَ فى الأيامِ لاتَلوِى على ... دَارِسِ الدَّارِ، وشَيَّعْت السِّنينْ!
وأبو الهَوْلِ حَزينٌ مُغْرَبٌ[٧] ... دَمْعُـهُ فى نِيْلهِ سَكْبٌ هَتُونْ

---

(١) سار سُجْحًا أى: مشى مشيةً سَهْلةً.
(٢) الوتين: عرق الحياة فى قصرة الإنسان.
(٣) الصبيب والجنى: العسل والشهد.
(٤) من أسماء الخمر. (٥) الراجح.
(٦) جمع ترقوة، وهى من جسم الإنسان عند المنكب.
(٧) من قولك: أُغرب الرجل – بالبناء للمجهول –: اشتد به الوجعُ والمرض.

دَامعٌ وَجْـدًا على أنحـسنا   يَقْلِبُ الكَـفَّ ظُهُـورًا لبُطون
فـتراه شـاحـــبًا مُنضـويًا   قد بَراه طُولُ تَهطالِ الشُّجونْ
سَمَلَ الدَّهْرُ عُـيوناً أبصرتْ   نَصْـرَ مـــوسى وهو للهِ أمينْ
سِـمَـةُ الدَّهرِ يَدَ الدَّهْرِ تُرَى   وعيونُ السَّمْلِ فى القَلْبِ عُيونْ
زَفْـرَةً أو عَبْـرَةً تجْـرى على   أسْجَحِ الخدِّ وما الدَّمْعُ ضَنينْ
لم يكُنْ للقلبِ فى مَسكنِهِ   غيـرُ زَفْراتٍ لمسجـونٍ حَزينْ
وَطَنِى لـو غُلَّ فى أغــلالِه   لَمْ يكن حىٌّ سوَى قلبى حَرونْ(١)

* * *

يا شَباب النيلِ لا تسعَوْا إلى   مِعْولِ الهَدْم، وردُّوا الهادمينْ
مَجْدُكم ضاع، وما خلَّفَ مَن   أمسكَ الشُّـهْبَ وقاد المالكِينْ
ليس بالصِّلِّ ولا الفِلْقِ الذى   يتبع القومَ إلى أرضِ المَنونْ(٢)
اعملوا.. هبُّوا.. أقيموا ظِلَّكم   اقطعوا جُـرثُومةَ الداء الدفينْ
تخِذوا «التجديد» دِرْعًا مانعًا   صولةَ الحقِّ وحقَّ الكاتبِينْ (٣)

(١) الحرون هنا بمعنى الشموس الذى لا يقهر.
(٢) الصِّلُّ والفِلْقُ: الداهية الذى لا يُغْلَب.
(٣) هذا البيت تفسير لما قبله. أى أن الداء الدفين يحسن قطع جرثومته، وهى اتخاذ الملاحدة التجديد درعًا مانعًا صولة الحق.

ليس بالحقِّ سِوَى القَوْلِ الذى جدَّلَ البـاطِلَ بين الهالكين[١]
أجمِعوا وَثبةَ لَيْثٍ مُخْدرٍ يحْطِمُ الصَّخْرَ، وعَزْمًا لا يلينْ
لا تَرَوْا أرضَ الحِجَى يَقْدُمُها لَجبُ الجهْلِ وجَيْشُ الغاصبين[٢]
يُظْهِرُون الوُدَّ. . ودُّوا لو تُرَى غَفْلَةُ الناسِ لَهمُّوا حاطِمينْ!
جَعَلوا «الدستورَ» تُرْساً دُونَهم أفَهَدْمٌ هُوَ فى عِلْمٍ ودِينْ؟!
بَرِئَ «الدستورُ» من ظِنَّتهم[٣] ليسَ فى «الحَقِّ» مُحاباةُ البنينْ!

* * *

أُمَمَ الإسلامِ لم يبقَ لكمْ غيرُ مَجْدٍ جُبَّ تبكيه الشُّئون[٤]
كنْتِ للدهر قرينًا فغدا يَعْبثُ الكُفْرُ بوَضَّاحِ الجبين[٥]
لسْتُ أدرى. . ألِضَعْفٍ صَمْتُكم أم دَهاكم ما دَهَا الدَّارَ الشَّطون؟![٦]
دَوْلَةَ الحقِّ أقيمى عَرْشَهُ واخْذُلى الكُفْرَ وأُخْرَاه الكَمون[٧]

---

(١) جَدَّله: رماه على الأرض صراعًا.
(٢) اللجب: الجيش يموج بصوته
(٣) التهمة.
(٤) جب: انتقص. والشئون: مجارى الدمع.
(٥) يشير إلى غمامة الإلحاد التى تراءت فى سماء الإسلام الصافية.
(٦) الشطون: النازحة البعيدة.
(٧) الكمون التستر والاستخفاء.

بُلْبُلُ الحــقِّ دعَــاكم دَعــوةً   أسعِدُوه لاتَلوذوا بالدُّجونْ(١)
يا فــؤادى. .قَلَقٌ مــا بكَ أم   غادرتْنى مِررَاُلقلبِ الرَّكينْ؟!(٢)
خَــفَقَ القَلْــبُ بعُــقَّــالاته(٣)   خَفَقانَ السيفِ فى الحَرْبِ الزَّبونْ
لَيْسَ مَنْ يطلبُ حــقًّا لاهيًــا   غيــرَ مِلْغٍ فَيِّلِ الرأىِ أفينْ!(٤)

* * *

إيهِ يا مِصرُ! وواهًا. .فالبُكى   فَطَرَ القَلْبَ وأرْسَــالُ الأنينْ(٥)
ذُرِفَ الدَّمْعُ وغنَّاه الــشَّــجَى   يومَ حَيْنِى سوفَ أَلْقى بعد حينْ(٦)
وغــدًا أو شِيــعَــهُ أُلْقَى على   مُحكَمِ الأعوادِ فى ثوبِ جَرِينْ(٧)
غــايةُ المــرءِ إلى الرِّيم الذى   يأكلُ العالَمَ دَهْرَ الدَّاهــرينْ(٨)
لستُ أبغى الخَمرَ دِينًــا. . إنما   نُهْيَةُ الخمــر مُلاقاةُ الجُنونْ!(٩)

(١) الإسعاد: الإسعاف والمساعدة. والدجون: الإقامة
(٢) الثابت الذى لا يتزحرح.   (٣) العقالات: الأغلال
(٤) الملغ: الأحمق الرأى. فيل أفين: وصف لضعيف الرأى.
(٥) الأرسال جمع رَسل، وهى الجماعات.
(٦) الحين: الموت.
(٧) يقال أقمت به شهرا أو شيعه: أى نحوه. الجرين: المتهدل مزقًا.
(٨) الريم: القبر.
(٩) الدين: العادة. نُهْية الخمر: غايتها.

لا، ولا النسْوَةَ يَقصرُنَ الخُطَا فـيـرَدِّينَ فُـرَادَى ومِـئين
عِـفَّـةٌ كـالمَيْـسَانىٍّ وَهَتْ وحَيَاءٌ لا يُرَى حتى يبينْ[1]
لا يُبَالِينَ بِطِنْءٍ مُـهـجِـرٍ ظُنَّ. . والليلُ مواتاةُ الخَدينْ[2]
ويبادرن إلى السُّوقِ ضُحًى يَتَرجْـرَجنَ مع الكِفْلِ البدينْ

* * *

نَصحَ الناصحُ قَـوْمًا نكَبُـوا سَنَنَ المَجْدِ ونـاموا هادئينْ[3]
رحمةُ الله لهم. . هَلْ علموا أنللمجدِ رجالاتٍ دَهينْ؟![4]
فإلى المجدِ خِفَافًا. . أو دعوا عَلَزَ الدَّاءِ وحـزَّازَ الأرونْ![5]

* * *

(١) الميسانى: نسبة إلى ميسان، بلدة بالعراق تنسب إليها الثياب الرقيقة. ويبين: يبعد.

(٢) الطنء: الريبة. والمُهْجِر: الفاحش. المواتاة: الوصل. والخدين: الحبيب.

(٣) نكبوا: عدلوا عن الطريق. وحذف حرف الجر اتباعا للفصيح كقوله تعالى: ﴿وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون﴾، أى: كالوا لهم أو وزنوا لهم. والسنن: الطريق.

(٤) دهين: جمع ده، وهى والدُّهاة بمعنى.

(٥) علز الداء: ألمه. والحزاز: وجع القلب. والأرون: السم.

النَّجمُ الواثبُ.. والصُّبحُ الثائرُ! (١)

نشرت بمجلة الزهراء، الجزء الرابع فى سنة ١٣٤٦هـ ١٩٢٨م

نَجْمٌ كقَلْبِ المُحِبِّ يضطرِبُ　　يدعو سَوادَ الدُّجَى ويرتقبُ
كساهُ فَجْرُ النَّهارِ بُرْدتَه　　بيضاءَ تُطْوَى بَنْشرِها الشُّهبُ
فجنَّها تحتَه .. فأغضبها　　فأصبحتْ وَهْيَ داؤها الحَرَبُ(٢)
غَضْبَى ونَارٌ فى صَدْرِها سُعِرَتْ　　وما كنارٍ لَهيبُها الغَضَبُ
تزفِرُ فى بُرْدِهِ بألسنةٍ　　من نارها فى الحِجَابِ تلتَهِبُ
تأبى عليهِ أَنْ ضمَّها فَغدَتْ　　عن أعينِ الناظرينَ تَحتجبُ
فَهْيَ تشُبُّ النيرانَ تأكُله　　غَيْظاً كغَرْثان عضَّه السَّغَبُ
يا ويلَ بُرْدِ النهارِ من شُعَلٍ　　فى جَوفِه ما تزالُ تَحتَطِبُ(٣)
عَما قليلٍ يشِفُّ أبيضُه　　والجَمْرُ يبدو كأنه الذَّهَبُ

(١) هذه كلمة فى صفة مغيب النجم فى بحر النهار، ثم شروقه كالظافر فى جو السماء.

(٢) الغضب.

(٣) تتسقَّط الحطبَ وتطلبه.

حتَّى يشُجَّ[1] البياضَ أحمرُه ... فيُصبحُ الأُفقُ كلُّه لَهَبُ
ويحرِقُ البَرْدَ حَرُّه فتَرى ... سِلاب[2] ثكْلَى قدنالها العَطَبُ
والنَّجْمُ بادٍ، كأنه أسَدٌ ... تبرُقُ عيناهُ.. هزَّه الطَّرَبُ
وجِسْمُه فى سوادِهِ غَرِقٌ ... ما تبرحُ الجسمَ هذه السُّلُبُ[3]
مما غدا ظافرًا، فريستُه ... نَجيعُها فى البحارِ مُنسكِبُ

* * *

أقبل هذا النهارُ يطلُبُه ... والثأرُ غَيْظٌ يحثُّه الطَّلَبُ
أنْ حَرَّقَ البُرْدَ بُردُهُ وغدا ... يَضْحكُ فى نَصرِه ويهتضِبُ[4]
يحتالُ فى ثأرِه، فَسِىء به ... إذْ كُلُّ حَوْلٍ[5] يراه ينشعِبُ
فقال: بُردِى سِجْنٌ أجدِّدُه ... للنَّجْمِ حتى يُنِدَّه[6] الهَرَبُ

* * *

حالُكما باعِثٌ على سَخَرٍ ... خصومُ لَهْوٍ شؤونُهم عَجَبُ!
حَتَّى مَتَى أنتما على لَعِبٍ؟! ... أما يُقَضَّى المِزاحُ واللَّعِبُ؟!

---

(١) يخالطه فيغلبه.
(٢، ٣) السِّلاب والسُّلُب ثيابٌ سودٌ تلبسها المرأة المُحِدَّة الحزينة.
(٤) اهتضب فى الحديث: اندفع فيه دفعة بعد دفعة حتى يرتفع الصوت. واستعير هنا للإغراب فى الضحك آناً بعد آن.. حتى يعلو هُزءًا وسخرية.
(٥) حيلة. (٦) يشرده : يطرده.

تُصـرِّفان الأمـورَ فى عَـبَثٍ   أما تروضُ السِّنونَ والحِقَبُ؟!
شَنِئْت[١] وَجْهَيْكُما، وبادرنى،   فيماأرى، مسرعٌ، هو الغضبُ

* * *

يا صُبْحُ أَعْـيَتْكَ حِـيلةٌ أفلا   تَسْـمعُ قَـولـى؟ لعلَّه أرِبُ!
كُنْ أنتَ بحـراً يَـطُمُّ عـالَمَنا   واجعلْ نُجومَ السما هى الحَبَبُ
والثـأرُ أدركـتَـه بما قَـتَلتْ   دُنياكَ دنيا، مـا إنْ لها نَسَبُ!
فـمـا لهـا ثـائرٌ لمقـتِلـهـا   ومـا عليـهـا باكٍ ومُنْتَـحِبُ!

* * *

عَجِّلْ، فقد غَالَ نفسىَ اللغَّبُ   وصادَ قلبى فى غِرَّةٍ وَصَبُ[٢]
كَذاكَ جُـلُّ الأنامِ أحسبـهم   هذى أحـاديثُـهم. .وذا أرَبُ
ليـستْ مُناهم مآربٌ شُـعَبٌ   لا. .بل مُناهم إليك. .مُنقَلَبُ[٣]

* * *

(١) كرهت.
(٢) الوصَبَ : الوَجَع والمرض.
(٣) شعب: متفرقة، ليست على أمر واحد.

كلمة مُوَدِّع !

نشرت بمجلة الزهراء، الجزء الخامس فى سنة ١٣٤٧هـ ١٩٤٨م

كان أخى السيد محمود شاكر يساعدنى فى تصحيح (إعجاز القرآن) للباقِلاَّنىِّ، ويعتمد فى التصحيح على صورة شمسية قدمتها له، منقولة عن نسخة قديمة من هذا الكتاب. فلما أزمع السفر من القاهرة إلى مكة أعاد إلىَّ النسخة الفطوغرافية، وكتاباً آخر مع خادمهم شفيق الحبشى.. وبعث معه بهذه الكلمة البليغة:

.. محبّ الدين (١)..

سلام الله عليك ورحمته وبركاته..

---

(١) محب الدين الخطيب، من كبار الكتاب الإسلاميين ولد فى دمشق وتعلم بها وبالآستانة. استقر بالقاهرة وعمل محرراً بالأهرام، وأصدر مجلتى الزهراء والفتح. وكان من أوائل مؤسسى جمعية الشبان المسلمين. توفى سنة ١٩٦٩ انظر ترجمته فى الزركلى ٥: ٢٨٢.

هاكَ الفُطُوغرافُ، وهاكَ المُسْندُ　　إليكَ يَسْعى حَبَشىٌّ أسوَدُ
لا يعرفُ الغِمْدَ ولا ما يُغْمِدُ　　لو كانَ يَدْرىأن كُلًّا عَسْجَدُ
وأنَّ فى الطىِّ هُدًى لا يَخْمَدُ　　لؤلؤةٌ تحتَ الضِيَا تَوَقَّدُ
ضياءُ عقلٍ نُورُهُ يُجَدِّدُ　　كلَّ قديمٍ لم تُهَنِّدْهُ يدُ
لنَا . . لنَا منه هُرُوبٌ مؤْيدُ　　يُنْبَشُ عنهُ كلَّ يومٍ فَدْفَدُ
وَهْوَ على الدَّهرِ مُغيرٌ مُنْجِدُ　　حتَّى يُلاقينَا بعِلْمٍ يُحْسَدُ
نَحْمَدُ منهُ بَعْدُ ما لا يُحْمَدُ　　لَمَّا غَدَا يَعلمُ ما لا يُجْحَدُ
وربَّ أمْسٍ مرَّ يُنْسيهِ غدُ

* * *

أغنية الملاح التائه

إلى صديقى على محمود طه

صاحب «ليالى الملاح التائه»

نشرتها الأهرام يوم الاثنين:

٩ صفر الخير سنة ١٣٥٩هـ

١٨ مارس سنة ١٩٣٤م

مع بعض التحريف!!

«١»

أيُّهـا المَلّاحُ .. سَاحِلْ بالشِّـرَاعْ[١]

وخُـضِ اللُّجَّـةَ فى ضَـوءِ الشُّـعَـاعْ

وَتَأنَّ .. وتَـغَنَّ

وَامْلأ السَّاحِلَ أنْغَامـًا وأَحْلامًا وِسَامَا[٢]

وَاسْكُبِ النَّشْوَةَ فى الكَأْسِ حَلالًا وَحَرَاما

تُطْرِبِ البَاكِي عَلَى أحْزَانِهِ .. عَامـًا فَعَامَا

إِنَّمَـا العَيْشُ لِمَنْ خَـادَعَ عَـيْنَيْهِ فَنَامَـا!

أيُّهـا المَـلَّاحُ سَـاحِـلْ بالشِّـرَاعْ

وخُـضِ اللُّجَّـةَ فى ضَـوءِ الشُّـعَـاعْ

وَتَأنَّ .. وتَـغَنَّ

* * *

(١) ساحل: أتى الساحلَ وأخذ عليه.

(٢) وسام: جميلة، على الاستعارة، فهو مما يوصف به الإنسان.

«٢»

زَاحِمِ اللُّجَّةَ باللَّحْنِ الطَّرُوبْ
وَارْمِ أَضواءَكَ فِى لَيْلِ الخُطُوبْ
.. وَتَملَّ وتَجَلَّ(١)

وكُنِ الفَجْرَ عَلَى السَّاحِلِ سِحْرًا وشبَابَا
وَتَغَلْغَلْ فِى ضَمِيرِ الرَّمْلِ، وَاسْتَمْلِ الشِّعَابَا
أَيْقَظِ النَّائِمَ .. قَدْ نَامَ أنِينًا وَاكْتِئابَا
إنَّمَا الدُّنْيَا لِمَنْ نَازَعَهَا الكأْسَ اغْتِصابَا
وتَغَابَى .. وتَصَابَى

أيُّها المَلَّاحُ سَاحِلْ بالشِّرَاعْ
وخُضِ اللُّجَّةَ فى ضَوءِ الشُّعَاعْ
وَتَأَنَّ .. وتَغَنَّ

* * *

(١) تَمَلَّى الشيء: استمتع به. وتَجَلَّى: نظر فأمعن النظر.

«٣»

هَاتِ يا مَــلَّاحُ أَلْحَـانَ العُــبَـابْ
كــغِنَاءِ الدَّمِ فى مَــوْجِ الشَّبَــابْ
وتَهَدَّ . . وتَــبَدَّ
زَوْرَقٌ يَسْــبَحُ والأَنْجُـمُ تَنْهَلُّ علـيْـهِ
هُوَ يجْرى . . وَهْىَ تُجرِى ضَوْءَها بَيْنَ يدَيْهِ
وعَذارَى اليَمِّ فى الضَّوْءِ سَــريعاتٌ إِلَيْهِ
أيُّها الـتَّائِهُ . . والدُّنيا حِـفَافَىْ جَانِبَيْهِ!
كَيْفَ ضَلَّتْ عَنْ يَدَيْهِ؟
وأَضَلَّتْ مُـقْـلَتَيْـهِ؟!
أَيُّهَــا المَــلَّاحُ سَاحِـلْ بالشِّــرَاعْ
وَخُضِ اللُّجَّـةَ فى ضـوءِ الشُّعَـاعْ
وَانْــزِلِ الــوَادِى بِـنَــاىٍ وَيَــرَاعْ
فى سُـهُـولٍ وسُــفُـوحٍ ويَفَـاعْ[1]

(١) اليفاع: المرتفع من الأرض، كالتَلّ ونحوه.

لَحْنُكَ الـيَمُّ، ولَحْنِى من سَــرَابْ!

فَاشْــدُ ألْحَانَــكَ . . أَحْلامَ الشَّــبَابْ

وتَــغَــنَّ وتَــأنَّ!

* * *

نَفْثَة قَدِيمَة

نشرت لأول مرة مع كتاب المتنبى
في مجلة المقتطف عدد يناير ١٩٣٦

ذكَــــرتُكِ بَيْنَ ثَنَايا السُّطورِ
وأضْـــمَـــرْتُ قَلْبِىَ بَيْنَ الكَلِمْ
ولَسْتُ أَبُوحُ بما قَــد كَــتَـمْتُ
ولَوْ حَـــزَّ فى النَّفْسِ حَــدُّ الأَلَمْ
تُمَزِّقُنى - مَا حَيِيتُ - المُنَى
فَــأَرْقَعُ مَــا مَــزَّقَتْ بالظُّلَمْ
فكَمْ كَــتَمَ اللَّيْلُ مِنْ سِــرِّنَا
وفِى اللَّيْلِ أَسْرَارُ مَنْ قَــدْ كَتَمْ
تَشَــابَهَ فِى كَتْمِ مـا نَسْتَسِــرُّ
سَــوَادُ الدُّجَى ، وسَــوَادُ القَلَمْ!

* * *

من ديوان البغضاء:

انتظرى بُغضِى

نشرت بمجلة الرسـالة، السنة الرابعة فى ١١ ربيع الأول ١٣٥٥هـ
أول يونـيـــو ١٩٣٦م

حَبَبْتُكِ، والأوْهَامُ فِكْرِى، وحُجَّتِى
تُؤلِّبُ بَعْضِى -فى هَواكِ- على بَعْضِى
إذا ما نَقَـضْتُ الرَّأىَ بالرَّأىِ؛ رَدَّنِى
إلى خَطَرَاتِ الوَهْمِ مَضٌّ على مَضِّ[1]
أُصَـارِعُ أهوالًا من الغَـيْظِ والرِّضَى
وما يتولَّى الغَـيْظَ فَوقَ الذى يُرْضِى
عَـجِبتُ لِمنْ رَاضَ النِّسَـاءَ ورُضْنَه
ويَقْضِينَ من إيلامِـهِ دونَ ما يقضِى!

---

(١) المضُّ: الهمُّ والحُرْقَة والحزن.

ويَرْمِيـنَـه بالسَّـهمِ. . ليس بِضَـائِرٍ
ويَرْمى بما يَحْمِى الجُفُونَ عن الغُمْضِ[١]

فكـيفَ بـه قَــــدْ ذَلَّ وَهْوَ مُـكَرَّمٌ
وأغضَى..ولو قَدْ ناصبَ الدهرَ لم يُغْضِ!

كـفَى بكَ ذُلًّا أن تَبِيتَ على جَـوًى
وتُصبِحَ فى ذِكْرَى، وتُمْسِى على رَمْضِ[٢]

كـأنَّكَ لم تُخْلَـقْ لِدُنْيـا تَجُـوبُهـا!
وما أَضْيَقَ الدُّنيا من الحَدَقِ الـمُرْضِ![٣]

فَـهُـنَّ اللواتِى زِدْنَ فى العَـيْشِ لذَّةً
فـأقْصَـيْنَ لذَّاتٍ من الفَـرَحِ المَحْضِ

* * *

شكَكْتُ. . وقد تُنْجِى من الشَّـرِّ رِيبةٌ
وتُبْـدِلُ مُـسْـوَدَّ الحُـظوظِ بِمُـبْـيَضٍّ

---

(١) يحمى: يمنع.
(٢) الرمض: حُرْقَـة الغيظ، وهو: بالتحـريك، وسكَّنه أستـاذنا للضرورة، وأصله شدة حرّ الشمس.
(٣) الـمُرْض: جمعها أستاذنا على غير قياس، والقياس: الـمِراض.

لقدْ كُنتُ أمـضِي طائعاً غيـرَ جَامِحٍ
وأَرْضَى بإطْراقِي على الرِّيْبِ أو غَضِّ
ويفضَحُـنى فيكِ اقتحامِـى وغَيْرَتى
وَطْرفِى، وما جَسَّ الأطبَّاءُ من نَبْضى
ويأكُلُ قَـلبِى مـا أُكـتِّمُ راضِيًـا
فما بكَتِ العَيْنُ الشَّبابَ الذى يمضِى!
وأنتِ. . لعَـمْرِى فى سُرورٍ وغِـبْطَةٍ
يَسُرُّكِ بَسْطِى فى الحـوادثِ أو قَبْضِى
أأُنثَى ووَحْشٌ؟! جَلَّ خَـالِقُ خَلْقِـه!
وسُبْحَانَ كاسِي الوَحْشَ من رَوْنَقٍ غَضٍّ!

* * *

وأَعْـجَبُ منـهُ لَذَّتِى ومَسَـرَّتى
على حِينِ نَهْشى فى المخالبِ أو نَفْضِى
فيا سُـوءَ ما أَبْقَيْتِ فى الدَّمِ من لَظًى
وفى الفِكْرِ مِن كَلْمٍ وفى القَلْبِ مِن عَضٍّ(١)

---

(١) الكلم: الجُرْح.

أَخافُكِ فى سِرِّى وجَهْرِى، ومَشْهَدِى
لَدَيْكِ وَغيْبِى، خَوْفَ أَرْقَطَ مُنقَضِّ[١]

* * *

لَقَدْ كنتِ أحلامى - إذا الليل ضَمَّنِى،
وكنت إذا ما الفَجْرُ أَيقَظَنِى - رَوْضِى
يُناجِيكِ طَيْرٌ فى الضُّلُوعِ بِلَحْنِه
لقدْ عاش فى سِحْرٍ، وقدعِشْتِ فى خَفْضِ[٢]
وكنتِ على وَرْدِ الخمائل زِينةً
وكان بَشيرَ الفَجْرِ فى الفَنَنِ الغَضِّ
فأَصْبَحْتِ.. لاخيراً فيُرْجَى، ولا لَقًى
فيُلْقَى، ولَسْتِ من سَمائى ولا أَرْضِى

* * *

تَصامَمْتِ عن قَلْبى ورُمْتِ مَساءَتى
وتَنْتَظِرِينَ الحُبَّ! انْتَظِرِى بُغْضِى[٣]

* * *

(١) الأرقط: النَّمر، صفة غالبة غلبة الاسم للونه، فأصل الرَّقْط: سواد يشوبه نُقَط بياض أو العَكس. (٢) الخفض: لِين العيش ونَعْمته.

(٣) حق هذه الهمزة أن تكون همزة قطع لاستقامة الوزن. وأكثر ما يكون قطع الهمزة فى أول الشطر الثانى، ولكنه ورد فى الشعر فى حشو البيت، وذلك من ضرائر الشعر.

حيرة

نشرت بمجلة الرسالة، السنة الرابعة فى ٢٩ جمادى الأولى ١٣٥٥هـ
١٧ أغسطس ١٩٣٦م

أشَابَ القَلْبُ أم كَرِهَ الشَّبَابا؟
وبان الأُنْسُ أَمْ نَسِىَ الإيابا؟!
وغالَبَنى الأسى أَمْ غالَبَتْنى
حياةٌ تَجْعَلُ الفَوْزَ اغتصابا؟
أتَغْصِبُنى الدُّموعُ الصَّبْرَ حَتَّى
أرَى الدُّنيَا أنينًا وانتِحَابا؟!
ويُبْدِلُنى الزَّمانُ من التَّصَابى
ومِنْ طَرَبى وُجُومًا واكتِئابا؟!
وأَسْأَمُ لَذَّةَ الدُّنْيا، ولَمَّا
أذُقْ مِنْ لَذَّةٍ إلَّا حَبَابا![1]

(١) حباب الماء: فقاقيعه التى تطفو على سطحه، ضربه مثلاً لقلة ما نال.

فـــأَزْجُـرُ لَذَّتـى زَجْـرَ اليـتـــامى
إذا مـــــا الدَّهْـرُ أمَّ بِهـم ذِئَابـا
أفى وَهَج الشَّبَـابِ أعـــودُ هِـــمًّا
يذودُ بضـعفـه النُّوَبَ الصِّعَـابا؟![1]
وَأُطْرِقُ للـحــوادثِ مُـــسْـتكـينًا
كـجـانى الشَّـرِّ يـنتظرُ العِـقَـابا!
وأُصـــبحُ فى يدِ الدنـيـا أسـيـراً
إذا رَام الفِـكاكَ وَهَـى وخَـــابا!
كـمــا عَلِقَ الحِـبَـالَـةَ ذُو جَناحٍ
ولم يَنْفَعْـهُ أن صحِبَ السَّحابا![2]
فـصــفَّقَ.. ثم رَنَّقَ.. ثم أَعْـيَى
يَحِــنُّ لدارِه جَـــواً وغَـابـا[3]

* * *

(١) الهِمّ: الشيخ الضعيف.
(٢) علق الحِبالَة: نَشَب فى شَرَك الصائد. صحب السحـاب: حلّق فى الجو علواً حتى لامس السحاب.
(٣) صفَّق الطائر بجناحيه: ضرب بهما. رنَّق الطائر: كَسَر جناحيه من داءٍ أو رَمْى حتى يسقط.

أَمِنْ عَــدْلِ الحــوادثِ أَنْ أُضَــرَّى
لأَطْعَــمَ إثْرَ لــذَّتِهِــنَّ صَـــــابا؟!
وأَنْ أستَــقْبِلَ الغَــدَ مُــسْتَتِيــبًا
فــيُــقْــبِلَ.. لا أفَــادَ ولا أثابا؟!
وأحَـــمِــلَ من بــناتِ الهَــمِّ قَلْبــًا
إذا نَهْــنَهـــتُــــهُ زاد اضطــرابا؟!
جــزاكِ الله من دنْيَــا خَــتُــولٍ..
غَـذَوْتِ الـقَلْبَ شكًّا وارتيـــابا![1]

* * *

أتنهـــانِى عن الجَـــزَعِ اللَّيـــالى
ومـــا تَنفكُّ تَتـــرُكُنى مُــصَـــابا؟!
فـتَـسْــلُبنى الأَحِـبَّـةَ عَـنْ عِـيـانٍ
وتَمــنَحُنــى بذِكْــرَاهم عَـــــذَابا

---

(١) الختول: المُخادِعة.

وتسـألُـنى اختـداعـاً: أين بانوا؟

ومَنْ يُجْـرِمْ توقَّـحَ أو تغَـابَى![1]

سَلِى ما شئتِ، واستمعى شكَاتى

كـمِـثْلِ الدَّمْعِ تَـنْسكِبُ انسكَابا

أَعَـدْلٌ منكِ أنْ أجَّـجْتِ قَـلْبى؟!

فلولا الـصَّـبْـرُ يُمْـسِكُـه لذابا!

فـصَارعتُ الشُّجـونَ وصَـارعـتنِى

إلى أن فُـزْتُ بالبُـقْـيَـا غِـلابا

فـإنَّ الدَّهْرَ يُـنصِـفُ مَنْ تَأبـَّى

ويَمـنعُ يائـسًا مـن أَنْ يُجـابا!

ومَـنْ يُعْـطَ التَّـجَـلُّدَ لـلرَّزايـا

تَـيَـقَّنَ أن يُـصـيبَ وأن يُصـابا

* * *

(١) بانوا: ذهبوا وبعدوا وتفرَّقوا.

وسـائـلةٍ بظَهْـرِ الغَـيْـبِ عنِّى
وعَنْ جَـلَلٍ من الأحـداثِ نـابا
تُذكِّـرُنِـى الأحِـبـَّـةَ يـومَ وَلَّوْا
فـزادَ الدَّمْعُ والجَـزَعُ انـتـيـابا
أَحَـافِظَتِى.. فـديـتُكِ من صـديقٍ
يُسـائِـلُ مَنْ مَـضَى عنِّـى وآبا
هِيَ الدُّنْيَـا.. تُفَـرِّقُ سـاكنيـهـا
وفى الذِّكْـرَى.. تَزيدُهمُ اقـترابا!
ألا لا تَعْـجَـبِى لىَ مـن نَحِـيـبِى
فـإنَّ أمـامَـنا العَـجَبَ العُـجَـابا!

* * *

من ديوان البغضاء:

عقوق ..

نشرت بمجلة الرسالة، السنة الرابعة فى ٢٤ شعبان ١٣٥٥هـ
٩ نوفمبر ١٩٣٦م

مِلْ بِنَا يا فُؤادُ! نَنْسَى المودَّاتِ، ونُلقِى إلى العَداوةِ حَبَّا
وتَعالَىْ يا ربَّةَ الأَرْقشِ الخَدَّاعِ، وارْعَىْ ما بينَ جَنبيَّ خِصْبَا[1]
وَجناحَيْكِ، فانشُرِى وأَظِلِّى بُقعةً من مَقابرِ الحُبِّ جَرْبَا
وامنعى نَفْثَةَ الوفَا واحجُبيها رُبَّ ذِكْرَى أَحيَتْ مَواتًا أَجبَّا[2]
وانظرى نَظْرةَ العُقَابِ إذا أَبْصرَ صَيْدًا، فرامَه فَاشْرأبَّا
وانفُضِى النَّاسَ نَفْضةَ الأَسَدِ المجروحِ أشلاءَ صَيْدِه والإِرْبا
وتَعَالَىْ. أنا الصَّديقُ، ويا أعجبَ مَنْ يَجعلُ العَداوةَ صَحْبَا!
ولئن كانَ ما رَعَيْتِ من الأضلاعِ جَدْبًا، فلنْ أَسومَكِ جَدْبَا
واعلمِى أَنَّنى تَرَكْتُ وفاءَ الحُبِّ زُهدًا، ورُمْتُ فيكِ الحُبَّا

* * *

(١) الأرقش: الحية فيها نقط سواد وبياض، وأكثر ما يقال: الرقشاء، والحية تُذكَّر وتؤنَّث.
(٢) الأجب: أَجَبَّ الشيءَ: قطعة واستأصله.

هذه كفٌّ خـائضٍ غـمَـراتِ الحُبِّ أَبْلَى فـيـها بـلاءً صَعْـبَـا

مُسْتَميـتًا. . قد غالَبَ الموتَ والحُبَّ ونال الحياةَ كَسْبًـا وغَصبا

وانْـثَـنَى مُـثْقَلَ الكَواهِـلِ عُذْرا مُـثْخَـنًا بالجـراح تَدْمَى دَأْبا[١]

تِيك أُنـثَى! ودونَهـا الآبِدُ الطَّـاوِى إذا سَاوَرَ الفَـرِيسةَ وثْـبا[٢]

يا لِعَيْنيكِ. . . شَبَّتَا فى دَمِى النارَ شُواظاً، يَعُبُّ فى الدَّمِ عَبَّا[٣]

وبَنانٍ أَقْـسَى من القِـدِّ فى النَّفْـسِ، وإنْ خِلْـتُـه بَنانًا رَطْـبَـا!

* * *

آهِ مِنْ غَفْلةٍ. . إذا خَطَرَتْ لى مـلأَتنِى غَيْظًا وحِقْـدًا وحَرْبًا[٤]

قـد رَمَـتْنِى فى جَـاحِمٍ يـتَلَظَّى فـإذا مـاتَ أَرَّثَـهُ فـشَـبَّـا[٥]

أَوَفَـاءً لِغَـادرٍ يتَـسَلَّى بعـذابى؟! تَــبًّـا - لذا الحُبِّ - تَـبَّـا!

الْـمَحَبَّاتُ تَقْتُلُ القَلْبَ قَـتْلاً والعَداواتُ تُردِفُ القَلْبَ قَـلْبَا![٦]

---

(١) دَأْبا: يعنى لا تتوقف، يقال: دَأَبْتُ دَأْبًا، أى اجتهدت فى الشىء فلم أقصّر.

(٢) الآبد: المستوحش المنفرد. الطاوِى: الجائع.

(٣) يعب: يندفع كالعُباب، أى الأمواج.

(٤) الحوب هنا: العَداوَة.

(٥) الجاحم: جاحم النار توقدها. أَرَّث النار: زاد فى وقودها.

(٦) يردف: يُتْبِع. القلب: تحويل الشىء وصَرْفِه عن وجهه الذى كان.

فتعالَىْ.. يكُنْ كـمكْرِكِ مكْرِى وأكُنْ فى الحُروبِ رَوْعـًا ورُعْبَا
لا تُولِّى وتتـرِكـينى وحـيداً. لسـتُ أبغِى بغـيرِ قُـربِكِ قُـرْبَا
وانفُثِى فِىَّ نَـفْثَةَ السِّـحْرِ حَتَّى أَقْـهرَ الناسَ والأُسـودَ الغُلْبَا[1]
فَـألَـدُّ الأعـداءِ مَنْ عَلَّمَـتْـهُ مِـحَنُ الحُبِّ أن يَعُقَّ الحُـبَّـا!

* * *

(١) الغُلْبا: الغلاظ الرِّقاب، وهى صفته لازمة للأسود، وتستعار لسادة الناس.

من ديوان البغضاء:

أَلَسْتِ الَّتِى ...؟!

نشرت بمجلة الرسالة، السنة الخامسة فى ٢٩ شوال ١٣٥٥هـ

١١ ينـاير ١٩٣٧م

بَلَى! كنتِ فى قلبى سِـرَاجًا يُضِيـئُه

فـيَــفْـتَـرُّ عن أنوارِه كـلُّ جـانبِ

وكنتِ حـيــاةً للحيــاةِ تُمِــدُّها

بأفـراحِـها فى عَـابسـاتِ المصـائبِ

وكنتِ لـىَ البَـرَّ الوَديـعَ إذا غلَتْ

بأمــواجِـهــا وادَّافَـعتْ بـالمناكبِ

وكنتِ نَسِيـمًا واللَّظَى يَنْشِفُ اللَّظى

ويَتْـرُكُ ظِلَّ الدَّوْحِ ظِلَّ اللَّواهبِ[1]

---

(١) اللظى يَنْشِف اللظى، أى هو دفعات متتابعة يأكل بعضها بعضا.

وكنتِ مَـلاذِى والشُّــؤون كـأَنَّهـا

من الدَّمع يَنْبُـوعٌ يَـجِيشُ بغَـارِبِ[١]

وكنتِ إذا مـا العَيْنُ مَـدَّتْ هُيَـامَهَـا

إليكِ تَـلقَّـتْـهـا أَحَنُّ التَّــرائبِ

وكنتِ كـأنفاسِ الرِّياضِ، عَـبيـرُها

على الفـاقِـدِ المحزونِ فَـرْحَـةُ آيبِ

* * *

بَلَى! كنتِ. . كنتِالسِّحْرَتبدوصُدورُه

من الخَـيْرِ تُخْـفِى منه شَرَّ العـواقبِ

أرى الحَـيَّـةَ الرَّقْطاءَ أَجْــمَلَ منظرًا

وأَلْيَنَمَـــسًّا من ثُدِىِّ الكــواعبِ[٢]

إذا مـا تـراءَتْهَـا العُــيـونُ بَرِيـئَـةً

من الخَـوفِ خـالَتهـا دُعـابةَ لاعبِ

---

(١) الشؤون: مجارى الدمع. الغارب: الكثير الماء حتى يفيض.

(٢) الحية الرقطاء: التى فى لونها نُقَط بياض يشوبه سواد.

تدانَى إلــى اللَّاهِي دُنُوَّ مُــقــارِبِ
فــيدنو ويُدْنِي كـفَّـه كالـمُـداعبِ[1]

ألا ارْفَعْ يداً.. واذْهَبْ بنَفْـسِكَ رَهْبَةً
فَمِنْ حُسْنِها نابٌ شـديدُ المعَاطبِ!

* * *

بَلَى! كنتِ.. إذْ عَيْنِى عليها غِشَاوةٌ
وإذْ أتردَّى من سَــوادِ الغــيــاهبِ

وأُخــرى على عينِ البَصــيرَةِ خَـيَّلتْ
لنفــسِى هُدَاهــا بالأمَــانِى الكَواذبِ

أُرَى من تكاذيــبِ الخَــيــالِ كــأنَّنى
إلى جَنَّةِ الفِــرْدَوْسِ أحْـدُو رَكـائبى

أُغنِّــى لآمَـــالى لأبْـلُغَ غـــايتى
وأُدرِكَ لـذَّاتى، وأَجْـنِى مـطـالبـى

---

(١) تدانى: حذف إحدى التاءين.

وما ذاكِ إلَّا راحةُ القَلْبِ بالهوَى
وبالوُدِّ فى عَيْشٍ شَديدِ المتاعبِ
وأَنْ أَرِدَ الماءَ الزُّلالَ - ولم أَرِدْ
وقد عِشْتُ دَهْرًا - غَيْرَ رَنْقِ المشاربِ![1]
ألا فاعْلمِى أنِّى ظَمِئتُ، وأنَّنى
تَجنَّبْتُ -جُهدِى- الماءَ جَمَّ الشَّوائبِ
فَجِئْتُكِ ظَمْآناً يَمُوتُ بِغُلَّةٍ
فأغْرَيْتِ بِى الغُلاَّتِ من كُلِّ جانبِ!

* * *

لقدْ كُنتُ خِلْوًا أنتحِى حيث أشتهِى
وأرْضَى وآبَى.. مُقْدِمًا غَيْرَ هائبِ
تُسَهِّلُ لِى الصَّعْبَ الأَبِىَّ عَزيمَتى
ويكْفُلُ لى صِدْقِى قضاءَ مآرِبى
وأرمِى بنفْسِى فى المهالكِ باسمًا
لأَنْفُذَ منها باسِمًا غَيْرَ خائبِ

(١) الرنق: الماء الكَدِر.

فَوَاحَزَنَا! . . أضْلَلْــتُ عَزْمى وهِمَّتِى

وأيْتَمْتُ أفكارِى. . وَضيَّعْتُ واجِبِى!

تَخشَّعتُ تَحْتَ الحُبِّ وَالوَجْدِ وَالجَوَى

وَطولِ اضطرابِى فى الهُمومِ الغَوالِبِ

أذَلَّ شَــبابى الحُــبُّ حَــتَّى رأيــتُنى

أمُــرُّ بأتَرابــى مُــرُورَ المُجــانِبِ[1]

وأخْــسُــدُهم مِــمَّــا لَــقِيتُ، وَإنَّنى

لأَخْــشَى عليــهم مِــحْنتِى وَتَجــارِبى

* * *

ألا وَيحها!! كَمْ بِتُّ أرْقُبُ طَيْــفَها!

وَكم سَهِرَتْ عَينى نَجِيَّ الكَواكبِ![2]

وَكَمْ طُفْتُ بالــبَيْــدَاءِ أَطْلُبُ خَلْوَةً!

وَأُرْسِلُ طَرْفى فى ضَــلالِ المَذاهبِ!

---

(١) الأتراب: مَنْ هُم فى مثل عمرك، المفرد: تِرْب.

(٢) النجيّ: المُناجِى.

أمـثِّـلُها حِتَّـى أكـادَ أَمَـسُّـهـا!
وأُلقِي إليـهـا مـا تَضُمُّ جـوانِبى!
وأَشـتـاقُـهـا وَالبَـحْـرُ بَيْنى وبينهـا
وَبِيـدٌ تعَـاوَتْ بالـرِّياحِ الغَـواضِبِ!
فلمَّـا التقيـنَـا ضَمَّنَا الشَّـوقُ وَالهوَى
وَكَانَ حَديثَ الوَصْلِ صَمْتُ الرَّغائبِ
وَلكنْ. . رَمَتْ بـينى وَبينَكِ بَعْـدَهُ
ضَرِيبةُ أُنْثى. .وَهْىَ شَرُّ الضَرَائبِ!(١)
فأطْلَقْتِ فى إثْرِى الضَّـوارِى مُجِدَّةً
تُعَـانُ على أنيـابِهـا بالمخَـالبِ
تُمَـزِّقُـنى أَلْحَـاظُهـا وَعُـيـونُـهـا
كـأنِّىَ أُرْمَـى بالسِّـهَـام الـصَّـوائبِ
يُفَـزِّعُنـى ظِلِّى إذا مـا لَمَحْـتُـه
وَقد غـالَنى رُعِبـى وَسُدَّتْ مَهـارِبى

(١) الضريبة: الطبيعة والخليقة.

فمـا كِدْتُ أنجـوُ بالحُشَـاشةِ بعـدما
تَلَقَّيْـتُ من حُبِّيكِ شـرَّ النَّـواكبِ(١)

* * *

ألا لا تقولى كيفَ كنتِ!!.. فإننى
أرى كُلَّ أُنثَى شـرُّها غَـيْـرُ غـائبِ!
تَرومينَ منِّى الـوُدَّ بُقْـيَا عَلَى الذى
مضى؟!.. خابَ فَألِى أن أرَى غَيْرَ ثائبِ!
ترومينَ منى الوُدَّ؟!.. تِلْكَ عَجيبةٌ!
وأسعَى لِذَبْحِى؟! تِلْكَ أُمُّ العَجائبِ!
تَشَهَّـيْتِ لَحْمًـا، فاتَ مـا تشتهـينَه
فلمْ يَبْقَ من لَحْمِى طَعامٌ لِسَاغبِ!(٢)
تَملَّيْـتُ هذا البُـغْضَ حَتَّـى رأيتُنى
أُربِّبُ حَيَّـاتِى وَأغذُو عَـقـاربى!(٣)

---

(١) حُبِّيك وحُبُّك بمعنى.
(٢) الساغب: الجائع.
(٣) تَملَّى الشيء: صاحبه ولازمه زمنًا. أربب: أنمّيها وأتعهّدها.

فـإنْ يَكُ بُغْـضِى كلَّ ذَنبٍ جَنَيْـتُـه
إليكِ، فـإنِّى لسـتُ منه بتـائبِ!

وكـيف.. وقد أنْهكْتِـنى وعَرَقْـتِنى
وقُدْتِ علَىَ قلبِى جُيوشَ النوائبِ؟![1]

ذَرِينى.. ولكـنَّ الحـيَـاةَ مليـئـةٌ
بِكُنَّ!.. فما فىِ الأرضِ مَنْجًى لهاربِ!

* * *

(١) عرَق اللحم: أخذه فلم يبق إلا العظم.

رَمَاد

نشرت بمجلة الرسالة، السنة السابعة فى ١٢ ذى القعدة ١٣٥٨هـ
٢٥ ديسمبر ١٩٣٩م

لا تَعْبَثِي بفؤادِي ... وأكْرِمِي آلامِي
شَبَبْتِ فى القَلْبِ نارًا ... من لَوْعةٍ وهُيَامِ
أضْللتِنى عَنْ حَياتِي ... بِلَذْعةٍ واحتِدامِ
فما أخافُ ورائى ... غَيْبًا، أراهُ أمامى
أرتَابُ حَتَّى أرانِى ... فى حَيْرةٍ وظَلامِ
فى مَهْمَهٍ مِنْ شُكوكٍ ... قَفْرٍ من الأعْلامِ(١)
لا أهتَدِي لِنَجاةٍ ... فى أُفْقِهِ المُتَرامى
اسْوَدَّ ليْلِى، وصُبحِي ... مُلَفَّفٌ فى قَتَامِ(٢)
فلا أرى من دَلِيلٍ ... يَهْدِى خُطَى أقدامى

---

(١) المهمه: الصحراء الواسعة المقفرة. الأعلام: علامات توضع فى الطريق ليُهتدى بها، المفرد: علَم.
(٢) القتام: الغُبار.

صَحِبتُ نَفْسِي، ونَفْسِي   من صُحْبَتِي فى اضطرامِ
كـــأنَّـنا فـى زِحــــامِ   يَرمـى بنا فـى زِحـــامِ
مُجَرَّحَـيْنِ كُـلُـومًا   مِنْ صَـدْمَـةٍ ولِطامِ[1]
حـــتَّى أُبِيَـــدَتْ قُــوَانا   فنحنُ صَــرْعَى مُـدَامِ
ثُمَّ اسْـتَـفَـقْتُ فطارتْ   لَـواهِـبٌ فى عِـظَـامـى
قَلْبـى ورُوحِي وعَــيْـنى   - وكـلُّـهن ظَـوامـى -
لا يَهْــتَـدِينَ لِبَــرْقٍ   مُــبَــشِّــرٍ بِـرِهامِ[2]
ولا لِنُـطْفَـــةِ مــاءٍ   تَـبُلُّ حَــــرَّ أُوَامِ[3]
وعُــدْتُ فَـرْدًا وَحِــيدًا   يَجُـوبُ غَـوْلَ المَوَامِى[4]
حَـيرانُ أعمَى عَـجـولٌ   مُـصَـوَّرٌ من سَـقَـامِ[5]
يكـادُ يَعْــثُـــرُ وَهْـنًا   بنفــسِـه فـى القِيـامِ
تخـطَّفَــتْـــهُ شُـكوكٌ   جَـيَّـاشـةٌ كـالـضِّرَامِ

---

(١) الكلوم: الجروح، جمع كَلْم.

(٢) الرِّهام: المطر الضعيف الدائم.   (٣) الأوام: شدة العطش.

(٤) المَوامِي: جمع المَوْماة، وهى الصحراء التى لا ماء فيها ولا أنيس.

(٥) مصوَّر: مـائل، لا يكاد يتماسك، وأصل هذا الفـعل ثلاثى، وضعّفه أسـتاذنا للمبالغة.

لمْ تُبْــقِ إلّا حُــطَــامًا ... يَنْـقَضُّ فَــوقَ حُـطَامِ
تَسْــتَــقْبِـلُ الأُذْنُ منه ... حِـــسًّا كَـمَيْتِ الكلامِ
تَخَـــالُه من فُـــتُــورٍ ... مَنــاخَـــةَ الأيتـــامِ
مُـــفْــزَّعِينَ وُجُـــومًا ... يَبْكُـونَ فـوقَ رِجَـامِ[1]

* * *

يا مَـــاثلًا لعُــيــونِى ... وطَـــائِـــفًا فى مَنامِى
وســـابِحًا فى سُكُوتِى ... وسَـارِبًا فـى كـلامى[2]
وحَـــاسِـــرًا عن فُــؤادٍ ... صَبٍّ فُـضُـولَ اللِّثــامِ
أفْـنَى شَـكاتِـى، وأوْدَى ... بِعَـــتْبِـــهِ ومَـــلامى[3]
مـــا كنتُ أَحــسِبُ دلًّا ... يَسيلُ سَـيْلَ انتـقـامِ!
أو أنَّ سُكْرَ شَــبَـــابٍ ... يَحُــورُ سُـكْرَ عُـرَامِ![4]
يَقْـسُــو فَـيرمى بسَهْمٍ ... مَـهْـدَ الجُـرُوحِ الدوامِى

---

(١) الرِّجام: القُبور، وأصلها الحجارة المجتمعة التى توضع فوق القبر.
(٢) السارب: الماضى فى الأرض ظاهراً غير مُسْتَخْفٍ.
(٣) العَتْب: المَوْجدة والغضب.
(٤) يحور: يعود ويرجع. والعُرام: الشِّدة.

أَحــبـبتُ مِلْءَ فــؤادى ومِـلــؤُهُ أوهــامِــى
حــتَّى وَجـدْتُ كـأنِّى أَعـيشُ مِنْ أحــلامِـى!

* * *

مــلأتِ دُنيــاىَ نورًا يُضـىءُ دُنيـــا الأنامِ
فكـلُّ مَــرأًى عـليــهِ حَــلاوَةٌ من وَسَــامِ[1]
يَغْــذُوهُ نورُكِ حُـــسْنًا حَـيًّا كـصَـوْبِ الغَمـامِ
فــمـا ترى العَــيْنُ إلاَّ زَهْرًا عـلى أَكْــمـــامِ
أنفـــاسُـــهُ عَـطِراتٌ نشْــوَى بغـيـرِ مُـدَامِ
مُــمــثَّــلاتٌ لِرُوحِى مُــعَــرْبِـدَاتُ القَــوَامِ
أُصْغِى. . إِخالُ. . كأنِّى أُصْـــغِى إلـى أَنْغَـــامِ
تدنو فــأدنو، فــتــفنَى أنغــامُــهــا فى ظَلامِ
وتــارةً هِـى هَــمْــسٌ كلمْــحَــةٍ من سَــلامِ
كـأنها فــى ضـمـيرى تُسِــرُّ بعضَ الغَـــرامِ
أو يَسْــتَطِيــرُ سَنَـاها فى القلبِ ضَـوْءَ ابتسـامِ

* * *

(١) الوسام مثل الوَسامة.

أوَّاهُ مــن خَــطَـراتٍ ... تَقــودُنـى بزِمــامِ
لا تملكُ الـنَّفسُ منهــا ... إلّا رَمــادَ الكـلامِ
قـد كانَ جَـمْـراً فَنامَتْ ... أيقَــاظُهُ فـى النِّيــامِ
واستيـقظتْ لى هُمُـومٌ ... حـيـاتُهـا من خِـصامِ
أفنتْ شَـبـابَ خيـالِى ... وعَــيَّــثَتْ فى نِـظامى
حــتَّى رأيتُ الـليـالى ... تَــطـوفُ فى أيــَّامِـى!

* * *

أذكري قلبي ..

نشرت بمجلة الرسالة العدد ٣٤٤
سنة ١٣٥٩هـ، ١٩٤٠م

أُذكُرى قَلْبِى.. فَقَدْ يَنْضَرُ مِنْ ذِكْرَاكِ عُودِى
أنا غُصْنٌ فى رياضِ الدَّهرِ ظَمآنُ الصَّعِيدِ
صَوَّحَتْنِى غُلَّةُ الوَجْدِ وأَجَّتْ فى بُرودِى[1]
ومَشَتْ نارًا على أنوارِ زَهْرِى ووُرودِى
فَهْىَ أَلْقَاءٌ على أَرْضىَ آثارَ وَقُودِ[2]
فاذكرِى قَلْبِى.. فقدْ يَنضرُ مِنْ ذِكراكِ عُودِى!

* * *

أنا غُصْنٌ كخَيالِ السَّيفِ فى وَهْمِ الطَّرِيدِ

---

(١) صوَّح: أيْبَس وجعله جافًا.
(٢) ألْقاء: جمع لَقًى، وهو الشىء المُلْقَى المهمل.

نَاحِلُ الشَّخْصِ، قضيفُ العُودِ، خُمْصَانُ الغُمودِ(١)
لَوَّحَتْنِى وَقْدَةُ الشمسِ على وَجْهِى وجِيدِى
كَمْ شُعاعٍ غارَ فى قَلبِى كالسَّهْمِ السَّديدِ
عَبَّ فى مائى، فغاضَ الماءُ كالحُبِّ الشَّرُودِ
فاذكرِى قَلْبِى.. فقدْ يَنضَرُ مِنْ ذِكراكِ عُودِى!

* * *

أنا غُصنٌ شَاخِصُ الطَّرْفِ إلى رِىٍّ بَعيدِ
أسَرَابٌ هُوَ.. أَمْ ماءٌ؟! فيا وَيْحَ جُدودِى!
أَثْبتَتْنِى حَيْثُ أَشتاقُ إلى الماءِ البَرُودِ(٢)
هِىَ أشواقٌ من الموتِ كأشواقِ الحَسُودِ
تركَتْنى مُوقَدَ الغُلَّةِ كالصَّبِّ الحَقُودِ
فاذكرِى قَلْبِى.. فقدْ يَنضَرُ مِنْ ذِكراكِ عُودِى!

* * *

---

(١) القضيف: الدقيق العظم القليل اللحم، فهو نحيف. الخمصان: الضامر. الغمود: جمع غِمْد السيف.
(٢) أثبتته جراحه: اشتدت عليه فلم يتحرك.

أنا غُصْنٌ حائِرُ الأحلامِ كالنائِى الشَّريدِ
غُربَةُ الرُّوحِ تهاوَتْ بى إلى أَرْضِ الجُحودِ
قذَفتْنِى هِمَّةُ الأَحْرارِ فى ذُلِّ العَبيدِ
الصَّدَى، والجَدْبُ، والغُرْبةُ، سِجْنِى وقُيودِى
مَزَّقَتْ نَضرَةَ أيَّامِى بأنيابِ الخُمودِ
فاذكرِى قَلْبِى.. فقدْ يَنضَرُ مِنْ ذِكراكِ عُودِى!

* * *

أنا غُصْنٌ يُفْزِعُ الفَجْرَ بِليْلٍ مِنْ رُكودِ
يَتلقَّى مَولِدَ الشَّمْسِ بأحزانِ هُجُودِ
لوْ بكَى عُودٌ من الوَحْشَةِ فى ذُلِّ الوجُودِ
لأَذابتْ شَخْصِيَ الآلامُ كالدَّمعِ البَديدِ
أنكَرْتنِى الشَّمْسُ والفَجْرُ ودُولاتُ العُهودِ
فاذكرِى قَلْبِى.. فقدْ يَنضَرُ مِنْ ذِكْراكِ عُودِى!

* * *

أنا غُـصْـنٌ فـارَقـتْـه الطَّيرُ ربَّاتُ العُـقـودِ[١]

مُـسْكِراتُ الزَّهْـرِ والنَّوْرِ بألْحَـانِ النَّشـيـدِ

نَغَمٌ هَمْسٌ كـهَـمْسِ الـغَـيْثِ للرَّوْض المَجُـودِ[٢]

وشَـبـابٌ ضَـاحِـكُ النُّورِ بتَـرْجِـيعٍ فَـريدِ

وأنا.. الحَـسْرةُ والأنـَّاتُ لَـحْنِى ونَشـيـدِى!

فاذكِرى قَلْبِى.. فقدْ يَنضَرُ من ذِكراكِ عُودِى!

* * *

غُـصُـنٌ عـارٍ.. وأغـصـانُكِ فى بُرْدٍ جـديدِ

قـدْ كَـسـاكِ الرِّىُّ والنَّعـمـةُ مـن وَشْىِ البُـرُودِ

وتَحـلَّى عُـودُكِ الـريَّانُ نُـوَّارَ الخُـدُودِ

---

(١) حين بقـى نوح عليه السلام فـى اللُّجة أيامًا بعـث الحمامـة لتنظر هل ترى فى الأرض موضعًـا يكون للسفينة مـرفأ. فاستَـجْعَلت على نوح الطوق الذى فى عنقهـا فجعله جُعْـلا لها (الحيوان ٢: ٣٢١). وقـال الثعالبى إن الله سبحانه وتعالى أعطاها تلك الزيـنة بدعاء نوح حين رجعت إلـيه ومعهـا من الكَرْم ما معها، وفى رجليـها من الطين ما فيها، فعُـوِّضت من ذلك خِضاب الرجلين، ومن حُـسْن الدلالة الطاعة طوق العنق (ثمـار القلوب ٤٦٥) فـجعل الأسـتاذ الطوق: عِقْدا.

(٢) المجود: الذى أصابه المطر الجَوْد، وهو الكثير الدائم.

فـإذا الـنَّشْـوَةُ هَزَتَّـكِ بأنفـاسـى.. فَـمِـيـدِى

وإذا غَنَّاكِ سَـاقِى الطَّيْـرِ لَـحْنى أو قَـصِـيـدِى

فاذكرِى قَلْبِى.. فقدْ يَنضَـرُ من ذِكراكِ عُودِى!

* * *

تَحْتَ اللَّيْل

نشرت بمجلة «الرسالة» ١٣٥٩هـ
عـــــدد ٨ سنة ١٩٤٠م

أَهِيمُ. . وقَلْبِى هَائِمٌ. . وَحُشَاشَتِى
تَهِيمُ. . فـهَلْ يبقَى الشَّقِىُّ المبَعْثَرُ؟
وهَلْ يهْتَدِى غَاوٍ أضَاعَ حَيَاتَهُ
بحَيثُ يَضِيعُ الطَّامِحُ المُتَجَبِّرُ؟
وهَلْ تَسْكُنُ الدُّنيا ويَسْكُنُ صَرْفُها
ويَسْكُنُ هذا النَّابِضُ المتَفَجِّرُ؟
وهَلْ تُطْفِئُ الأيامُ نِيرَانَ ظُلْمِهَا
وتَطْفَأُ نارٌ فى دَمِى تَتَسَعَّرُ؟

* * *

لَئِنْ أَبْقَتِ الآمَالُ مِنِّى، لَطالما
تَقَلَّبْتُ فى آلامِهَا أتَضَوَّرُ

تَـنَــازَعُنِى مِنْ كلِّ وَجْـهٍ بِســاحِرٍ
يُمَـــثِّلُ لى إقْـبَــالَهــا ويُــصَــوِّرُ[١]

فيَهْوِى لها بَعْضِى . . وبَعْضِىَ مُوثَقٌ
بأشـواقِه الأُخـرَى إلى حَـيْثُ يَنْظرُ

أضَـاليلُ من سِـحْـرِ الحـيـاةِ وفِـتْنَةٌ
تَهـاوَى إليـها مُـسْتهـامٌ مُـسَحَّـرُ!

* * *

أبَى القَـلْبُ إلَّا أنْ يرَاها قَـــرِيبــةً
كـــأنَّ رضَـاها مُـــزْنَةٌ تَتَـحَـــدَّرُ[٢]

يَرِفُّ شَـبابُ القَلْبِ فـى قَسَـماتِهـا
تكادُ تَـراهُ ضَــاحِكًا يَتَـــحَـــيَّـــرُ

تُضِىءُ ليـــالِى هَمِّــهِ بخَـيـالِـهـا
كَـــمـــا سَلَّ هَـمَّ الليْلِ نَجْـمٌ مُنَوِّرُ

---

(١) تنازعنى: حذف إحدى التاءين.

(٢) المزنة: السحابة المحملة بالماء.

وهيهاتَ ! ضَلَّ القَلْبُ . . إنَّ بقاءَها
بَقــاءُ رَبيعِ الزَّهْرِ أو هُوَ أَقْــصَـرُ!

* * *

سَـرَتْ فِي دَمٍ يَغْلِي كـأنَّ اندِفـاقَـهُ
مِنَ القَلْبِ ينبُوعٌ من الوَجْدِ يُسْجَرُ[(١)]
تَـمُــــرُّ بـه الأَفْكَارُ وَهْـيَ نَدِيَّـةٌ
فـمـا هِيَ إلا جَـمْـرَةٌ تَتَـدَهْوَرُ[(٢)]
إذا سكَنَتْ فـى اللَّيْل كلُّ خَـفِـيَّـةٍ
سَـمِعْتُ صَليــلًا فى دَمِى يَتَحـدَّرُ
فَـهَلْ ترحَمُ الأيـامُ أو تهـدأُ المُنَى؟!
أَبَى حُــبُّهَـا إلّا شَــقَـاءً يُـدَمِّـرُ!

* * *

(١) يسجر : يفيض لامتلائه .
(٢) الدهورة : جَمْعُك الشىء وقذفك إياه فى مَهْواة .

الرَّبِيع

نشرت بمجلة الرسالة، العدد ٣٥٣

٣٠ صفر ١٣٥٩، ٨ إبريل ١٩٤٠

أَيَّامُـهُ كـالغِـيـدِ، نَضَّـرَهَا تَرَفُ الصِّبَاوَغَضَارَةُ الحُبِّ
زُهْرٌ نَوَاعِمُ . . فى نَضَـارَتِها سِحْرُ الحيَاةِ وَفِتْنَةُ القَلْبِ
تَمْـــشِى بأنْفَـاسٍ مُـــعَطَّرَةٍ تُحْيِى بِريَـــّا الحُبِّ أَوْ تَسْبِى
تَنْسَابُ فى الصَّبَوَاتِ عَابِثَةً عَبَثَ الدَّلالِ بِرِقَّةِ العَتْبِ[1]
وَتَدِبُّ فى الأرْوَاحِ نَشْوَتُها هَفَّافَـةً، نَفَحَاتُهـا تُصْبِى
عِطرُ الحَبِيبِ عَلَى نَسَائِمِهَا يُذْكِى غَرامَ الهائِمِ الصَّبِّ
تُدْنِى إِلَيْـهِ خَـيَالَ مُـمْـتَنِعٍ بالدَّلِّ، مُبْتَعِدٍ عَلَى القُرْبِ
وَتُرِيحُ أَشْـــوَاقًا مُـعَـذَّبَةً ظَمْأى . . بِلَذَّةِ مَنْهَلٍ عَذْبِ

* * *

(١) العَتْب : لَوْمك إنسانًا كانت له إساءة إليك فاستعتبته منها .

هَذَا رَبِيعُ النَّاسِ، واحزَنِى! ... وَرَبِيعِىَ الأَشْوَاكُ فى قَلْبِى!
أَغْضَى شَبابى فى مُلاوتِه ... كالشَّيْخِ تَحْتَ عَمائِمِ الشَّيْبِ[1]
وَدَلَفْتُ بالأيَّام مُتَّئِداً ... حُمِّلْتُها خَطْباً عَلَى خَطْبِ[2]
أمْشِى بأفْكارٍ مُحَيَّرَةٍ ... بالشَّوْقِ آوِنَةً وبالرُّعْبِ
هَذَا شَبَابى .. سَائِرٌ أَبَدًا ... برَبِيعِه فى مُقْفِرٍ جَدْبِ
أَحْيَا الشبَّابَ رَبِيعُ حُبِّهِمُ ... -نَعِمُوا بِهِ- وَأَمَاتَنى حُبِّى!

* * *

(١) الملاوة: الحين من الدهر.
(٢) دلفا: مشى متقارب الخطو.

نشيد مولده صلى الله عليه وسلم

الأربعـــاء: ٩ ربـيع الأول سـنـة ١٣٥٩هـ

١٧ أبـــريــل ســـــنـــة ١٩٤٠م

الإذاعــة

نشرت فى مـجلة الراديو المصـرى، العدد١٦

٨ ربـيـع الأول ســـــنـــة ١٣٦٠هـــ

٥ أبـــريــل ســـــنـــة ١٩٤١م

مَنْبَعَ النُّورِ .. صَـــلاةً وَسَـــــلامًا يَانَـــبِى
أَفْــتَــدِيهِ بِـحَـيَــاتِى وَبِــأُمِّـــىِ وَأَبِـــى

❋ ❋ ❋

سَبَّحَ الكَوْنُ وَصَلَّى وَسَجَدْ يَـوْمَ هَـلَّ .. وَتَجَـلَّـى
وَأَضاءَ النُّـورُ أَرْجَاءَ الأَبَدْ فَــاسْتَنَــارَا .. وَتَحَلَّى

❋ ❋ ❋

مَنْبَعَ النُّورِ .. صَـــلاةً وَسَـــــلامًا يَانَـــبِى
أَفْــتَــدِيهِ بِـحَـيَــاتِى وَبِــأُمِّـــىِ وَأَبِـــى

❋ ❋ ❋

جَدَّدَ الدُّنـيا بَشِيرُ المَوْلِدِ حِـــينَ نَـــادَى
أَيُّها الهَارِبُ عَـنْ دُنْيَا غَدِ عُـــدْ .. فَـــعَــادَا

❋ ❋ ❋

مَنْبَعَ النُّورِ .. صَـــلاةً وَسَـــــلامًا يَانَـــبِى
أَفْــتَــدِيهِ بِـحَـيَــاتِى وَبِــأُمِّـــىِ وَأَبِـــى

❋ ❋ ❋

هُوَ أفْرَاحٌ وَحُــبٌّ وَسَلاَمْ   لِــلْفُـــــؤَادِ المُسْلِـمِ
فامْحُ بالأَنْوَارِ آياتِ الظَّلامْ   وتَـقَـــــدَّمْ، واسْلَـمِ
أَيُّهَـا المُسْلِمُ.. هذا نُورُهُ   فَـــاتَّبـــعْـــهُ، تَـهْـتَـدِ

* * *

مَنْبَعَ النُّورِ.. صَـــلاةً   وَسَــــلامًا يَانَــبِـى
أَفْــتَــدِيهِ بِـحَــيَــاتِى   وَبِــــأُمِّـــى وَأَبِـــى

* * *

مِنْ تَحْتِ الأَنْقَاضِ

نشرت بمجلة الرسالة السنة ١١ فى٢٣ جمادى الأولى سنة ١٣٦٢هـ
٣١ مـايـو ١٩٤٣م

حَسْرَةٌ ولَّتْ، وأُخْرَى أقْبَلَتْ
كَيْفَ؟ مِن أيْنَ؟ .. مَتَى؟ لم أعْلَمِ!
مَوْجَةٌ سَوْدَاءُ تَنْقَضُّ عَلَى
مَوْجَةٍ فى بَحْرِ لَيْلٍ مُظْلِمِ
تَتَفَانَى وَهْيَ لا تَفْنَى، وكَمْ
رَدَّهَا تَيَّارُهَا كالضَّيْغَمِ!
صَمَّمَتْ، حتَّى إذَا مَا الْتَهَمَتْ
نُورَ أيَّامِيَ طَاشَتْ فى دَمِي[1]
فَهْوَ أمْوَاجُ ظَلامٍ .. لا تَرَى
لا تُبَالِي .. لا تَعِي .. لا تَحْتَمِي!

* * *

(١) صَمَّم السيفُ: مضى فى الضريبة لا يعوقه عظم ولا غيره. طاشت: انتشرت فى كل جانب، ففى حديث عمر رضى الله عنه: كانت يدى تطيش فى الصفحة، أى تخف وتتناول من كل جانب.

زَهْرَةٌ حَنَّتْ، فَــبَـاحَـتْ؛ فَـذَوَت
أذْبَلَـتْـــهَـــا نَفْــحَـــةٌ لم تُكْـتَمِ
شكَـتِ البَـثَّ لِنَـجْمٍ سَـــاطِـعٍ
ثُمَّ ظَـلَّتْ فى شُــعَـــاعٍ مُـلهِمِ[1]
شَـعْـشَـعتْ عِطْرًا، فَـلَم يَعْـبَـأْ بِهِ
لَـثِمَ الْـمَـــــوْطِـئَ أمْ لَمْ يَـلْثَمِ
فَضَّ سِـــرٌّ سِـرَّهَا، فَـــانْتَـفَـضَتْ
فَـــهَـــوَتْ سَـــاجِــدَةً لَـمْ تُرْحَمِ
وَرَمَى النَّجْـمُ شُـــعَـــاعًا وَسَنًى
ثُمَّ ضَـــــاعَ النَّـجْمُ بَـيْنَ الأنْـجُمِ

* * *

قَـــدْ جَـلاَ الوَهْمُ عَــرُوسـاً زُيِّنَتْ
لَبِــسَتْ حِلْيَــتَـــهَــا لِلمَــأتَمِ[2]

---

(١) البث: شدة الحزن.

(٢) جلا العروس: أبرزها إلى زوجها فى تمام زينتها لينظر إليها.

إنَّمَـــا أَثْوَابُهـــا أَكْـــفَـــانُهـــا
وَالأغَـــانِى لَحْنُ قَـــبْـرِ مُـــغْـــتِمِ
وَوجُـــوهٌ أشْـــرَقَـتْ مِنْ نَشْـــوَةٍ
لَمْ تَـكدْ.. ثُـمَّ هَوَتْ لم تَـسْـلَمِ
شَهَـوَاتٌ أشْعَلَتْ[1].. ثُمَّ خَـبَتْ
لـم تكُـنْ إلا شكَـاةَ المُـغْـــــرَمِ
نَـظْـرةٌ، ثُـمَّ هَـــوًى، ثُـمَّ مُـنًـى
ثُمَّ.. وَانْـفَضَّ كَـــأَنْ لم تَحْـلُمِ!

* * *

لا أرَى إلَّا فَـنَاءً أوْ سُـــــــدًى
فَـــبَـصِـــيـــرٌ فى ضَـــلاَلٍ أوْ عَمِ
وَلَـيَـــــــالٍ أظْـلَـمَتْ أَنْـوَارُهَـا
ولَـيَـــــــالٍ نُورُهَـا لـم يُـظْلِـمِ

(١) أشعل: المعروف فى هذا الفعل: اشتعل وتَشَّعل، لازمان، أما أشعل فهو متعد، جعله أستاذنا لازمًا اقتدارًا على عربيته. أو قد تكون أشعل هنا بمعنى كَثُر، كما يقال: أشعلت العَيْنُ، أى كثر ماؤها.

وَهُمَــــا الدَّهْـرُ. . فـــلا لَـيْلَ وَلا

صُـــــبْحَ، بَلْ وَالِدَةٌ لـم تَعـــــقَمِ

وَحَـــيَــــاةٌ مِنْ فَـنَاءٍ فُـــجِّـــرَتْ

لِفَـنَاءٍ فـى حَـــيَــــــاةٍ يَرْتَـمِى

كُلُّـهُ لَمْحُ وَمِـــيضٍ خَـــاطِفٍ

ثُمَّ. . لا شَىء . . فَـجَـاهِدْ أو نَمِ!

* * *

الشَّجَرةُ: ناسِكةُ الصَّحراء!

نشرت بمجلة المقتطف عدد ١٠٢ سنة ١٣٦٢هـ- ١٩٤٣م

أَيَّتُها الجَرْداءُ فى بَلْقَعٍ
قَفْرٍ من النَّابتِ والسَّائِرِ
مُفْرَدةٌ تَنْأَى بأَحْزَانِها
عَنْ هَجْمَةِ النَّازلِ والزَّائرِ
وعَنْ حَديثِ اللَّهْوِ مِنْ صَاحبٍ
وعَنْ فُضُولِ النَّابِشِ الخَابِرِ[1]
وعَنْ نِزَاعِ العَيْشِ فى عِيشَةٍ
مَتَاعُها للفَاجِرِ الظَّافِرِ
وعَنْ سَوادِ الحِقْدِ فى بَاطِنٍ
مُغَلَّفٍ بالنُّورِ فى الظَّاهِرِ

(١) النابش: الذى ينبش الأخبار، أى يستخرجها، الخابر: الخبير مثل عالم وعليم.

.. عَنْ عَــالَمٍ زُورٍ .. أَباطِيلُهُ
حقٌّ، ولكـنْ.. فى يَدِ القَـامِـرِ!

* * *

أَيَّـتُهـا الـشَّـمْطَاءُ فى مَـوقِفٍ
كـأَنَّهُ مَـقْـبَـرةُ القـابِرِ!
أَظَلَّـهـا المَـوْتُ بأَطْـيـافِـهِ
فـمـا خلَتْ مِنْ شَـبَحٍ خَـاطِرِ
يا عَـجَـبـًا مِنْ نَابِتٍ فـى فَمٍ
يَقْـضِـمُ فى الذَّابلِ والـنَّاضِـرِ!
وَاقِـفَـةٌ صَـمَّـاءُ فى رُقْـعَـةٍ
تَصَمُّ عـن نَجْـوَى خُطَى الـعَـابِرِ
كَـأَنَّهـا وَحْـشِـيَّـةٌ غَـالَهـا
مَسٌّ مِـنَ الجِنَّـانِ والعَـامِـرِ
خَـاويةُ الـرأسِ ولكـنَّهـا
عَـامِـرَةٌ بالـشَّـعَـرِ الثَّـائِرِ

مُـغْـبَـرَّةٌ .. شَعْـبَـاءُ .. مَـحْنِيَّـةٌ

أمَـــالَهَـــا ثِقْلُ النَّوَى الـفَـاقِـــرِ(١)

كَـــــأنَّـمـــــا تَـنْظُـرُ فى هُـوَّةٍ

تَشِـيـبُ فـيـهـــا نَظْرَةُ الـنَّاظِرِ

مُلْـتَـــاعَـــةٌ شَـــعَّثَ أفْـنَانَهَـــا

زِلْـزَالُ رَوْعٍ نَـافِضٍ قَـــــاهِـرِ

صَـــوَّامَـــةُ الأيَّامِ مِنْ عِـــفَّـــةٍ

نَاسِـكَةٌ فى جِـلْدِهَا الـضَّـــامِـــرِ

لا تَسْـألُ الشَّـمْسَ شُـعَـاعًـا، ولا

تَسْـــأَلُ عَنْ نَـوْءِ الحَـيَـــا المَاطِرِ(٢)

لا تَطْعَـمُ الماءَ على جُـــوعِـهـــا

غِـــذَاؤُهَا مِنْ رَمْلِـهـــا الزاخِـــرِ

---

(١) شعباء: عنى بها تفرُّق أغصانها، وأكثر ما يوصف بذلك قرون الوعول. وهى هكذا بالأصل، ولم يعلّق عليها أستاذنا فى نسخته. الفاقِر: الذى يَفْقِر، أى يحطم ويكسر.

(٢) النوء: النجم، والعرب تنسب كل غيث إلى نجم، فيقولون: مُطِرنا بنوء الثريا، ونوء الدَّبران، وهكذا.

وَهْوَ غِـــذَاءٌ جَــائِـعٌ مُلْـهَبٌ
يَلْتَـهِمُ الأَحْـيَـاءَ بالخَــاطِرِ
فكيـفَ سَــالمتِ سُـعَـارَ الفَــلا
يا دَوْحَــةً رَمْلِيَّـةَ الحَـافِــرِ؟!
نَاقَـــضْتِ أَتْـرابَكِ فى نَبْـتَــةٍ
خَـضْراءَ، يــا بنتَ الثَّرَى الـعَاقِـرِ!

* * *

مَا عَـجَبى مِنْكِ .. ومـا دهشتى!
اخْــتَلَـطَ الوَارِدُ بـالصَّـــادِرِ!
نَحْنُ - كِــلانَا - غُـرْبَـةٌ صُـوِّرَتْ
تِمْـــثَـالَ حَىٍّ سَـــاكِنٍ حَــائِرِ
مُـحْتَـدِمِ الأَشْـوَاقِ .. مَـشْبُـوبِهـا
تَحْتَ خُـــمُـودِ الظَّاهِرِ الـفَــاتِرِ
تَأخُــذُنا العَــيْنُ .. ولو غُلْـغِلَتْ
ذَابَتْ، وكـانتْ شَـحْـمَـةَ الصَّـاهِرِ

نَحْـنُ - كِـلاَنـا - أَمَلٌ مُـؤْمِنٌ

بِحَـقِّـه فى عَـالِمٍ كَـافِـرِ

أَثْبَـتَـنا الخِـذْلاَنُ فى وَحْـشَـةٍ

تَطْفَـأُ فـيـهـا جَـمْـرةُ النَّاصِـرِ![1]

نَحْنُ - كِـلانا - صَـرْخَـةٌ حُـرَّةٌ

مَـأْسُـورَةٌ فى زَفْـرةِ الزَّافِـرِ

وكِـبْـريَـاءٌ أُلبِـسَـتْ ذِلَّةً

وعُـوِّدتْ إِطْـرَاقَـةَ الصَّـاغِـرِ

تَخْـتَلِـفُ الأَيَّامُ مِـنْ حَـوْلِـنا

ونَحْـنُ وَقْفٌ لـلرَّدَى الجَـائِـرِ!

نَـحْنُ الأَحَـادِيثُ، وأَرواحُنـا

مُـعَلَّقَـاتٌ فى فَـمِ الآثِرِ![2]

* * *

(١) طفئت النار (من باب شرب): ذهب لهبها.

(٢) أَثَرَ الحديثَ (من باب ضرب): نقله وحدَّث به.

يا أُخْتَ ذِى النُّونِ . . انْشُرِى ظُلَّةً
لِمُسْتَكِنٍّ آبِدٍ ثائِرِ[١]
تَألَفُهُ الأُلَّافُ مِنْ أُنْسِهِ
ونَفْسُهُ فى فَزَعٍ نَافِرِ
وقَلْبُهُ يزْأَرُ فى سِجْنِهِ
مِثْلَ زَئِيرِ الأَسَدِ الخَادِرِ
يَدِبُّ نَبَّاضًا بِهَمَّاتِهِ
مِثْلَ دَبِيبِ الوَحْشِ فى الحَاجِرِ[٢]
يا أُخْتَ ذِى النُّونِ اسْكُنِى واسْمَعِى
لا تُنْكِرى زَمْجَرَةَ الزَّائِرِ
إنَّ ضَجِيجَ الرُّوحِ فى أَسْرِها
مَنْبَهَةُ المأْسُورِ للآسِرِ

---

(١) ذو النون: لقب ليونس بن متّى لابتلاع النون إياه، والنون: الحوت، وذكره سبحانه فى سورة الأنبياء، وعنى أستاذنا هنا قدمها. الآبد: المستوحش من الناس النافِر.

(٢) الحاجِر: من مسايل المياه ومنابت العُشب ما استدار به سَنَدٌ أو نهر مرتفع.

اسْـــتَـــمِـــعِي نَجْـــوايَ فى عُـــزْلَةٍ
تَخْـــشَعُ فـــيـــهـــا شَـفْـــرَةُ الجَـازِرِ
فى مَـــعْـــبَـــدِ الـــرُّوحِ ومِـــحْـــرَابِـــهـــا
تَسْـــجُـــدُ هَمْـــسًـــا صَـــرْخَـــةُ الزَّاجِـــرِ
يَجْـــثُـــو ضِـــرامُ الشَّـــرِّ فى نُورِها
ويَزْدَهِي فـــى صَـمْـــتِـــهـــا الطَّاهِرِ
تَسْـــمُـــو الأمـــانِي بينَ أَرْجَـائِـهـــا
قَـــدْ طُهِّـــرتْ بالألَـــمِ العَـــاصِـــرِ

* * *

قصائد مترجمة



من ديوان الهند

صانعة الدموع

[نشرت بمجلة المقتطف المجلد ٨٣ ديسمبر ١٩٣٣]

أنا الرجلُ المشبُوبُ القويُّ الذى لا يَخْضَع،
أنا الرجلُ المُلْتَهِبُ كأنّ رُوحَه فى بَدنِه إعصارٌ من النَّار
أنا الرجُل الصَّخْرُ الذي تَقَعُ الأحداثُ عليهِ لتَرِنَّ ثُمَّ تنحدِر
بَلِ الرَّجُلُ البركانىُّ الذى لا يغضَبُ، فإن غَضِبَ تَفَجّرَ بالبلاءِ

* * *

نَفْسى كأنَّها قطعةٌ من القَدَرِ فلا تَسُرُّها ولا تسوءُها الأقدار،
بل كأنَّها سُنَّةٌ منِ الأبَدِ يستوى فى مرآتها الليلُ والنهار،
بل كأنَّها بعضُ الفَلَكِ الذى تجرى فيه الشُّموسُ والأقمار،
بل كأنى عَالَمٌ مَسْحُور كُلُّه ألغازٌ وكُلُّه أسْرارٌ

* * *

أنا ذلك الرجُل ما أزالُ وتلك نَفْسِى ما بَرِحتْ

ولكنْ ما هذا البلاءُ الجديد؟

ما هذا الماءُ المُنْهَمِرُ عَلى خدىَّ حاراً دَافِقًا؟

لكأنّهُ من رَشَاشِ أمواج البَحْر فى مِلْحِه ومَرارتهِ؟

وكأنهُ من طائراتِ الحُمَم الفَوَّارَةِ فى لذعهِ وحرارته،

ولكنّ البَحْرَ بعيد، وما فى هذه الأرض حُمم

. . . بل كأنهُ من قطراتِ المطرِ

بَلْ ليس به، فالمطر عَذْبٌ خَصِر(١)

وإنى لأرى السماءَ سافرةً ليس يحْجُبُها سحابٌ

ولو قد كان فى السماء سحابٌ، لقلت: عسَى ولعلَّ. . . .

* * *

ما هذا السِرُّ الخفىُّ بينَ جنْبىَّ؟

إنهُ ليهُزُّنى كما أهزُّ الدَّوحة بساعدى المَفْتُول،

إنَّهُ ليَغزو ضياءَ قلبى بمثل سواد الليل،

---

(١) الخَصِر: البارد.

ولقدْ عهدتُنى مرحًا طروبًا، فما هذا الفتور؟!

وأنَا... آه... إنّى لنْ أنساك.... إنّى أُحِبُّك

* * *

ويحَ غيرى! لقد أصبحتُ أفهمُ هذه اللغة وكنتُ لا أفْهَمُها!

إنَّ لسانى لينذَلِقُ بها الآن كأنما كان يَرْتضِعُها من ثدى أُمّه!

أجل! لقد ارتضَعْتُ - صغيراً - من ثدى أُمى هذه اللغة،

ولكنى نسيتها لما انفتلتْ قُوَاى واستمرَّ مريرى،(١)

نسيتُها لما كبرتُ وأصبحتُ رجلًا...

نسيتُها... ولعلّى نسيتها وأنا أصارعُ الحياةَ وكانت تريدُ أن تصْرَعنى

نسيتُها... ولعلّى نسيتُ أشياءَ كثيرة فى المْيدَانِ

وهناك كلمة لعلّها مما نسيتُ فى حوْمةِ الحياةِ...

كلمةٌ مما سمعتُ، ما فهمتها، ودعينى -يا جميلتى- أفهمها وحدى

ما هى الدُّموع....؟

* * *

---

(١) استمر مريره: قَوِى واستحكم.

ما هى الدُّموع....؟

أهى عواطفى ترْسِلُها سحائب شجونى وأحزانى؟

أم هى أنفاسى الحارةُ التى كانت روح قُبُلاتى...؟

أنفاسى الحارّة التى انعقدتْ لما دفعتْها الحياةُ عاليًا فى جوّ السماءِ...

أهِيَ نفسى تسيلُ علىَ خدّى حين ربَضتْ عليها الحياةُ بأثقالها فأسالَتْها...؟

أم هى إخلاصى وعفتى ووفائى تقطرُ من قلبى إذ تعتصره الآلام؟

أهى كلماتُ حبّى الذى لا يتكلم؟

أم لغة آلامى التى لا تفهمها إلَّا لحظَات عينيك؟...

آه،وما كنت عاجزًا ولقد عجزْتُ. ألا فقولى أنتِ... ماهى الدُّموعُ؟

* * *

أتضحكين...؟ إنَّك تهزئين منى... فلستِ خالصة الحب..

ويْلى...! أراك أخضعْتِنى، وكنت الرجلَ المشْبوبَ الذى لا يخضع،

وأطفأتِ نارى، وكنت الرجل الملتـهب كأنّ روحه فى بدنه إعـصار من النار،

وصدَعتِ صخرتى، وكانت الأحداث ترنُّ عليها ثم تنحدرُ،

وأَغْضبْتِنى... فالآن حذارِ أنْ يتفجَّر البركانُ بالبلاءِ

. . . لقدْسمعتُ الناس قديمًا يصفون فى أنفسهم مثل هذا الطائف

سمعتُ قائلَهُم يقولُ: . . . . هو الهَمُّ،

أَجَل إنّهُ لهمٌّ . . . وإنهُ من همٍّ لحَبيبٌ

* * *

وما هذا؟ جديدٌ، ما عهدتهُ من قبلُ!

. . . إنها لتَتَحَسَّنُ بألوانها وتهَاويلها، . . .

وإنها لتَتفَتَّقُ من سَرارتها فترْسل من فُتوقها أمثالَ أشعة القمر، . . .

لقد أخذ الفتق يستدير . . . وما هَذا القمرُ العجيب؟

ويحى . . . ما هذا قمرًا . . . إنهُ لَمَلَكٌ كريم،

ويحى . . . إنهُ وجهُ غانيةٍ، وإنى لأجدُ فى نفسى أنى أعرفهُ

آه! أأنت؟ أأنتِ تلك الحسناءُ التى رأيتها بالأمسِ؟

* * *

أَجل! أنا الحسناءُ، والبلاءُ الجديدُ ما هو إلّا دموعُ عينيكَ

البلاءُ الجديد . . .؟! دُموع عينىّ؟! . . . ما أنتِ!

بل كيفَ استرقتِ أحاديثَ قلبى؟ . . .

إننى قريبةٌ منك وإن طارتْ بى النوى أو طوَّحنى الفراق،

إنى لأراكَ . . ، وأسمعكَ . . وألجُ قلبَك . . ، وإن خلتَنى بعيدةً عنكَ،

وأنا . . . أنا التى صنعت لكَ هذه الأحلامَ لأَبدُوَ فى زينتها،

وزينتها هذه من بعض معانىَّ

* * *

إنى لأجرى منكَ مجرى الدَّم،

وذاك السرُّ هوَ ما يتطايرُ من دمكَ إذ أسبح أنا فيه،

وإنَّ ما يتطايرُ منهُ ليقعُ على شجرةِ أفكارك الجرداءِ . . . ،

فبعدَ قليلٍ ما تنفصدُ أوراقها خُضْرًا ثم تَتَفطَّر ثم تورق ثم تتلفَّعُ،

وإذا شجرةُ أفكاركَ خضراءُ وارفةُ الظّلالِ

وظلالُهَا التى أفىءُ - أنَا - إليها تُسمّيها - أنت - الهمَّ . . . !

لقد جارَ مِنْكَ لسانُك . . ولكن سوف يرضينى منك شىءٌ واحدٌ،

سوفَ يرضينى منكَ أنك لن تَنْسَانِى بعد اليوم وإن لم نَلْتَقِ . .

ولكن . . . ما أعجزنى، وما أعجز البركان!!

* * *

ومالكِ الآن يا نفسى؟ ألست كما كنت! لا تسرُّكِ ولا تسوءكِ الأقدارُ؟

ألستِ كما كنتِ؟ سنَّةً من الأبد يستوى فى مرآتك الليل والنهارُ؟

ألستِ كما كنتِ؟ بعضَ الفلك الذى تجرى فيهِ الشموس والأقمارُ؟

ألست كما كنتِ؟ عالماً كُلُّهُ ألغازٌ وكلُّهُ أسرارٌ؟

أم أشعَّةُ عينيها تجعل من بنائى أحجاراً على أحجارٍ؟

* * *

أغضبتَ – أيها الحبيب –؟ أحزِنْتَ . . ؟ لا! لا تغضَب ولا تحزَن

إننى ما ضحِكتُ من سَخَر ولا استهزاءٍ

ضحكتُ إذ صُرِفتُ عن الصواب وقد ملكتهُ . . .

لا تغضبْ ولا تَحزنْ . . . ألا تعرفُ ما هى الدُّموعُ . . . !

الدُّموعُ البريئة التى تذرقها أنت لا ما يسكبهُ الناسُ من محاجرهمْ . .

هى: . . . بل لا لا . . . إنها سرٌّ صناعتى، لنْ أبوحَ به، . .

ويكفيك مِن عِلْمها أن تعرفَ أنّى – أنا – التى أصنعُها لك . . .،

أنا التى أصنعُ دموعكَ وأحلامكَ، وشجونكَ وآلامكَ . . .،

أنا التى أصنعُ لك كلَّ شىءٍ، . . .

أنا التى تحبُّك . . .، وأنا التى لن تنْساك . . . .

* * *

ما هذا؟ اِختفيتِ؟ فإنى لا أراك يا حبيبتى . . .

ما هذا؟ أين أنتِ يا صانعة دُموعى وآلامى؟

أينَ أنتِ يا صانعة آمالى وأحلامى؟

أين أنت؟ أينَ أنت؟ إنك تسمعيننى . . . لقد قلتِ ذلك

إنكِ تسمعيننى فلماذا لا تجيبين ندائى؟ لماذا؟

تعالَىْ، تعالَىْ! تعالَىْ واصنعى لى آلامًا ودموعًا أُخرى،

تعالَىْ، تعالَىْ! تعالَىْ واصنعى لى آمالاً وأحلامًا جديدةً

أريدُ آلامًا ودموعًا،

أريدُ آمالًا وأحلامًا

صَاحِبُ المِسْحَاة

كتبها الشاعر الأمريكى أدون ماركهام

على أثر رؤيته صورة لميليه المصور الفرنسى تمثل عاملاً أضناه العمل

* * *

«خلق الله آدمَ على صُورتِه» حديث نبوىّ

أرأيتموهُ!! متـوكِّئًا على نِصاب مِسحـاته، قد قوَّست - ما سوَّى الله من عوده - أثقالُ السنَـين، فهو يُصوِّب إلى الأرض من نظراته.

أرأيتمـوه!! وفى محيَّـاه يتراءى خواءُ الأجـيال المتصـرمة، وعلى ظهره أعباء الحياة الدنيا

ألا فمن ذا الذى ردّه مـيتًا لا تنبعثُ منه عـاطفة فى طربٍ، ولا تقشـعرُّ فيه جارحـة من يأس؟ من ذا الذى صيره شـيئًا لا تحزنهُ نائبـة، ولا يحركه أمل. كـأنما هو ثور أعجم فى بلادته وحيرته؟

---

(١) المِسْحاة: مَجْرَفَة من حديد.

من ذا الذى وطَّأ فكَّه الوحشىَّ حتى استرخى؟ ولمن كفٌّ دكَّت هذا الجبين حتى انهزم؟ ولمن نَفَسٌ عصف بشعلة هذا العقل حتى انطفأت.

أهذا هو المخلوق الذى برأه الله وسَوَّاه وأخرجه ليكون له السلطان على البر والبحر؟ وليتوسَّمَ النجوم فى أفلاكها؟ وليستنبط القدرة من بناء السماوات، ولينتفض إحساسه بنشوة الخلود؟ سبحانك الله ... فما نظنٌّ إن فى جهنَّم - ما بين خافيها وباديها - صورة هى أبعث للرعب والفزع من هذه الصورة. لا ولا صورة هى أفصح لسانًا بخزى هذه الأرض فى حرصها الأعمى. أو صورة هى أجمع للآيات والنُّذر المرسلة لهذه النفس الإنسانية. أو صورة هى أحفل بأشراط الدمار الذى يأتى على هذا العالم.

شتَّان مَا هذا الحيوان الذى يحمل أثقال الحياة، وما حَمَلَةُ العرش من الملائكة المطهرين. ما لهذا العبد الذى يدير طاحونة الحياة، ولأفلاطون وفلسفته السامية؟ ماله وللثريا وعنقودها الخافق فى أرجاء السماء؟ ماله ولسُبُحَات الأغانى المترامية؟ ما لهذا العبد وتَنَفُّس الفجر الندىِّ وانبلاجه؟ ما له وللون الفاتن فى الوردة الجميلة.

من خلال هذا الشبح المفزع تطل علينا الأجيال المعذّبة، وفى هذه القامة المقوّسة تتمثل مأساة الحياة. بل من خلال هذه الصورة شكت الإنسانية بثّها إلى القدرة العالية التى خلقت السموات والأرض، حين خُدعت بالخيانة، وسُلبت بالمكر، وأُذيلَت باللؤم، واستُصفِيَت مواريثها بالمظالم. فكان بثُّها وشكواها شُعْبَةً من الوحى والنبوةً.

وأنتم، أيها الأرباب والأمراء والحكام فى جنبات الأرض... أهذا ما تُقَدّمهُ أيديكم من عمل إلى ربكم سبحانه؟ ... هذا المَسْخ المشوّه، ... ،قد ذهبتم بنور النفس التى كانت تضىء فى قلبهِ ...!! تباً لكم ... كيف تقوّمون مرة أخرى ما تقوَّس من هذا العود المعوجّ؟ انفثوا فيهِ - إن استطعتم - روح الخلود .. بل ردُّوا عليهِ النظرة السامية التى كانت لهُ، بل النور المبصر الذى كان فى عينيهِ، ... ردُّوا عليهِ نَشْوتهُ للطرب، ولذته فى الأحلام. ارفعوا عنهُ ما نزل بهِ من الفُضُوح الباقية، وأصلحوا ما كان من الخطايا الشائنة وامسحوا عن قلبه هموماً لا طِبَّ لها.

أيها الأربارب والأمراء والحكام فى جنبات الأرض

ألا خبرونا أين يضع الغيب المحجوب هذا الإنسان؟ وكيف

يجيبهُ عن سؤاله المُتَوَثّب الضارى يوم تزلزل الأرض، وتخرُّ الجبال ويتدافع الكون بعضهُ فى بعض . . . ! ألا وظنُّوا ما يُفْعَل بهؤلاءِ الأرباب الظالمين والملوك المتجبرين الذين نكَّروا الصورة التى سوَّاها الله ثم صوَّروه فى تجاليد هذا المَسْخ الهائل

ظُنُّوا . . . يوم تُبدَّل الأرض غير الأرض والسموات

يوم يأتى القاهر الجبَّار ليحاسب خلقه الجبارين

يوم ينطق الحقُّ الأبدىُّ، ويسكت الزمن الفانى

﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلائِكَةُ صَفًّا لاَّ يَتَكَلَّمُونَ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾

﴿يَوْمَ يَنظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنتُ تُرَابًا﴾

رحمة الله عليها

لأوسكار وايلد

نشرت بمجلة المقتطف، الجزء الرابع من المجلد ٨٥ ديسمبر ١٩٣٤م، ص: ٥٠٤

[عنى محمود محمد شاكر بنقل هذه القصيدة نقلاً حرفيًّا، وتوخّى علاوةً على ذلك أن يكون فى الترجمة العربية شئٌ من الإيقاع الموسيقىّ، المعهود فى الشعر المرسل باللغات الأجنبية]

خَفِّفِ الخُطَا   إنها قَريبْ   تَحتَ الضَّرِيبْ(١)

واخفِضِ الصَّوْتَا   إنَّها تكادْ   تَسْمَعُ النَّبْتَا   وَهْوَ يَنْمو

وفَرْعُها الجَثْلُ   يلمعُ كالتِّبْرِ   خَبَا به الصَّدَا(٢)

تِلْكَ التى كَانتْ   غَرِيرَةً طَفْلَهْ   قد ضَمَّها التُّرَابْ(٣)

زَنبقةً كانتْ   بَيْضَاءَ كالضَّرِيبْ   ما عَلِمَتْ يومًا

بأنها أُنْثَى   فَشَبَّ عُودُهَا   فى رِقَّةٍ ولِينْ

---

(١) الضرب: الثلج.

(٢) الفرع الجثل: الشَّعْر الغزير. خبا: معروف، يقال فى النار إذا سكنت، وفى النجم إذا قل ضوؤه وقارب على الاختفاء. الصدا: الموت.

(٣) الطفلة: الرَّخْصَة الناعمة.

هَذا هُوَ التَّابُوتْ والحَجَرُ الصَّلْدُ يَقْسُو على الصَّدْرِ

دَعْنِى أنا وَحْدِى أُعذِّبُ القَلْبَا فإِنَّها تَرْتَاحْ

صَهٍ صَهٍ صَهِ لَنْ تَسْمَعَ الغِنَاءْ ولا حَنِينَ النَّاىْ

كلُّ مُنَى حياتى مَدفُونةٌ هنا سُنُّوا عليها التُّرْبْ[1]

* * *

(١) سَنّ الترابَ: صبَّه على وجه الأرض صباً سهلا.

الشَّبابُ والشَّيْخُوخَة

لروبنصن جفرز – شاعر أمريكى معاصر

نشرت بمجلة المقتطف المجلد ٨٥ – ديسمبر ١٩٣٤

زكِّ دَمَ الشبــاب الفائر ما بدا لك، فـإِن السعادةَ لا تتــحقَّقُ
لأحد إلَّا حين يخوضُ الحيــاة فى الشباب والدَّمِ الفوَّار....
إلى شتائها حيثُ يسعُ الرجُل أن يتلبّثَ ويتذكَّر ما مضى.

فى الشباب والدم الفوّار فتنةٌ وجمالٌ، ومثل ذلك فى السكينة.

فى بحر الشباب جُزُرٌ عارضةٌ، ولكن الكِبَر كلَّهُ جزيرة وقمةٌ عاليةٌ.

وفى الكِبَرِ وهنٌ غير قليل، ولكن الشباب جميعه حُمَّى دائمة.

لأَن تَتَلفّتَ فى سكينة إلى آثار صنع الله مملوءَ القلب بالمحبـة،
أَجْدَى عليك فيما أرى من أن ترتضع ثدىَ الأُمِّ أو ثدى الحبيبة

...... لن تجدَ فيما تملك أَبْقَى عليك من الذكرى

ولكنى حين أَبلُغُ تلك الجزيرة الغبراء وأَعْلُو قمتها فكل

المنى أن تكون بعينى منازل أحبابى الأقدمين –

ببحورها وجبالها، فأمدُّ الطرف متأملًا فى بحر الموت
بِظَماٍ أبلغ من ظَمَئى إلى الكِبَر.
إن الذى يشتدُّ بهِ الظمأُ إلى الحياة لهو أشدُّ
بعدُ ظَمَأً إلى الموتِ

ذكرى أم كلثوم

للشاعر التركى إبراهيم صبرى

[نشرت الرسالة فى عددها (٤٨٠) تعريفًا بالشاعر التركى إبراهيم صبرى وترجمة لقصيدة من شعره. وهذه القصيدة التى ترجمها صديقه الأستاذ «محمود محمد شاكر» تعطى صورة جديدة من الشعر التركى بل من الشعر التركى فى غربته. وفيها يصف الشاعر ذلك الصوت الشعرى السامى الذى يسحر السمع، ويسبح بالروح فى جو ممتد كامتداده، مرتعش كرعشته، منتحب كانتحابه: صوت أم كلثوم]

إلى أخى محمود محمد شاكر

انصرفتُ من دعوتك الماضية وقد احتفظت بشعور وإحساس كتب فى ذاكرتى هذه الأبيات:

* * *

كان يومًا بديعًا مِلْؤُه السرور! واحسرتا لذلك اليوم! لقد مضى!

ألوان من الطعام لذيذة اتصلت بموسيقى السِّحْر التى فاضت على شفتى أم كلثوم الفاتنة،

قصيدة وردية من أباريق اللحن انسكبت فى أرواحنا.

حين يأخذنى سكر الإبداع أجد قلبى نشوانَ،

وتذهب أعصابى فى سُبات عميق من فرط ما ثملت.

* * *

حينئذ أشعر بعروج خيالى وحده إلى عالم الأرواح

تاركًا على الأرض كل ما هو نقيض لهذا الصوت السماوى

أُرانى أصل بخيالى إلى قمر فى آفاقه نغم ألحانه من عالم الحُور والسحر:

هو ذرة أثيرية أُخرى لا أبعاد لها، تكوِّن هواء ذلك القمر وماءه وأرضه ونوره الشفاف.

إن هذا الصوت ليس للتراب، إنما حقه أن يسمع فى السموات

فى مصر التى تشعرك بالبقاء أدوارُها التاريخية المديدة

وفى مصر التى يشبه الأهرام فيها صوت أم كلثوم

لا أقف لأستمع بل أُبادِر لأنظر وأشاهد.

(ليلى والدهر) فى ذلك الصوت كلاهما كمومياء مُذهَّبَة جديرة بالمشاهدة.

فى هذا الصوت تتمزق صدور العشاق إربًا إربًا،

وكيف لا تتمزق فيه صدور العشاق، وقد وَرِث نبىٌّ موسيقار لوعةَ نايه من هذا الوادى.

وإن حفَرَ البَشَرُ الهواءَ فى المستقبل، فلعلهم يكتشفون فى صوتها صوتَ المزامير.

حين تبدأ تغنى ينبعث صوتها كأنه وسوسةٌ ذاتُ ألوان من الحباب المنطفئ على النيل الأخضر الذى يجرى أمام الشمس النَّارنجِيَّة؛

ثم إذا بك تراه ينقلب إلى أمواج فى بحر تندفع كل موجاته فترتطم على قلب؛

ثم إذا بك تراه ينتصر على البعد المطلق.

تخال رَجْع (نواه) آتيًا من وراء الفضاء.

هذا الصوت يغرد كتغريد البلبل في الجنة،

كأنما تفوح منه رائحة ماءِ الورد وشجرة العود؛

كأنه نطفة يجرى فيها ماء الحياة، لو انصبَّت قطرة منها على أجساد الموتى لشعروا بها.

هذا الصوت يمسُّ خدَّ السمع كمنديل من الحرير في كفٍّ معطّرة،

كم من ناصية قد اعتمدت على هذه اليد الساحرة

تبكى وتنوح، غارقة فى حنانها،

لذلك ينبعث ترديده منتحبًا

ولذلك يحرق كما يحرق البكاء

* * *

حين غربت الشمس - انطفأ اللون الأحمر للرمال المتوهجة فى جوف الصحراء فكأنها استحالت رمادًا،

وتردد فى نفسى صدى النغمة الأخيرة لهذا الصوت فأثار وجدى فقمت للوداع من زاويتى حيث كنت مستغرقًا فى خواطر.

كأن ذاكرتى لم تكن معى

عادت كأنما عادت من وراد أُفق بعيد؛

وكأنها يد وضعت على كتف روحى

وأعادتنى إلى الحقيقة.

تذكرت حينئذ زمنًا من الأزمنة الماضية:

اجتمعت ليلة فى بيت صديق ومعنا (سامى)[١]

ما كان أبدع ما غنى من (الغزل) والأصوات!

كيف كوى بها قلوبنا؟

وكيف امتلأت جفوننا بالدموع ككؤوس خمر؟

وكيف أصبح شيطان ألحانه ساقيًا للعَبَرات؟

إذا فاضت دموع التأثر من هذه العيون التى كانت ترسل دموع اللذة فى ذلك الزمن، فلا بأس!

فإن فى هذه الأرض أصواتًا تجعل الغربة أُنسًا

وفيها مودتك المخلصة الغالية.

---

(١) مطرب تركى.

فهرس القوافى حسب ورودها فى الديوان

فهرس قصائد الديوان مرتبة حسب القوافى

فهرست